كتاب الهلال

١٠ قروش

سلسلة
ثقافية
شهرية

رسائل نهرو إلى أنديرا

أحمد بهاء الدين



كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : أحمد بهاء الدين

رئيس التحرير : محمود أمين العالم

العدد ١٨٠ ذو القعدة ١٣٨٥ - مارس ١٩٦٦

No. 180 — Mars 1966

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة جنيه مصرى - فى السودان جنيه سودانى فى سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا سوريا لبنانيا - فى بلاد اتحاد البريد العربى جنيه و ٣٠٠ مليم - فى الامريكتين ٥ دولارات ونصف - فى سائر انحاء العالم ٣٥ شلنا

سعر البيع للجمهور : قطر والبحرين ٤٠ آنة ، ليبيا (بنغازى وطرابلس) ١٥٠ مليما ، الجزائر ١٧٥ فرنكا ، المغرب ١٥٠ فرنكا

ں

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغــــلاف بريشـــة
الفنان جمال كامـل.

إهـــــــداء2005
الأستاذ الدكتور/ أحمد حمدي محمود
القاهرة

مختارات
من
رسائل نهرو إلى أنديرا

•

ترجمة
أحمد بهاء الدين

دار الهلال

مقدمة

منذ عشر سنوات بالضبط ـ مارس ١٩٥٥ ـ صدرت الطبعة الاولى من هذا الكتاب الذى تجده بين يديك . يومها كان نهرو زعيما عالميا ملء السمع والبصر ، وداعية نشيطا يجوب انحاء العالم مبشرا بشعار الحياد الايجابى والتعايش السلمى .. وكانت انديرا فى نظر العالم مجرد الابنة ذات الوجه الباسم الوديع ، التى تظهر مع ابيها فى الحفلات ، وتقوم الى جوار الرجل الكبير بدور « ربة البيت » ، بعد ان ماتت زوجته « كمالا » وتركته وحيدا

وهذه الطبعة الثانية من الكتاب ، تظهر وقد مرت سنوات منذ ذلك اليوم الذى تحول فيه جثمان نهرو الى رماد محترق ينثر على صفحات نهر جومنا المقدس ، وقد اصبحت « انديرا » الابنة ذات الوجه الباسم الوديع ، تشغل منصب ابيها لا أقل : فهى رئيسة وزراء الهند .. واول امرأة فى التاريخ تحكم أمة كبرى يزيد تعدادها على الاربعمائة مليون ، وفى مرحلة تكاد تكون أخطر واحرج مراحل تاريخها الحديث ، منذ الاستقلال ..

وانديرا ليست ابنة نهرو بالدم فقط . ولكنها ابنته ايضا بالفكر والنضال والوجدان والمشاركة . والهند بملايينها الاربعمائة عندما اختارتها ، انما كانت فى الواقع تختار ذكرى الرجل العظيم ، وتتعلق بأذيال زعامته التى اختفت . كأن الهند تطلب انسانا تناسخت فيه روح نهرو . ولا احد يعرف بالضبط ، هل هذا الذى اختارته الهند حقيقة ام وهم . هل كانت الهند فى اختيارها

لانديرا تعيش فى الماضى ام تختار المستقبل . هذا هو الامتحان الكبير الذى تواجهه انديرا اليوم . ولعلها فى قرارة نفسها تعلم انه رغم انهم اختاروها لانها أوثق استمرار لنهرو ، فهى لا تستطيع ان تنجح اذا كانت مجرد استمرار لنهرو

وانديرا تقول عن نفسها انها بدأت الاشتغال بالسياسة وهى فى الثالثة من العمر . فجدها كان رئيسا لحزب المؤتمر ، وابوها نهرو كان من ابرز المناضلين فيه ، وأمها « كمالا » كانت عضوا نشيطا فى فرع حزب المؤتمر فى مدينة « الله اباد » ، من مدن ولاية كشمير . هكذا تفتحت عيناها على الاجتماعات السرية تعقد فى البيت ،والمظاهرات تطاردها قوات الاحتلال الانجليزية : اما لعبة طفولتها المفضلة فكانت أن تقف على المائدة وتخطب فى خدم البيت ، مقلدة المشاهد التى كانت تراها

ويروى هندى عجوز من أصدقاء الاسرة كيف انه زار بيت نهرو مرة فاستقبلته الطفلة انديرا لتقول له فى براءة: « اسفة .. فان بابا وماما وجدى ذهبوا الى السجن ! »

ولا شك ان هذا كله قد ألهب مخيلة الفتاة وأثار وجدانها .. ففى اول رسالة كتبها نهرو اليها من السجن، فى هذا الكتاب ، قال لها ابوها بمناسبة عيد ميلادها الثالث عشر « اتذكرين يوم قرات لاول مرة قصة جان دارك وبهرت بها ، وكيف قلت لى أن أملك هو أن تكونى مثلها ذات يوم ؟ » . فهكذا كانت انديرا منذ الصبا الباكر تداعبها أحلام ذور سياسى كبير ..

ومع التعليم والسفر الى اوروبا وسن الشباب ، عرفت انديرا طريق العمل السياسى الجدى ، من تنظيم فرق للشباب الى السير فى المظاهرات الى المشاركة فى العصيان المدني ومراقبة حركة مقاطعة البضائع الانجليزية الي

ملازمة غاندى . وفى خلال دراستها فى انجلترا التحقت زمنا بعضوية حزب العمال البريطانى

وفى عنفوان الشباب ، عرفت انديرا التمرد على ابيها. فقد احبت شابا هنديا اسمه نيروز غاندى (لا يمت بصلة الى غاندى الكبير) وقررت ان تتزوجه . ولكن نيروز غاندى كان من طائفة « البارسى » احدى طوائف الهند التى تختلف عن الهندوس الذين تنتمى انديرا اليهم . وعارض ابوها هذا الزواج بشدة ، ولكنها صممت على رأيها وتزوجت الشاب المحامى المغمور . وبعد شهور من الزواج قبض عليها تقود مظاهرة نسائية كما قبض على زوجها ، وقضيا فى السجن اكثر من سنة . وبعد ان أطلق سراحهما ذهبا الى بلدتها « الله اباد » حيث عاشا وانجبا ولدين « كلاهما يدرس الهندسة الان فى انجلترا »

وفى سنة ١٩٣٦ ماتت امها ، ومن جديد يعود نفوذ أبيها الطاغى عليها ليتهر حتى نفوذ الزوج . فقد صممت رغم معارضة زوجها على أن يتركا الله اباد لكى تعيش فى دلهى الى جوار ابيها الوحيد وترعاه . وكأن هذا الانجذاب من جديد نحو الاب كان نقطة شقاق بينها وبين زوجها ، فقد اتفقا على الانفصال سنة ١٩٤٧ ، وعاشا منفصلين ثلاث عشرة سنة ، حتى مات سنة ١٩٦٠ ، قبل ان يموت أبوها بأربع سنوات

ومنذ سنة ١٩٤٧ ، لازمت انديرا اباها لم تفارقه . فهى ابنته وزميلته وتلميذته . وهى موطن سره وهى سكرتيرته وهى رسوله فى مهمات شتى .. وهى ربة بيته ومضيفة زواره وراعية اوراقه وملفاته

هكذا مرت السنون وهى فى قلب مركز السلطة ذاته ، حتى اصبح مكانها فى مركز السلطة طبيعيا ، وأصبحت علاقتها بزعماء الهند ورجالاتها تسمح لها بهذه المكانة

وتجعلهم يتقبلونها تقبلا طبيعيا : فلما اراد نهرو قبل وفاته بقليل ان يعيد تنظيم حزب المؤتمر العتيق ، عهد لها بهذه المهمة ، وانتخبت رئيسة لحزب المؤتمر لمدة سنة

أما وقد مات نهرو ، وجاء بعده لال بهادور شاسترى ، ومات بدوره ، فلماذا عادت الهند واختارت انديرا ؟

ان بعض الناس فى الهند ، لم يرتاحوا لاختيار انديرا لهذا المنصب ، وهم بوجه عام كل ممثلى الاتجاهات اليمينية داخل حزب المؤتمر وخارجه ، لانهم لا يحبون ماضى انديرا اليسارى ، وعلاقاتها بالعناصر الاشتراكية في حزب المؤتمر ،حتى انهم يعتقدون انها كانت دائما الرئة اليسارية من رئتى نهرو نفسه ..

وهذه العناصر اليمينية بالذات ، منها من عارض نهرو فى السنوات الاخيرة لحكمه ، ومنها من وجد فى اختفاء نهرو بعد وفاته فرصة ذهبية لتدمير كل ملامح الاتجاه الاشتراكى فى سياسة الهند الداخلية، ولعدم الانحياز فى سياسته الخارجية

هذه العناصر قبلت على مضض اختيار لال بهادور ساشترى بعد وفاة نهرو ، بأمل الوصول الى سياسة أكثر اعتدالا من سياسة نهرو ، ولهذا تم اختيار ساشترى بالاجماع ، ورضى « موراجى ديساى » ممثل اليمين بأن يتنازل له . اما فى معركة انتخاب انديرا ، فقد توجس اليمين ان يكون فى هذا عودة الى سياسة نهرو والى سياسة اكثر منها انطلاقا الى اليسار ، فخاضوا المعركة حتى آخر لحظة ، ورفض ديساى التنازل ، فنال ما يقرب من المائتى صوت ونالت انديرا اكثر من اربعمائة

وفريق آخر من حزب المؤتمر ، لعلهم الفريق الوسط ، كان يختار انديرا وعينه على الانتخابات العامة المقبلة بعد سنة وبضعة شهور : فحزب المؤتمر قد شاخ وضعضعته الخلافات وسنوات الحكم والراحة والمشاكل الداخلية

الطاحنة واختفاء الزعامة الملهمة .. فكان من رأى هـذا الفريق ان اسم انديرا نهرو بأثره العميق لدى الجماهير هو بالذات ما يحتاج اليه الحزب ليحتفظ بقـوته فى الانتخابات النيابية المقبلة ..

يضاف الى هذا ان كل زعماء حزب المؤتمر القـدامى تقترب اعمارهم من السبعين ، فى حين ان انديرا يقل عمرها عن الخمسين ، فهى بالنسبة لهم عنصر شاب ، وفى السنة التى قضتها على راس الحزب اصطدمت انديرا كثـيرا بالقيادات التقليدية القديمة ، لمحاولتها الدائبة ان تدفع بعض عناصر الشباب الى الامام

كتبت مجلة « لنك » الهندية اليسارية القوية النفوذ تروى قصة اختيار انديرا « ان زعماء حزب المؤتمر حين قرروا تأييد انديرا ، قرروا ذلك اولا لانهم يعـرفون ان الناس يرغبون فى قيادة اكثر شبابا واندفاعا ، وثانيالانهم يعرفون انهم لا يكسبون الانتخابات العامة القادمة الا فىظل اسم يمكن ان يقدم على عمل تغييرات جذرية . وثالثالانهم كانوا يعرفون انها سوف تكسب .. سواء أيدوها أو لم يؤيدوها ! » وتستطرد المجلة قائلة :

« ولكن هذا الاقتناع لم يكن سهلا . فالقادة التقليديون فى الحزب يخشون ما يسمونه بتطرف انديرا ويكرهون ما اشتهرت به من أنها « دوغرى » الامر الذى لا يناسب اساليب الساسة القائمة على اللف والدوران . هـكذا كانوا مترددين اول الامر حتى استطاع « كاماراج » رئيس الحزب ان يغير فكرهم . وان يثبت لهم انها فائزة لامحالة وكان هم « كاماراج » فى الدرجة الاولى ان يحمى الحزبمن تسلل سلطة كبار الاعمال الى مركز السلطة العليـا . فرجال الاعمال هؤلاء لهم نفوذ قوى ، لا يوقفه عند حـده الا شخصية غير مدينة لهم ، وتسمح شعبيتها الواسـعة

بأن تكون لها اليد العليا فوقهم

وفى نفس الوقت كان على «كاماراج» ان يقنع انديرا ذاتها بدخول المعركة . فقد كانت أنديرا مترددة . لا لعزوفها عن المنصب والمهمة ولكن لمعرفتها بكراهية معظم الزعماء القدامى لها ، فكانت تشفق من مرارة المعركة وآثارها . ولكنها حين رأت التأييد الطاغي لها بين صفوف اعضاء الحزب ، تشجعت وقبلت دعوة كاماراج لها الى دخول المعركة .. وبالفعل ، كان فوز انديرا بأغلبية الثلثين ، ضد ثلث الاصوات التى فاز بها « ديساى » دليلا الى المعركة التى تنتظرها بعد الفوز ..

وماذا تواجه انديرا فى السلطة ؟

تواجه اقسى امتحان تعرض له وضع الهند الدولى بتحدى الصين لها . وتواجه أقسى امتحان فى وضع الهند الداخلى بشبه المجاعة الزاحف في انحاء كثيرة من البلاد..

أقسى امتحان واجهته امرأة ، فى جميع بلاد الدنيا ، وعبر كل عصور التاريخ

وهذا الكتاب الذى بين يديك هو مختارات من الرسائل التي كتبها نهرو الى ابنته ، عندما كان هو فى السجن وكانت هى فى الثالثة عشرة من العمر

وقد جمع نهرو هذه الرسائل بعد ذلك فى كتاب ضخم من ألف صفحة ، يضم ١٩٦ رسالة ..

وقد حاول نهرو فى هذه الرسائل ان يلقن ابنته درس السياسة والحياة عن طريق سرد تاريخ العالم . وعندما وقفت ، منذ عشر سنوات ، أمام مهمة اختيار القليل من هذا الكثير ، آثرت ان اختار الرسائل التى تحدث فيها اليها عن الثورات الكبرى التى تركت اثرها فى حياة العالم، خصوصا ما اتصل منها بمعالم الصراع فى عالمنا المعاصر..

احمد بهاء الدين



هدية عيد الميلاد

الى أنديرا .. من السجن المركزى فى نايني ..

٢٦ اكتوبر ١٩٣٠ ..

فى عيد ميلادك ، تعودت ان تتلقى مني الهدايا والتمنيات الطيبة .. اما التمنيات الطيبة فهى لك كالعادة ، ولكن اى هدية استطيع ان ارسلها اليك من سجن نايني ؟ .. إن التى استطيع أن ابعث بها اليك من هنا لا يمكن ان تكون أشياء لا تستطيع حتى جدران السجن أن تمنعها ..

وأنت تعرفين يا حبيبتى كيف اكره التكلف والادلاء بالنصائح فاني كلما هممت ان اصنع شيئا من ذلك ذكرت قصة « رجل حكيم جدا » .. قرأتها مرة ..

نمنذ الف وثلاثمائة سنة وصل الى الهند رحالة عظيم ، آت من الصين ، باحثا عن المعرفة والحكمة ، كان أسمه « هيون تسانج » وقد عبر صحارى الشمال وجباله مقتحما فى بسالة أخطارا كثيرة ، مواجها ومتغلبا على عقبات كثيرة ، بقدر ما كان تعطشه الى المعرفة كان هائلا ..

وقد انفق فى الهند سنوات كثيرة مثقفا نفسه ومعلما غيره ، خصوصا فى جامعة نالاندا العظيمـــة التى كانت موجودة حينئذ بجوار المدينة التى كانت تسمى باتاليبوترا وتعرف الآن باسم «باتنا» ونال هيون تسانج من الثقافة حظا عظيماً واصبح يسمى « أستاذ القانون » قانون بوذا ، وقد جاب الهند كلها ورأى ودرس الناس الذين كانوا يسكنون فى هذه البلدة العظيمة ، ثم الف كتابا عن مشاهداته روى فيه هذه القصة التى تقفز الى خاطرى كثيرا .. انها تدور حول رجل من جنوب الهند جاء الى « كارنا سوفارنا » التى كانت مدينة تقع بالقرب من بيهار ، وكان هـــذا رجلا كما تقول القصـة يلبس حول وسـطه حزاما من النحاس ، ويحمل على رأسه مشعلا مضيئا .. وبعكاز فى يده ، ورأس مرفوع وخطوات فخورة ، كان يتجول فى هذه الهيئة الغريبة ، فاذا سأله احد عن سبب ظهوره فى هذا المنظر الغريب ، قال ان عقله عظيم لدرجة أنه يخشى ان تنفجر بطنه لو لم يلبس هذا الحزام النحاس حولها، ولانه يمضى مدفوعا بحبه للقوم الجاهلين الذين يعيشـــون فى الظلام ، فقد حمل على رأسه مشعلا مضيئا

على أننى متأكد تماما من انه لا خطر مطلقا من ان تنفجر بطنى من فرط المعرفة ، وعلى ذلك فلا داعى لان ألبس حزاما من النحاس ، كما اننى ارجو ان لا تكون حـكمتى مهما كان شأنها فى بطنى وأيا كان مكانها فان هناك دائما مكانا واسعا للمزيد منها ، ولا يوجد أى احتمـــال لان أستغنى عن هذا المزيد ، وان كنت محدود الحكمة الى هذا الحد فكيف اقف كالرجل الحكيم وأوزع مـواعظى على الآخرين ؟ ..

وقد كنت أعتقد دائما أن خير سبيل لمعرفة الخطأ من الصواب لنتبين ما يجب أن نصنع ممـا لا يجب ، ليس

فى التكلف والتظاهر ولكنه فى الحديث والمناقشة فمن خلال المناقشة نصل احيانا الى جانب صغير من الحقيقة . لقد كنت أحب أحاديثى معك . وكم ناقشنا سويا مسائل كثيرة ، ولكن العالم واسع ، وخارج عالمنا توجد عوالم أخرى غريبة ورائعة ، ومن أجل ذلك فاننا لانتوهم كما توهم ذلك الرجل الاحمق المعجب بنفسه ..

اننا قد عرفنا كل ما يستحق المعرفة واصبحنا حكماء .. ذلك ان الحكيم اذا وجد خليق بأن يحزن أحيانا . لانه لم يعد هناك مزيد يمكن أن يتعلمه .. انه خليق بأن يفتقد فرحة الاكتشاف وادراك أشياء جديدة ـ وهى مغامرة يجب أن نبحث كلنا عنها

على اذا ان لا اتكلف .. ولكن ماذا اصنع اذا ؟ ان الخطاب يمكن أن يغنى ولو قليلا عن الحديث . انه على الاقل عمل فى جانب واحد وعلى ذلك فاذا حدث وقلت شيئا يشبه الموعظة الحسنة فلا تأخذيها على انها جرعة كريهه يجب ابتلاعها ، بل خذيها على أننى أقترح عليك شيئا لتفكرى فيه

كثيرا ما قرأنا فى التاريخ عن فترات عظيمة فى حياة الامم ، عن رجال عظماء ونساء عظيمات واعمال عظيمة وكثيرا ما تصورنا فى أحلامنا وأمانينا اننا قد عدنا الى تلك الايام ، واننا نصنع أعمالا باسلة كالابطال والبطلات القديمات .. هل تذكرين كم كنت مفتونة وانت تقرئين لاول مرة قصة جان دارك ، وكيف كان املك ان تصبحى مثلها ؟ .. ان الرجال والنساء العاديين ليسوا فى الغالب ابطالا .. انهم يفكرون فى خبزهم اليومى فحسب ، فى أطفالهم ومشاكل بيوتهم وما الى ذلك . ولكن هناك فترات يؤمن الشعب كله فيها بهدف عظيم وحينذاك يصبح حتى الرجال والنساء العاديون ابطالا ، ويصبح التاريخ

خافلا لامعا .. والزعماء العظام عادة ينطوون على شيء يلهم الناس ويجعلهم يقدمون على الافعال المجيدة ..

وقد كانت السنة التي ولدت فيها أنت سنة ١٩١٧ من سنوات التاريخ المشهودة ، وفيهـا حظيت الهند بزعيم عظيم مليء بالحب لـكل الذين يقاسـون ، وبالرغبـة في مساعدتهم .. زعيم الهم شعبنا الاقدام على مغـامرات عظيمة وتضحيات نبيلة ، حتى يعود كما كان حرا،وحتى يلقى الجوعى والفقراء والمظلومون ما تنوء به ظهورهم من أثقـال ..

ان غاندى الآن في السجن ولكن سحر رسالته يسرى في قلوب ملايين الهنود الرجال والنساء ، بل الاطفـال يخرجون من أكواخهم ويجعلون من أنفسهم جنودالحرية في الهند ، اننا في الهند اليوم نصنع التاريخ ، وانت وأنا سعداء اذ نرى هذا يحدث أمامنا ، واذ نشارك في هذه الدراما المجيدة ..

ترى أى عبء سنحمل في هذه الحركة المجيدة ؟ أى دور سنلعبه؟ انني لااستطيع أن اقرر دورا سيقع من نصيبنا ولكن أيا كان هذا الدور ، فلنذكر اننا لن نصنع شـيئا يبعث الشك في هدفنا أو يجلب العار على مواطنينا ، فاذا كنـا جنـود الهنـد حقـا فان شرف الهنـد في حراستنا ، وهو شرف مقدس .. ومع ذلك فسـوف نشك كثيرا فيما يجب علينا ان نصنعه ، فانه ليس من السهل ان نقرر اين الخطأ من الصواب . ولكني ساقترح عليك طريقة تلجئين اليها كلما خامرك الشـك . طريقة قد تساعدك ، لا تصنعى أى شيء في الخفاء ، أو أى شيء تتمنين لو ظل خافيا . فرغبتك في اخفاء أى شيء معناها انك خائفة ، والخوف شيء ردىء وغير جدير بك ، كونى شجاعة ، وليكن بعد ذلك مايكون . فاذا كنت شجاعة

فانك لن تخافى قط ولن تصنعى أى شىء يمكن أن تخجلى منه وأنت تعرفين أنه فى حركتنا التحريرية ، تحت زعامة غاندى ، لا محل هناك للسرية والاختفاء

انه ليس لدينا ما نخفيه . اننا لا نخاف مما نصنع أو مما نقول اننا نعمل فى النـــور تحت الشمس وحتى فى حياتنا الخاصة لنكن اصدقاء للشمس ولنعمل فى النور ، لنبتعد دائما عن الظلام

لقد كتبت لك خطابا طويلا . ومع ذلك فمازال لدى الكثير لاقوله لك ، ولكن كيف يمكن ان يضمه خطــاب واحد ؟ ..

أنت محظوظة ، كما قلت ، لانك تشهدين هذا الصراع المجيد من اجل الحرية الذى يجـــرى فى بلدنا . وانت محظوظة ايضا لان لك هذه الام الباسلة الصغيرة ، فلو داهمك الشك مرة او الاضطراب فلن تجدى خيرا منهـا صديقا ..

وداعا يا صغيرتى ، ولتصبحى مع الايام جندية باســلة فى خدمة الهنــد ..

مع كل حبى ، وتمنياتى الطيبة ..



عبرة التاريخ

٥ يناير ١٩٣١

ماذا أكتب لك يا عزيزتى ؟.. ومن أين ابدأ ؟ اننى لا اكاد أفكر فى الماضى حتى يتزاحم فى راسى عديد هائل من الصور، ولا املك نفسى من المقارنة بين هذه الاحداث الغابرة ، وبين ما يحدث اليوم ، محاولا ان أجد فيها عبرة ترشدنى ..

وأظن اننى كتبت اليك مرة أقول أن دراسة التاريخ يجب أن تعلمنا كيف أن العالم تطور ببطء ، ولكن بلا توقف . كيف ان الحيوانات الاولى البسيطة اخلت مكانها لحيوانات اكثر تعقيدا وتقدما . وكيف جاء أخيرا الحيوان السيد الانسان فانتصر بقوة ذكائه على الاخرين . ان تطور الانسان من الهمجية الى الحضارة موضوع التاريخ

وقد حاولت فى بعض خطاباتى ان أوضح لك كيف ان فكرة التعاون والعمل المشترك قد تقدمت وكيف ان مثلنا الاعلى يجب ان يكون : العمل المشترك للخير العام ..

ومع ذلك فانه يحدث أحيانا أن ننظر الى فترات معينة من التاريخ ، فلا نكاد نصدق أن هذا المثل الاعلى قد تقدم

فيها كثيرا ، أو اننا قد قطعنا شوطا فى الحضارة بعيدا ، فنحن اليوم مثلا فى أشد الحاجة الى التعاون .. ومع ذلك فقد نرى دولة تهاجم دولة اخرى وتضطهدها فى انانية ، أو انسانا يستغل انسانا اخر ، فنسأل انفسنا : اذا كنا بعد ملايين السنين من التطور ما نزال متخلفين ، ضالين الى هذا الحد ، فكم ترى يلزمنا من الزمن حتى نتعلم كيف نتصرف كأناس عاقلين ، ذوى ضمائر ؟ اننا كثيرا ما نقرأ عن فترات غابرة من التاريخ فتبدو لنا خيرا من زمننا هذا ، واكثر ثقافة وتحضرا ، مما يجعلنا نشك فى أن عالمنا ماض حقا الى الامام ، لا الى الوراء ..

نعم لقد مرت ببعض البلاد عصور لامعة ، مصر ، الهند ، الصين ، اليونان ، وغيرها ، واغلب هذه البلاد قد انتكست وعادت الى الوراء .. ولكن حتى هذا لا يجب ان يفقدنا الامل . فالعالم كبير . وارتفاع امة او انهيارها لفترة محدودة من الزمن لا ينفى تطور العالم كمجموع ..

وكثير من المعاصرين يتباهون بحضارة هذا العصر وبما حققه العلم الحديث من معجزات .. والعلم الحديث قد صنع المعجزات حقا .. ورجال العلم خليقون فعلا بكل تقدير .. ولكن هؤلاء المتفاخرين قلما يكونون عظماء .. وانه يجدر بنا ان نذكر أن الانسان من بعض النواحى لم يتقدم كثيرا عن الحيوانات .. بل من المؤكد ان من الحيوانات ما تتفوق على الانسان من بعض الوجوه

وقد يبدو هذا القول سخيفا والذين لم تتسع معلوماتهم قد يسخرون منه .. ولكن يكفى أن تقرئى ما كتبه « ميترلنك » عن حياة النمل ، والنمل الابيض وسوف تعجبين للنظام الاجتماعى الدقيق لهذه الحشرات .. اننا نعتبر الحشرات ادنى انواع الكائنات الحية .. ومع ذلك فان هذه الاحياء التافهة قد تعلمت من التعاون والتضحية

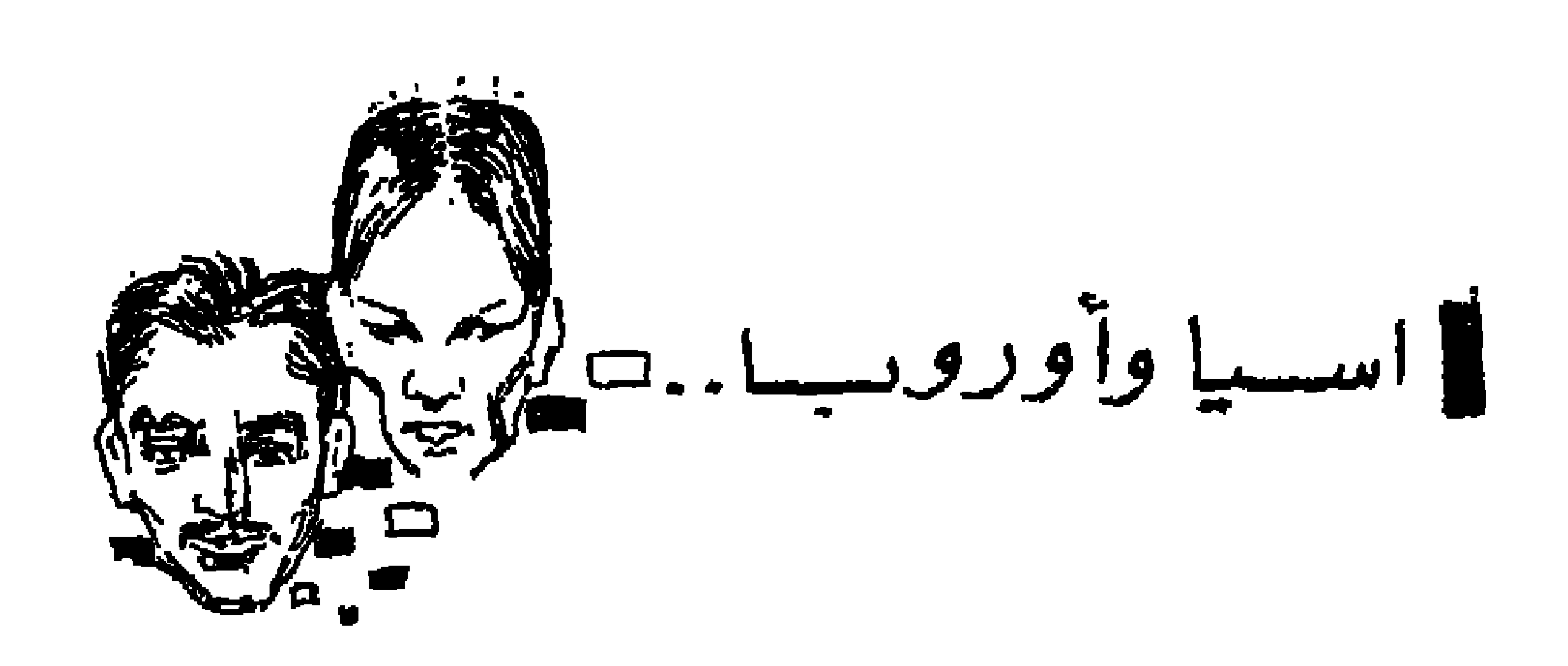
فى سبيل الخير العام ، أكثر مما فعل الانسان . انني منذ قرأت عن حياة النمل الابيض وتضحية النملة فى سبيل رفاقهـــا وانا احتفظ له فى قلبى بمكان عزيز ، فاذا كان التعاون وايثار مصلحة المجموع هما معيار الحضــــارة فيجب أن نعترف بأن النمل الابيض من هذه الناحية ارقى من البشر .. فى بعض كتبنـــا السنسكريتية القـديمة ، نجد شعرا يمكن ترجمته كالاتى :

« من اجل الاسرة يضحى بالفرد .. ومن اجل الجماعة يضحى بالاسرة ، ومن أجل الوطن يضحى بالجماعة ، ومن أجل الروح يضحى بالعالم كله .. » وقليل من يستطيع أن يفسر ما هى الروح ، وربما فسرها كل واحد على نحو مختلف ، ولكن هذا الشـــعر السنسكريتى يلقننـــا نفس الدرس فى التعاون والتضحية من أجل الخير العام

ولقد نسينا فى وطننا هذا الدرس زمنا طويلا . ونسينا أن هــــذا هو طريق العظمة الحقيقية . ومن اجـل ذلك سقطنا ، ولكننا بدأنا نعود بالتدريج الى هذا السبيل .. ما أروع ان نرى الرجال والنساء ، والاولاد والبنات يضحون باسمين من أجل الوطن غير عابئين بأى شدة أو عذاب

اننا نحاول اليوم أن نحرر وطننا ، وهذا عمل عظيم .. ولكن أعظم من ذلك أن نعمل لتحرير الانسانية كلها . ولان صراعنا جزء من الصراع الانسانى العظيم لانهاء التعاســة والشقاء فاننا نستطيع أن نقول اننا بصراعنا الوطنى نقوم بدورنا فى العمل على تقدم العالم ..

أنت الان تجلسين فى أناند بادان .. وأمك فى سجن ملكا ، وانا هنا فى سجن نايني .. وكثيرا ما يفتقد كل منا صاحبه ، وبشدة ، أليس كذلك ؟ .. ولكن فكرى فى اليوم الذى سوف نلتقى فيه من جديد ، اننى اترقب هذا اليوم ، وان تفكيرى فيه ليضىء قلبى وينعشه ..



اسيا وأوروبا ..

٨ يناير ١٩٣١

قلت لك فى خطاب سابق ان كل شيء يتغير ، وباستمرار ، وان التاريخ ليس الا سجلا للتغيير ..

والتاريخ الذى نتعلمه فى المدارس والكليات لا يعد شيئا ، أنا شخصيا لم أتعلم من المدرسة الا القليل . لقد تعلمت شيئا قليلا ، قليلا جدا عن تاريخ الهند ، وعن تاريخ انجلترا ، حتى تاريخ الهند الذى نتعلمه كان بعيدا عن الحقيقة ، كتبه قوم ينظرون الى بلدنا من أعلى . أما عن تاريخ سائر الشعوب فلم أتعلم شيئا ، ولم أقرأ التاريخ الحقيقى الا بعد أن تركت الكلية . ومن حسن الحظ ، ان زياراتى للسجن اتاحت لى فرصة استكمال ثقافتى ..

لقد كتبت لك فى بعض خطاباتى السابقة عن الحضارة القديمة فى الهند ، وعن قدوم الاريين ، ولم اكتب لك شيئا عما قبل ذلك لاننى لا اعرف كثيرا عنه . ولكنه قد يسرك أن تعرفى انه فى السنوات القليلة الاخيرة ، تم اكتشاف بعض آثار الحضارة القديمة فى الهند هناك فى الشمال الغربى بالقرب من مكان اسمه « موهن جوردارو » . لقد

حفر بعض الناس هناك وعثروا على اثار ربما رجعت الى خمسة آلاف سنة مضت ، واكتشفوا موميات تشبه موميات المصريين القدماء . تصوری كان ذلك منذ آلاف السنين حين كانت اوروبا ما تزال ارضا بدائية موحشة، وأوروبا اليوم قوية وشعوبها تعتبر نفسها أرقى شعوب الارض ثقافة وتحضرا ، وهم ينظرون الى آسيا وشعوبها من عل ويحضرون ويأخذون منها كل ما يمكنهم الحصول عليه ..

حقا ، اكم تغير الزمن .. تعالى نلقى نظرة على اوروبا واسيا .. افتحى أى اطلس وتأملى اوروبا الصغيرة ملتصقة بالقارة الاسيوية الهائلة .. انها تبدو كما لو كانت امتدادا ضئيلا لها .. وحين تقرئين التاريخ ستجدين ان آسيا كانت المسيطرة مدى عصور طويلة من التاريخ ، وكان اهلها يذهبون افواجا لغزو اوروبا ، ينهبونها أو ينشرون الحضارة فيها .. الاريون والعرب والمغول والاتراك ، كل هؤلاء جاءوا من اماكن متفرقة فى آسيا وانتشروا فى اوروبا ، كانت آسيا تنتجهم فى اعداد هائلة كالجراد ، وظلت اوروبا زمنا طويلاً وكأنها مستعمرة لآسيا ، وكثيرون جدا من ابناء اوروبا الآن انحدروا من سلالات الغزاة الاسيويين

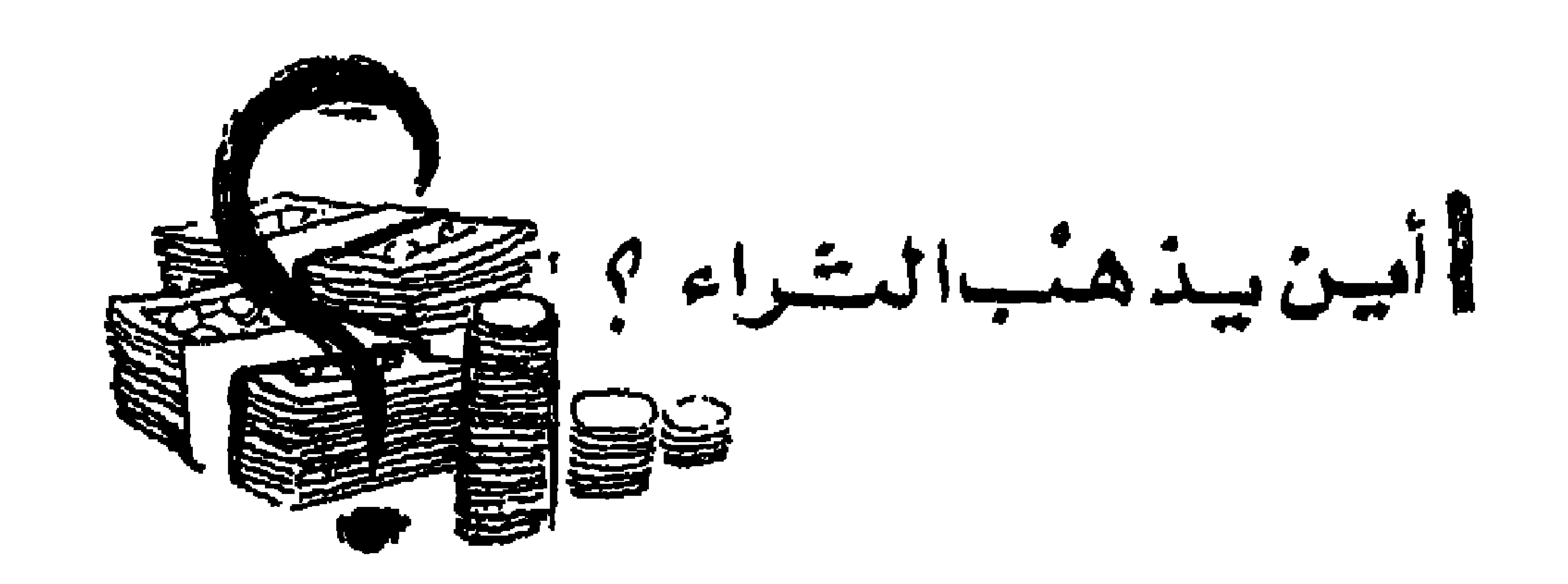
آسيا تستلقى على الخريطة كالعملاق الضخم ، فى حين تبدو أوروبا صغيرة .. ولكن هذا لا يعنى أن آسيا اعظم الآن من اوروبا ، او ان اوروبا غير جديرة بالاهتمام ، فالحجم هو احقر مقياس لعظمة الرجال ، أو البلاد . فنحن نعرف جيدا ان اوروبا على انها اصغر القارات الا انها أقواها كما نعرف ان كثيرا من بلادها مرت بعصور باهرة من التاريخ وانها اخرجت العلماء العظام الذين استطاعوا باستكشافاتهم ومخترعاتهم ان يدفعوا الحضارة

الى الامام ، وأن يجعلوا الحياة أسعد لملايين من الرجال والنساء وأنها اخرجت العظماء من الكتاب والمفكرين والفنانين والموسيقيين .. أنه من الحماقة ان لا نعترف بعظمة اوروبا ..

ولكنه من الحماقة ايضا ان ننسى عظمة آسيا .. فمن الخطأ ان يبهرنا بريق اوروبا وينسينا الماضى .

فلنذكر انها آسيا التى اخرجت قادة الفكر الذين أثروا فى العالم اكثر من أى شيء آخر ، الا وهم انبياء الاديان الكبرى .. فالهندوسية أقدم دين على وجه الارض ، خرجت من الهند .. وكذلك البوذية التى تنتشر فى الصين واليابان وبورما والتبت وسيلان - واليهودية والمسيحية خرجتا من فلسطين على ساحل آسيا الغربى .. كما ان الدين الاسلامى ولد فى مكة فى بلاد العرب

حقا لقد تغير الزمن ولكنه يتغير الان مرة اخرى امام اعيننا . فالتاريخ يتحرك بطيئا خلال القرون ولكنه فى بعض السنين يسرع ويلهث . واليوم نرى التاريخ يتحرك بسرعة فى آسيا . فالقارة القديمة تستيقظ من سباتها الطويل . وعيون العالم كله مفتوحة عليها الان ، ذلك ان الناس جميعا يعرفون ان آسيا سوف تلعب فى المستقبل دورا خطيرا .



١٨ يناير ١٩٣١

وضحت لك مرة كيف تنمو طبقات من الناس ، كلما تقدم الانسان ، فالانسان البدائى كان يعيش عيشة صعبة ، حتى فى مجرد العثور على الطعام ، كان يصطاد ويجمع البندق والفواكه يوما بيوم ، وينتقل من مكان الى مكان بحثا وراء الطعام وشيئا فشيئا تكونت القبائل وكانت فى الواقع عبارة عن عائلات كبيرة تعيش سويا وتصطاد سويا .. ثم حدث تغير خطير .. ذلك هو اكتشاف الزراعة ..

فقد وجد الناس ان استنبات الطعام من الارض عن طريق الزراعة اسهل من الصيد طول الوقت . ثم ان الحرث والبذر والحصد تستدعى المكوث فى الارض ، فهم لا يستطيعون بعد أن ينتقلوا كما تعودوا من قبل ، بل أصبح عليهم ان يبقوا بالقرب من حقولهم . وهكذا نمت القرى والمدن ..

كذلك أدت الزراعة الى تغييرات أخرى ، فالطعام الذى تنتجه الارض أصبح أكثر من حاجة الاستهلاك . وبدا

هذا الفائض يخزن ، فأصبحت الحياة اكثر تعقيداً مما كانت ايام الصيد الخالية .. وبدأت طبقـات معينة من الناس تقوم بالعمل اليدوى فى الحقول وطبقات اخـرى تقوم بالتنظيم والاشراف .. وشيئا فشيئا أصبح المنظمون والمشرفون اكثر قوة ، ثم اصبح منهم الحـكام والملوك والنبلاء .. ثم بدأ هؤلاء يستغلون قوتهم ليحتفظوا لانفسهم بجانب كبير من فائض الطعام الذى كانت تنتجه الارض

وهكذا اخذوا يزدادون ثراء ، بينما ظل الذين يعملون فى الارض بأيديهم يتحصلون بالكد على الطعام الذى يسد رمقهم ..

ثم جاء الوقت الذى اصبح فيه هؤلاء المنظمون اكسل واجهل من ان يقوموا حتى بعملية التنظيم . صـاروا لا يصنعون شيئا ، ولكنهم يحصلون على نصيب الاسد من الطعام الذى ينتجه الفلاحون وبدأوا يعتقدون ان لهم الحق فى ان يعيشوا بهذه الطريقة ، من عمل الاخرين دون أن يصنعوا شيئا بأنفسهم

أنت ترين اذا أن ظهور الزراعة قد غير الحياة كثيراً ، كذلك فان تحسن وسائل الزراعة وسهولة الحصول على الطعام غيرت اساس المجتمع كله .. لقد منحت النـاس الفراغ وصاروا طبقات مختلفة . ولم يعد كل فرد مشغولا بانتاج الطعام ، فاستطاع بعض الناس ان ينصرفوا الى اعمال اخرى .. فنمت انواع مختلفة من الحرف . وان ظلت القوة فى طبقة المنظمين

وسوف تعرفين فيما بعد مدى التغييرات التى خلقتها الطرق المستحدثة فى انتاج الاغذية وسائر الضروريات . لقد بدأ الانسان يطلب اشياء اخرى كما يطلب الطعام ، وكان كل تغيير فى وسائل الانتاج يؤدى الى تغير فى شـكل المجتمع . ولاضرب لك مثلا باستخدام البخار فى ادارة

المصانع وتسيير السكك الحديدية والسفن . لقد أصبحت المصانع التى تدار بالبخار تنتج السلع بأسرع جدا مما يفعل الصناع وأصحاب الحرف بأيديهم ، أو بأدواتهم البسيطة . لقد كانت الآلة الكبيرة أداة هائلة حقا ثم ان السكك الحديدية والبواخر ساعدت على نقل الطعام ومنتجات المصانع بسرعة الى بلاد بعيدة .. ولك أن تتصورى ان تغييراً عظيما شمل العالم ..

ان التاريخ حافل باكتشاف الوسائل الجديدة والسريعة لانتاج الطعام وسائر الحاجات . ولعلك ستقولين أن أستخدام الوسائل الحديثة كان كفيلا بأن يضاعف الانتاج وان يجعل العالم أكثر ثراء وان يتيح لكل فرد الحصول على ما يريد ، وهذا صحيح من ناحية وخطأ من ناحية أخرى . فتحسين وسائل الانتاج قد زاد بغير شك فى ثروة العالم .. ولكن اى جزء من هذا العالم ، اننا نرى بوضوح أن الفقر والبؤس مازالا منتشرين فى بلادنا ، بل فى بلاد غنية قوية كانجلترا نفسها فلماذا ؟ وأين تذهب الثروة ؟ ..

انه لغريب حقا أن تتضاعف الثروة المنتجة ثم يبقى الفقراء فقراء . لقد حقق الانسان تقدما هائلا فى بلاد معينة . ولكنه تقدم ضئيل جدا اذا قورن بازدياد الثروة .. ومن السهل ان نرى لمن تذهب هذه الثروات المتزايدة .. انها تذهب الى هؤلاء الذين تعودوا — بوصفهم المنظمين — أن يحصلوا على نصيب الأسد من كل شىء . وانه لمن الغريب حقا أن نرى طبقات كاملة من المجتمع تتكون من قوم لا يحاولون القيام بأى عمل ، وهم يحصلون على نصيب الاسد من عمل الآخرين . بل ان هذه الطبقات بالذات — وصدقينى !! — تظفر بالتكريم !.. ومن الحمقى من يعتقدون أنه من الحطة للانسان أن يكسب رزقه من

عمل يده ..

تلك هي حـال عالمنا العجيب . أليس غريبا ان يكون الفلاح فى حقله والعـامل فى مصنعه فقراء ، مع أنهم هم الذين ينتجون للعالم الطعام والثراء ؟ اننا نطلب الحرية لبلادنا ، ولكن ماذا تساوى هذه الحرية اذا لم نضع حدا لهذا الوضع المقلوب ونعطى الرجل الذى يعمل ثمـار عمله ؟ لقد ظهرت كتب كثيرة ضخمة عن السـياسة وفن الحكم ، عن الاقتصاد وكيف يجب ان توزع الثروة القومية ، والأساتذة والعلماء يحاضرون كثيرا فى هـذه الموضوعات ، ولكن بينما الناس يتحدثون ويتناقشـون يقاسي اولئك الذين يعملون

وبعد .. فقد مضى الانسان القـديم يتقدم ويتغلب تدريجيا على الطبيعة ، فلح الارض وازال الغابات وأقام البيوت والمفروض ان الانسان قد قهر الطبيعة الى حدما ـ والناس يتحدثون عن انتصـارهم على الطبيعة ، ولكن هذا قول مرسل وليس صحيحا بحذافيره ، والاصح أن نقول أن الانسان قد بدأ يفهم الطبيعة وكلما زاد فهمه لها زادت قدرته على أن يتعاون معها وأن يفيد منها ..

فقديما كان الانسان يخاف الطبيعة وظواهرها ، وبدل أن يحاول فهمها كان يقدسها ويقدم لها القرابين . كمالو كانت الطبيعة وحشا كاسرا يجب تهدئته وتملقه . كان الرعد والبرق والامراض الوبائية تخيفهم . وكانوا يحسبون انه يمكن اتقاء غضبها بالعطايا ، كانوا يعتقدون أن كسوف الشمس او خسـوف القمر مثلا مصيبة رهيبة ، وبدلا من أن يحـاولوا فهم الظواهر الطبيعية تراهم ينحرون الذبائح ويقيمون الولائم ويتطهرون لحماية الشمس والقمر مع ان الشمس والقمر كفيلان بالعناية بنفسيهما ، وليس لنا ان نقلق ابدا من ناحيتهما .

لقد حدثتك عن تقدم الحضارة والثقافة . وقد رأيت كيف ان هذا التقدم بدأ حين استقر الناس فى المدن والقرى .وحين زادت كميات الطعام الناتجة بحيث منحتهم مزيدا من الفراغ أتاح لهم ان يفكروا فى أشياء اخرى غير الصيد والاكل

وهكذا ظهرت الحرف ، والفنون ، والثقافة ، بوجه عام . وكلما زاد عدد السكان احتاج الناس الى أن يتقاربوا . وأن يتعاونوا .. وأن يعقدوا الصفقات ، ولما كانوا محتاجين الى ان يعيشوا سويا ، فقد وجب عليهم أن يتجنبوا اتيان مامن شأنه أن يؤذى الزملاء أوالجيران. والا أصبحت الحياةالاجتماعية مستحيلة . فالاسرة وهى مجتمع صغير ـ لا يمكن ان تعيش سعيدة الا اذا احترم كل فرد فيها الاخرين . ومع ذلك فكثيرا ما ننسى هذه الروابط وننسى كيف نكون عقلاء مهذبين ، ونتصرف كما او لم نكن مثقفين ولا متحضرين .. وهذا يحدث سواء فى الاسرة ، أو بين ابناء الوطن الواحد ، أو بين الاوطان المتجاورة ..

أن تزايد السكان قد ادى الى تنمية الحياةالاجتماعية. مما أحتاج الى مزيد من القيود ، ومزيد من مراعاة الواحد منا ألاخر .. أن الحضارة أو الثقافة يصعب تعريفها ولن احاول تعريفها ، ولكن ، لاشك أن من اهم ما تعنيه كلمة حضارة .. تلك القيود التى يفرضها الانسان على نفسه مراعاة للآخرين ..

فالانسان الذى لا يتحكم فى نفسه ولا يراعى الاخرين .. انسان غير متحضر ..



إنجلترا تقطع رأس ملكها..

٢٩ أغسطس ١٩٣٢

سوف ننفق قليلا من الوقت فى تاريخ انجلترا .. فقد أهملناها تماما طيلة العصور الوسطى ، اذ لم يكن لهـــا فى ذلك الوقت شأن يذكر .. كانت أكثر تأخرا من فرنسا .. ثم لم تلبث جامعة اكسفورد ان أصبحت مركزا شهيرا للعلم ، وبعد قليل ظهرت جامعة كامبريدج ..

وأهم الاحداث فى تاريخ انجلترا القديم ، يدور حول نشأة البرلمان ، فمنذ عهد بعيد وجهود النبلاء تتجـــه الى الحد من قوة الملك ، حتى اعلنت « الماجنــا كارتا » ـ أو العهد الاعظم ـ سنة ١٢١٥ وبعد ذلك بقليل نرى مقدمات ظهور البرلمان ، وهى كالعادة مقدمات غـــير ناضجة .. فمن النبلاء الـكبار والاســاقفة تكون مجلس اللوردات .. ولكن الاهم من ذلك ظهور مجلس منتخب يتكون من الفرسان والملاك الصغار وبعض ممثلى المدن وهذا المجلس المنتخب هو الذى اصبح مجلس العمـــوم .. وكان كلا المجلسين يتكون من الملاك والاغنياء .. حتى أعضاء مجلس العموم كانوا لا يمثلون الا عددا قليلا من

الملاك والتجار والاغنياء فقط ..

وكان مجلس العموم ضعيفا ، ثم بدأ اعضاؤه يوجهون نظر الملك الى اخطائه ، وبالتدريج بدأوا يتـــدخلون فى شئون الضرائب ، ولمـا اصبح من المتعذر على الملك ان يفرض ضريبة جديدة أو ان يجمعها بغير موافقتهم ، بدأ الملك يسعى وراء موافقتهم على كل ضريبة قبل فرضها .. والسلطة المالية سلطة خطيرة دائما ، فلما اصبحت لمجلس العموم هذه السلطة زادت قوته وارتفع مستواه الى حد كبير .. وكثيرا ما كان الخلاف يثور بين الملك والبرلمان .. ولكن البرلمان كان ضعيفا الى حد ما ، فظل الملاك الانجليز ملوكا مستبدين ،وبان تجنبوا لوقت طويل .. أى صدام عنيف مع البرلمان

وقد استطاعت انجلترا ان تتجنب المنازعات الدينيـــة الرهيبة التى عرفتها اوروبا ، حقا كان هنـــاك كثير من الخلافات الدينية والاضطرابات والارهاب ، واحـــراق كثير من النساء وهن احياء بدعوى انهن ساحرات ... ولكننا لو قارنا هذا كله بما كان يحدث فى أوروبا ، وجدنا أن انجلترا كانت تعيش فى سلام .. ومع تولى الملك هنرى الثامن العرش كان المفـروض ان تتحـــول انجلترا الى البروتستنتية ، وكان هناك فى انجلترا بالطبع كاثوليـــك كما كان فيها بروتستنت متطرفون ، ولـــكن الكنيســـة الانجليزية الجديدة جاءت شيئا بين الاثنين وقالت انهـــا بروتستنتية ولربما كانت أقرب الى الكاثوليك منها الى البروتستنت ، وقد كانت فى واقع الامر «وزارة خارجية» يرأسها الملك نفسه ، وتم الانفصال النهائى عن البابا فى روما ، وانتشر احساس عام ضد البابوية ، وفى عهد الملكة اليزابيث « ابنة هنرى الثامن » تم اكتشاف طرق جديدة للمواصلات البحرية الى الشرق والى امريكا واغرت فرص

التجارة الجديدة كثيرا من الناس . وتحت تأثير النجاح الذى حققه رجال البحر الاسبان والبرتغاليون ، وأحلام الثراء الذى يمكن تحقيقه ، اتجه الانجليز الى البحر، بدأ ذلك بأن ظهر السير فرانسيس دريك وغيره من القراصنة وأخذوا يسطون على سفن الاسبان الاتية من أمريكا . ثم غامر دريك برحلة بارعة حول العالم .. وعبر سير والتر رالى المحيط الاطلنطى ، وأنشأ هناك مقاطعة على الشاطىء الشرقى أصبحت الان الولايات المتحدة الامريكية .. وقد أطلق على هذه الولاية الاولى اسم فيرجينيا تكريما للملكة العذراء (اليزابيث) .. وكان رالى اول من نقل عادة تدخين الطباق من أمريكا الى أوروبا ثم ظهـــرت الارمادا الاسبانى وانتصر الانجليز على هذا الاسطول الفخور، مما شجعهم كثيرا .. ولم يكن لكل هذه الاحداث من أثر على الصراع بين الملك والبرلمان الا فى أنها صرفت اهتمام الناس هناك الى الشئون الخارجية .. وان ظل الخلاف بين الملك والبرلمان يضطرم من وراء ستار ...

والعصر الاليزابيثي من أزهى عصور انجلترا .. كانت اليزابيث ملكة عظيمة ، كما أن انجلترا أنجبت فى ذلك العصر رجالا عظماءعملوا فى ظل مملكتها ولكن أعظم من الملكة ومن فرسانها المغامرين ، كان الشعراء والمؤلفون الدراميون الذين بزغوا فى عصرها وعلى رأسهم جميعا شكسبير ، فمسرحياته الان معروفة فى جميع أنحاء العالم بالرغم من قلة معلوماتنا عن شخصيته .. وقد صدق الناقد الانجليزى ليتون ستراتشى حين قال عن ذلك العصر ان « فرقة هذا العصر الرائعةالتى استطاعت روحها القوية أن تعطى انجلترا فى جيـــل واحد نادر أعظم تراث من الدرامـــا عرفه العالم » ..

وماتت اليزابيث سنة ١٦٠٣ ثم خلفها ملك اسكتلندا

بوصفه أول واحد فى سلسلة الوراثة ·· وأصبح الملك جيمس الاول اول ملك لانجلترا واسكتلندا بعد اتحادهما، وهكذا تم لانجلترا ببساطة ما عجزت عن تحقيقه بالقوة ..

وكان جيمس الاول يؤمن بحق الملك الالهى ويكره البرلمان، ولم يكن فى مهارة اليزابيث ، فلم يلبث أن ثارت المشاكل بينه وبين البرلمان ··

وقد حدث فى عصره أن ترك كثيرون من البروتستنت المتشددين بلادهم على الباخرة « ماى فلاور » فى سنة ١٦٢٠ ليستوطنوا أمريكا ، معترضين بذلك على الطريقة الاوتوقراطية التى سلكها جيمس الاول فى الحكم ، وعلى الكنيسة الجديدة التى رأوا أنها لم تكن بروتستنتية كما يجب ·· ولذلك تركوا بلادهم ، وأبحروا الى العالم الجديد الواسع عبر الاطلنطى ·· وألقوا مراسيهم على الشاطىء الشمالى فى مكان أطلقوا عليه اسم « نيوبلايموث » ثم تبعهم مستعمرون اخرون وبالتدريج اتسعت المقاطعات حتى أصبحت ثلاث عشرة مستعمرة على طول الشاطىء.. كانت بذرة الولايات المتحدة بعد عصور طويلة ··

ثم جاء ابن جيمس الاول ، شارل الاول ، فازدادت الامور فى عهده توترا ، ووصل التوتر الى غايته سنة ١٦٢٥ ، قدم اليه البرلمان سنة ١٦٢٨ ·· « طلب الحقوق » وهى وثيقة بارزة فى التاريخ الانجليزى ·· وفى هذا الميثاق سجل البرلمان على الملك أنه ليس حاكما مطلقا ، وأن هناك أمورا كثيرة محرمة عليه ·· فليس من حقه أن يفرض ضريبة أو يسجن أحدا من الناس بغير حق ·· أى أنه ببساطة ليس له أن يصنع فى انجلترا ، فى القرن السابع عشر ما يصنعه الحاكم العام فى الهند ·· فى القرن العشرين ، اذ يصدر الاوامر ويسجن الناس بمقتضاها ··

وثار شارل غضبا من مواجهته بما له وبما ليس له ،

فأمر بحل البرلمان وبدأ يحكم بدونه .. وبعد سنوات اضطرته الحاجة الماسة للنقود الى أن يدعو برلمانا آخر للانعقاد . وكان السخط يتزايد على كل ما صنعه شارل بغير برلمان ، وبدأ البرلمان يستعد لقتاله ! .. وبعد سنتين أى فى سنة ١٦٤٢ بدأت الحرب الاهلية .. الملك فى جانب مؤيدا بالنبلاء ، وبجانب كبير من الجيش ، والبرلمان فى جانب مؤيدا بالتجار الاغنياء وأهالى مدينة لندن .. واتصلت الحرب بضع سنوات ، حتى ظهر فى جانب البرلمان قائد عظيم ، أوليفر كروموبل ، كان منظما عظيما ، ورجلا يؤمن برسالته ايمانا مقدسا .. كتب كارليل عنه قائلا : «فى ساعات الخطر الحالكة ، وعلى هضبات الميدان، كان يشرق الامل فيه كعمود من النار ، ساعة انطفاء هذا الامل لدى الاخرين » ونظم كروموبل جيشا جديدا ، بث فيه من روحه ونظامه وواجه البيوريتان « المتطهرون » من جيش البرلمان ، فرسان شارل ، وانتصر كروموبل فى النهاية ، وسقط الملك سجينا فى أيدى البرلمان ..

وكان كثير من نواب البرلمان ما يزالون يريدون التفاهم مع الملك ، ولكن كروموبل لم يستمع اليهم ، وذهب ضابط من جيشه ، كولونيل برايد ، واقتحم مبني البرلمان وطرد كل هؤلاء النواب ، وأطلق على هذه الحركة اسم حركة « تطهير برايدى » . كان علاجا عنيفا وغير مشجع للبرلمان . فاذا كان البرلمان قد عارض الملك من أجل استبداده فهذه قوى أخرى ، لا تلقى بالا الى حقوقه الشرعية ، وتلك طبيعة الثورات ..

وقرر النواب الباقون أن يحاكموا شارل ، بالرغم من معارضة مجلس اللوردات ، ثم حكموا عليه بالموت حيث أنه ثبت أنه « طاغية ، خائن ، قاتل ، وعدو للوطن » وفى سنة ١٦٧٩ فى هوايتهول بلندن ، قطعت رأس هذا الملك

الذى كان يتحدث عن حقه الالهى فى الحكم ..

والملوك يموتون كغيرهم من الناس ، ولكن كثيرين منهم كانت ميتتهم عنيفة .. وتاريخ الملكية والارستقراطية حافل بالقتل ، ولكن ، أن يجعل مجلس منتخب من نفسه محكمة ، وأن يحاكم الملك ويحكم عليه بالموت ، ثم يقطع رأسه ، كل ذلك كان يبدو وكأنه رواية غريبة جدا ..

وانه لغريب من الشعب الانجليزى الذى عرف بمحافظته ونفوره من التغير السريع أن يضرب لنا هذا المثل فى كيف يجب أن يحاسب الملوك الطغاة . ولكن هذا المثل فى الواقع لم يضربه الشعب الانجليزى فى مجموعه ، بقدر ما ضربه كروميل ..

صدم الملوك والقياصرة والامراء فى أوروبا صدمة هائلة ، فماذا يحدث لو أصاب الغرور شعوبهم أيضا وصنعت كما صنع الانجليز ؟

لقد كان ممكنا أن يفكر هؤلاء الملوك في غزو انجلترا ، لولا أنه لم يكن هناك من السلالة الملكية الانجليزية من يطالب بالعرش ..

وأصبحت انجلترا ، لاول مرة فى تاريخها جمهورية وكان هناك كروميل وجيشه يدافعان عنها . وكان كروميل قد غدا فى واقع الامر دكتاتورا . وأطلق عليه اسم « اللورد الحامي » وتحت سياسته الحازمة المنتجة زادت قوة انجلترا وتفوق أسطولها على أساطيل فرنسا وهولندا واسبانيا . ولاول مرة أيضا أصبحت انجلترا سيدة البحار ..

ولكن الجمهورية الانجليزية لم تعش طويلا ـ لم تعش أكثر من أحد عشر عاما بعد قتل الملك شارل . فقد مات كروميل سنة ١٦٥٨ ، وبعد سنتين من وفاته سقطت الجمهورية ، وعاد الى انجلترا ابن شارل الذى كان قد

هاجر الى الخارج ، وتوج ملكا باسم شارل الثاني • وكان شارل الثاني هذا رجلا تافها سيء السمعة ، لا هم له من الملك الا ان يقضي وقتا جميلا .. ولكنه كان من الذكاء بحيث حرص على أن لا يصطدم بالبرلمان ، وكان في واقع الامر تابعا في السر لملك فرنسا • وفقدت انجلترا مكانتها التي اكتسبها كرومويل ، وجاء اسطول هولندا وأغرق الاسطول الانجليزي كله عند مدخل نهر التيمز • وخلف شارل الثاني أخوه جيمس الثاني ، فلم يلبث أن دخل في متاعب مع البرلمان •• كان جيمس كاثوليكيا متطرفا ، فأراد أن يعيد سلطة البابا في انجلترا وبالرغم من ضعف فكرة الانجليز عن الاديان الا انهم كانوا يكرهون البابا وكل ما يصدر عنه أو يتصل به . ولم يستطع جيمس الثاني شيئا ازاء ذلك وخاف من عاقبة خلافه مع البرلمان ففر من بلاده ولجأ الى فرنسا مرة أخرى وانتصر البرلمان على الملك ، انتصارا ساميا هذه المرة

لم يعد هناك ملك في البلاد •• ولكن انجلترا لم تشأ أن تعود جمهورية ، فالانجليزي يحب أن يكون له رئيس ويحب مظاهر الملكية وفخفختها

وهكذا أخذ البرلمان يبحث عن ملك مناسب حتى وجد واحدا من أسرة أورانج التي أنجبت قبل ذلك بمائة سنة ، وليم الصامت الذي قاد الهولنديين ضد اسبانيا • وجد البرلمان « وليما » اخر من أسرة أورانج متزوج من « ماري » احدى بنات البيت المالك الانجليزي • وهكذا توج وليم وماري ملكين سنة ١٦٨٨ وأصبح البرلمان الان هو صاحب السلطة العليا ، وتمت الثورة الانجليزية ، باعطاء السلطة للشعب ممثلا في البرلمان ••

ومنذ ذلك الوقت لم يجسر ملك انجليزي واحد على معارضة سلطة البرلمان •• الا أنه هناك وسائل أخرى

للتآمر والتأثير دون معارضة أو تحد ، وقد لجأ كثير من ملوك الانجليز الى هذه الوسائل

أصبح البرلمان اذا هو صاحب السلطة العليا ، ولكن ما هو هذا البرلمان ؟ لاتظنى انه يمثل الشعب الانجليزى ، ولكنه كان يمثل جانبا صغيرا منه فقط. فمجلس اللوردات كما هو واضح من اسمه كان يمثل اللوردات والاساقفة وكبار ملاك الاراضى . حتى مجلس العموم كان يضم الاغنياء فقط من الملاك أو التجار ، كان عدد الذين لهم حق الانتخابات من الناس قليلا جدا . وكان هؤلاء النواب يسمون حتى مائة سنة خلت باسم « اصحاب الجيوب » اذ كانت مقاعد النيابة فى جيوبهم دائما ، كانت الدائرة الانتخابية كلها قد لاتضم من اصحاب حق الانتخاب اكثر من واحد أو اثنين ، وقد قيل انه فى سنة ١٧٩٣ كان مجلس العموم يضم ٣٠٣ نواب انتخبهم ١٦٠ ناخبا فقط .. وكان هناك ناخب اسمه « ساروم » انتخب نائبين ، مرتين متتاليتين للبرلمان .. فالاغلبية الساحقة من الناس اذ كانوا لا يملكون حق الانتخاب ، اى كانوا غير ممثلين فى البرلمان .. كان مجلس العموم ابعد ما يكون عن الصفة الشعبية .. لم يكن يمثل حتى ولا الطبقة المتوسطة التى بدأت تنمو فى المدن ، كان يمثل فقط كبار ملاك الاراضى وقليلا من التجار الاغنياء وكانت مقاعد البرلمان تباع وتشترى وتدفع فيها الرشاوى ، وظل هذا الوضع قائما حتى سنة ١٨٣٢ ، وحين اقر البرلمان قانونا جديدا غير هذه الاوضاع ، بعد اضطرابات جسيمة ، وحصل مزيد من الناس على حق الانتخاب

هكذا ترين أن انتصار البرلمان آنئذ على الملك كان معناه انتصار حفنة من الاغنياء . وقد ظلت انجلترا محكومة فعلا بهذه الحفنة من اصحاب الاراضى والتجار الاثرياء ،

اما سائر الطبقات التى تتكون منها الامة فلم يكن من حقها أن تبدى الرأى ..

وعلى نفس الطراز كما لابد تذكرين ، كانت الجمهورية الهولندية التى انبعثت عن حرب الاستقلال الهولندية ضد اسبانيا ..

وبعد وفاة وليم ومارى آن ، اصبحت مارى ملكة على انجلترا فلما ماتت سنة ١٧١٤ ثارت مشكلة البحث عن ملك مرة اخرى ، وعثر البرلمان على ملك فى المانيا ، وكان حاكم مقاطعة هانوفر ، وجعله الملك جورج الاول ، ولعل البرلمان اختاره ملكا لانه كان غبيا تماما ، اذ وجد ان اختيار ملك ذكى قد ينافسه فى سلطته ، وكان جورج الاول ملك أنجلترا لا يعرف كلمة واحدة من اللغة الانجليزية . وكذلك كان ابنه جورج الثانى ، وهكذا اصبحت هذه الاسرة الالمانية هى البيت المالك الانجليزى الذى ما زال يحكم حتى الآن ، واقول يحكم تجاوزا ، لان سلطة الحكم الان كلها فى يد البرلمان

وبعد .. لعله قد يهمك ان تعرفى ان «جوناثان سويفت» مؤلف « رحلات جاليفر » قد عاش فى تلك الفترة من ١٦٦٧ الى ١٧٤٥ ، وكتاب « رحلات جاليفر » معروف جدا ككتاب للاطفال ولكنه فى الواقع نقد لاذع جدا لانجلترا فى ذلك العصر ، وفى نفس العصر أيضا عاش « دانييل ديفو » مؤلف « روبنسون كروزو »



الثورة الصناعية تبدأ فى إنجلترا..

٢٧ سبتمبر ١٩٣٢

يجب أن أحدثك الان عن بعض المخترعات الاليــة التى أحدثت هذا التغيير الهائل فى وسائل الانتاج . أن هــذه المخترعات تبدو لنا الان عادية بســـيطة حين نراها فى المصانع . ولكن التفكير فيها واختراعهـــا لاول مرة كان أمرا بالغ الصعوبة ، وقد جاء أول هذه المخترعات سنة ١٧٣٨ عندما ابتكر رجل اسمه « كاى » البكرة الطـــائرة أو المكوك الطائر الذى يستخدم فى نسج القماش . فقبل هذا الاختراع كان على النساج أن يضع الخيوط متشابكة ومتقاطعة فى الجهاز الذى اسمه « النول » ولكن المكوك الطائر أسرع بهذه العملية ، وضاعف انتاج النســـاج ، ومعنى هذا أن النساج أصبح قادرا على انتاج كمية أكبر من القماش ، وكان صعبا على الغزالين ان يزودوا هـــذا الانتاج الكبير من النسيج بمزيد من الغزل فأخذوا يبحثون عن طريقة لزيادة انتاجهم أيضا

وقد أمكن حل هذه الازمة فى سنة ١٧٩٤ عندما اخترع « هارجريفز » آلة جـديدة للغزل وتلت ذلك اختراعات

أخرى اخترعها ريتشارد آن كرايت وآخرون ، ثم أمكن استخدام قوة الماء وقوة البخار

وقد استخدمت كل هذه الاختراعات أولا فى صناعة القطن فازدهرت مصانع القطن . وكانت الصناعة التالية التى استخدمت هذه المخترعات الجديدة هى صناعة الصوف

وفى سنة ١٧٦٥ اخترع جيمس وات الآلة البخارية ، وقد كان هذا الاختراع حدثا عظيما ، أعقبه استخدام قوة البخار فى جميع المصانع ، وأدى ذلك الى تزايد الحاجة الى الفحم الذى يستخدم فى توليد البخار ، فنشأت صناعة التعدين واستخراج الفحم . وأدى استخدام الفحم الى اكتشاف طرق جديدة لتنقية الحديد بصهر الحديد الخام لفصل الصلب النقى ، وهكذا نمت صناعة الحديد بسرعة . وأقيمت المصانع الجديدة بجوار مناجم الفحم حيث يتوفر الفحم بسعر رخيص

هكذا نشأت ثلاث صناعات هائلة فى انجلترا . القماش والحديد والفحم ، وقامت المصانع بالقرب من مناجم الفحم ، وفى غيرها من المناطق

لقد تغير وجه انجلترا ، فحيث كانت المروج الخضراء الفاتنة ، ظهرت تلك المصانع الجديدة بمداخنها العالية ، التى تنفث الدخان الاسود وتلقى ظلا قاتما على كل شىء . ولم يكن منظر هذه المصانع جميلا ، بما حولها من تلال الفحم وأكوام الخردة والنفايات ، كما أن المدن الصناعية الجديدة التى نشأت حول المصانع لم تكن تمت للجمال بصلة فقد كانت تقام كيفما اتفق ، ولا هم لاصحابها الا جمع النقود ، كانت مدنا قبيحة قذرة ، وكان على العمال الذين يكادون يموتون جوعا أن يعيشوا فيها . كما كان عليهم أن يتحملوا جو المصانع البشع وكما يحدث عقب ظهور كل اختراع يؤدى الى استخدام

الالات بدلا من العمـــل اليدوى ، انتشرت البطالة بين العمال الذين أصـبحت الآلات تغنى عن الكثـيرين منهم ، ومن أجل ذلك كره العمال هذه الالات الجديدة كرها شديدا، بل وحاولوا تحطيمها . واطلق عليهم اسم مخربو الآلات

وتخريب الآلات له تاريخ طويل فى أوروبا ، يرجع الى القرن السادس عشر عندما اخترع فى المانيـــا « نول » آلى بسيط ..

وفي مخطوط قديم كتبه كاهن ايطالى سنة ١٥٧٩ ، ذكر عن هذا النول ان مجلس مدينة « واتيبزيج » خشى أن يؤدى هذا الاختراع الى القاء عدد كبير من العمـــال فى قارعة الطريق ، فأمر بتحطيم هذه الآلة ، وقتل المخترع واغراقه سرا !

وبالرغم من المعاملة التى لقيها هذا المخترع ، فقــد ظهرت هذه الآلة مرة أخرى فى القرن الســابع عشر ، واضطرمت الاضطرابات فى أوروبا كلها من جراء هــذه الآلة ، فصدرت قوانين كثيرة تحرم اســتخدامها ، وكان الناس يحرقونها علنا فى الشوارع والاسواق ، ولو أن هذه الآلة استخدمت بعد اختراعها لأول مرة لأعقبتهـا اختراعات أخرى ،ولربما تقدم العصر الآلى كله عن الموعد الذى جاء فيه . ولكن عدم استخدام هذه الآلة فى ذاته يدل على أن الظروف لم تكن قد تهيأت لظهورها بعـد ، فلما تهيأت هذه الظروف ظهرت الآلة وفرضت نفســها فرضا فى انجلترا رغم الاضطرابات العنيفة التى قامت فى وجهها هناك ..

وقد كان طبيعيا أن يشعر العمال أول الامر بالكراهية نحو هذه الآلة . ولكنهم أخذوا يدركون شيئا فشـيئا ان الغلطة ليست فى الآلة ذاتهـــا ، ولكن فى طـــريقة استخدامها بحيث تعود أرباحها على عدد قليـــل جدا

من الناس .. ولنعد بعد هذا الاستطراد الى نمو المصانع والآلات فى انجلترا

لقد قضت المصانع الجديدة على كثير من صناعات الاكواخ ، وأصحاب الحرف ، فقد كان مستحيلا على الصناع اليدويين أن ينافسوا هذه الآلات .. وأصبح عليهم أن يتركوا أدواتهم القديمة ويبحثوا عن عمل بالاجر فى هذه المصانع الجديدة التى يكرهونها أو ان ينضموا الى جيش العاطلين . ولكن انهيار صناعات الاكواخ لم يتم دفعة واحدة ولكنه مع ذلك كان سريعا الى حد كبير ، فلم تأت نهاية هذا القرن سنة ١٨٠٠ ، الا وكانت المصانع الكبيرة قد قبضت على ناصية الموقف. وبعد ثلاثين سنة ظهرت خطوط السكك الحديدية بعد أن اخترع « ستيفنسون » أول قاطرة . وهكذا امتد تأثير الآلة الى جميع أنحاء البلاد ، بل الى كل ناحية من نواحى الحياة فيها ..

ومن الطريف ان نلاحظ ان كل هؤلاء المخترعين ، ولم اذكر الا القليل منهم ، كانوا من طبقة العمال اليدويين . ومن هذه الطبقة ايضا خرج كثير من زعماء الصناعة . ولكن الآلات التى اخترعوها وما أعقبها من ظهور نظام المصانع الكبيرة ادى الى اتساع الهوة بين رب العمل والعامل . واصبح العامل فى المصنع الكبير مجرد «ترس» صغير فى آلة ضخمة ، عاجزا ازاء عوامل اقتصادية هائلة لا يستطيع فهمها فضلا عن التحكم فيها

وقد كان الصناع اليدويون واصحاب الصناعات الصغيرة هم أول من أدركوا ان ثمة خللا ما ، عندما وجدوا أن المصانع الجديدة تنافسهم وتبيع السلع بأسعار أرخص بكثير مما يبيعون بها السلع التى يصنعونها بأيديهم أو بأدواتهم البسيطة فى منازلهم . كان عليهم ان يغلقوا

دكاكينهم الصغيرة دون أى ذنب جنوه ، وانضموا الى جيش العاطلين الجرار . ثم ساقهم الجوع الى المصانع الجديدة يبحثون عن عمل . كان اصحاب العمل يتصرفون بغير شفقة ، وكان العمال من الرجال والنساء ، بل والاطفال يعملون ساعات طويلة فى اماكن كريهة غير صحية حتى يسقطوا اعياء على الارض ، وكان عمال مناجم الفحم يقضون نهارهم كله تحت سطح الارض ولربما تمضى عليهم شهور كاملة لا يبصرون فيها ضوء النهار

ولكن اياك ان تحسبى هذه الاشياء كلها كان سببها قسوة اصحاب العمل . لقد كانوا فى الواقع قساة من حيث لا يشعرون اذ كان العيب الاساسى فى النظام نفسه. كانوا يعملون على مضاعفة اعمالهم . وغزو الاسواق العالمية البعيدة وانتزاعها من بلاد اخرى . وفى سبيل تحقيق هذا الغرض كانوا مستعدين لعمل اى شىء . ثم ان شراء الآلات واقامة المصانع الجديدة يحتاج الى أموال طائلة ، لا يمكن استردادها الا بعد أن يتم انشاء المصنع ، ويبدأ فى الانتاج ويباع هذا الانتاج ، وهكذا كان اصحاب هذه المصانع يضغطون النفقات ويكرسون الارباح لبناء مزيد من المصانع ..

لقد سبقوا جميع بلاد العالم فى التصنيع وهم يريدون أن يستغلوا هذه الفرصة الفريدة فى كسب الارباح ، ومضوا فى غمرة هذا السباق الجنونى لمضاعفة اعمالهم يدوسون العمال التعساء الذين جلبوا بسواعدهم هذا الثراء

اذا فقد قامت الصناعة الحديثة على اساس استغلال القوى للضعيف . وقد رأينا الاقوياء يستغلون الضعفاء فى كثير من مراحل التاريخ . ولكن النظام الصناعى جعل هذا الاستغلال اكثر سهولة . فلم يكن هناك رق من ناحية القانون . اما من ناحية الواقع ، فان عمال المصانع ، عبيد

الاجور ، كانوا فى حالة لا تختلف كثيرا عن حالة الرقيق فى العصر القديم ، كانت القوانين كلها فى مصلحة رب العمل • حتى الدين كان يؤيد رب العمل ويقول للعمال التعساء : انهم سوف يجنون ثمرة شقائهم فى نعيم العالم الاخر ، وابتكرت الطبقات الحاكمة فلسفة تتلخص فى أن وجود الفقراء امر ضرورى فى كل مجتمع وانه من اللازم بناء على ذلك ان يدفع رب العمل اجورا ضئيلة لعماله • لان العامل اذا اخذ اجرا كبيرا فسوف يحاول ان يستمتع بهذا المال وينصرف عن العمل وهى كما ترين فلسفة مريحة ، ملائمة لمصالح اصحاب المصانع وسائر الاغنياء

ان قراءة تاريخ تلك الايام حافلة بالمتعة والفائدة • اننا نتعلم منها ، اشياء كثيرة حتما • ونرى من خلالها الى اى حد اثر التقدم الآلى على المجتمع

لقد انقلب نظام الانتاج كله رأسا على عقب ، وظهرت طبقات جديدة قفزت الى المقدمة وقبضت على ناصية القوة واختفت طبقة الصناع اليدويين وتحولت الى طبقة من الاجراء الذين يعملون فى المصانع بل واثرت الظروف الاقتصادية الجديدة على أفكار الناس ومعتقداتهم فى الدين والاخلاق • فان معتقدات الناس تسير جنبا الى جنب مع مصالحهم الاقتصادية واوضاعهم الطبقية ، وهم يهتمون اذا اصبحت لهم القوة بوضع القوانين التى تحمى مصالحهم وهم يضعون هذا كله بالطبع فى ثوب من الفضيلة ، مؤكدين ان خير الانسانية هو الدافع الوحيد لهم على سن تلك القوانين • ونحن فى الهند نسمع الكثير عن عواطف الانجليز الذين يقولون لنا دائما انهم يعملون من اجل مصلحة الهند فى نفس الوقت الذين يحكموننا فيه بالارهاب كذلك فان الرأسمالية وكبار اصحاب المصانع يؤكدون لنا دائما نواياهم الطيبة نحو عمالهم ، ولكنهم لا يترجمون

هذه النوايا الطيبة ابدا الى اجـــور احسن وكل ارباح المصانع تنفق فى اقامة قصور احدث لا لتحسين اكواخ الطين التى يعيش فيها العمال ..

انه لغريب حقا .. كيف يخدع الناس انفسهم ويخدعون غيرهم عندما تحتاج مصالحهم الى هذا الخداع . لقد كان اصحاب العمل الانجليز فى القرن الثامن عشر وما بعده يقاومون كل محاولة تبذل لتحسين عمالهم

كانوا يقاومون اى تشريع يتصل بمصانعهم او بتحسين المساكن ويرفضون الاعتراف بحق المجتمع فى القضاء على أســباب الشــقاء وكانوا يريحون ضمائرهم بدعوى أن الخاملين وحدهم هم الذين يشقون وقد اخترعوا فلسفة جديدة اطلق عليها اسم « دعهم يعملون » تتلخص فى أنه من حق صاحب العمل ان يتصرف فى أعماله كيفما شاء ، بغير أى تدخل من جانب الحكومة . وكانت هذه الفلسفة ملائمة تماما لمصالحهم فهم وقد سبقوا بمصانعهم بــلاد العالم جميعا ، ليسوا فى حاجة الا لميدان حر يجنون منه الارباح . واصبح مبدأ « دعهم يعملون » او مبدأ الحرية الاقتصادية مبدأ مقدسا لانه يبيح لكل فرد ان يصنع ما يشاء . الا يعطى هذا المبدأ كل رجل او امرأة الحق فى أن يصارع الدنيا كلها اذا شاء ؟ واذا كان هنـــاك كثيرون يذهبون ضحايا هذا الصراع فماذا يهم ؟

لقد حدثتك فى خطابات كثيرة سابقة عن مبدأ التعاون بين البشر الذى كان اساس الحضارة الانسانية ، ولكن الرأسمالية الجديدة والحرية الاقتصادية عــادت بالبشر الى قوانين الغاب . وقد سماها «كارليل» بحق فلســفة الخنازير .. فمن هم الذين وضعوا أساس هذا القانون الجديد للحياة والعمل .. انهم ليسوا العمال . فلم يكن لهؤلاء المساكين الحق فى أن يقولوا شيئا ما . انهم اصحاب

الاعمال الناجحين الذين لا يريدون اى تدخل فى نجاحهم ، باسم الحرية وحق الملكية عارضوا حتى التشريعات التى تضع شروطا صحية للمساكن او تحارب غش البضائع ..
لقد استعملت منذ بضعة سطور كلمة « رأسمالية » وقد عرف كل بلد من البلاد هذه الرأسمالية بصورة أو بأخرى ـ فكل صناعة اقيمت ولا شك بـ « رأس مال » أى بأموال مدخرة من قبل ولكن ظهور الآلة الكبيرة وانتشار الصناعة أدى الى تراكم كميات هائلة من الارباح المدخرة وأصبح اسم الرأسمالية يطلق على النظام الاقتصادي الذى ظهر بعد الثورة الصناعية . وهو النظام الذى بمقتضاه يسيطر الرأسماليون اى اصحاب رأس المال على المصانع ويأخذون الارباح . والرأسمالية منذ ايامها الاولى تحمل معنى التفرقة بين الغنى والفقير ، فالآلات الحديثة تنتج كميات أوفر فتأتى بأرباح أكثر . ولكن هذه الارباح الكثيرة تذهب الى عدد قليل من الافراد اولئك هم اصحاب هذه المصانع . اما العمال فقد ظلوا فقراء . وبشيء من التدرج البطيء تحسنت احوال العمال فى انجلترا بالذات تحسنا طفيفا ، نتيجة استغلال انجلترا للهند وغيرها من البلاد . ولكن نصيب العمال من هذه الارباح ظل تافها بوجه عام . فالثورة الصناعية والرأسمالية قد حلت اذا مشكلة الانتاج ، ولكنها لم تحل مشكلة توزيع الثـــروة الجديدة توزيعا عادلا . وهكذا ظلت الفجوة القديمة بين الذين يملكون والذين لا يملكون موجودة بل زادت اتساعا
وقعت هذه الثورة الصناعية فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، وهو نفس العصر الذى كانت انجلترا فيه تحارب فى الهند وكندا
وقد تأثرت هذه الاحداث ببعضها البعض الى حد كبير فالاموال الطائلة التى انتزعتها شركة الهند الشرقية وغيرها

من الهند ساعدت على اقامة صناعات جديدة فى انجلترا

وقد ذكرت لك منذ قليل ان التصنيع يحتاج الى نفقات طائلة وانه يلتهم النقود ولا يعيدها الا بعد وقت • وقد كان حظ انجلترا رائعا اذ وجدت هذه الكميات الطائلة من النقود فى الهند لتقيم بها الصناعات الضخمة

وقد أدى بناء هذه المصانع الكبيرة الى ظهور حاجات جديدة • فهذه المصانع فى حاجة الى الخامات التى تحولها الى سلع فمصانع الغزل والنسيج فى حاجة الى القطن لتحوله الى قماش • كذلك فان هذه المصانع فى حاجة الى اسواق لتصرف فيها السلع التى تنتجها • ومرة اخرى جاءت الهند لانقاذ الصناعة الانجليزية

لجأ الانجليز فى الهند الى كل وسيلة وكل اسلوب لتدمير الصناعات الهندية ولفرض الاقمشة الانجليزية على السوق • وسوف احدثك عنها بالتفصيل فى مكان اخر

انتشرت الصناعة فى جميع انحاء العالم خلال القرن التاسع عشر وقامت الصناعات الرأسمالية فى كل مكان على نفس الخطوط الاولى التى وضعتها انجلترا وادت هذه الرأسمالية الى ازدياد موجة الاستعمار مرة اخرى فكل مصنع فى حاجة الى مواد خام ليصنعها والى الاسواق الواسعة ليبيع فيها منتجاته ، وأسهل طريقة للحصول على الخامات والاسواق فى وقت واحد هى احتلال البلاد التى تتوفر فيها الخامات

وهكذا دخلت الدول الكبرى فى صراع جديد للاستيلاء على أراض جديدة • وكانت انجلترا بفضل سيطرتها على الهند وامتلاكها لاكبر قوة بحرية متفوقة على غيرها من الدول

أما انجلترا نفسها فقد اصبحت بعد الثورة الصناعية، يحكمها اصحاب مصانع النسيج فى لانكشير وأصحاب مناجم الفحم ومصانع الحديد

حرب الاستقلال فى أمريكا

٢ اكتوبر ١٩٣٢

نتتقل الان الى ثورة ثانية عظيمة وقعت فى القرن الثامن عشر الا وهى ثورة المستعمرات الامريكية على انجلترا .. وهى ثورة سياسية فقط ، ليس لها الاثر البعيد الذى للثورة الصناعية التى حدثتك عنها فى الخطابين السابقين، أو للثورة الفرنسية التى سوف أحدثك عنها بعد قليل ، والتى هزت القوائم الاجتماعية لاوروبا كلها .. ومع ذلك فقد كان مقدرا لهذه الثورة السياسية التى وقعت فى أمريكا أن تؤدى الى نتائج هائلة .. فهذه المستعمرات التى ثارت لم تكد تصبح حرة حتى اصبحت مع الايام أقوى والغنى صناعيا من جميع البلاد الاخرى ..

هل تذكرين « ماى فلاور » ؟ .. السفينة التى حملت عددا من البروتستنت الانجليز الى امريكا سنة ١٦٢٠ .. لقد ضاق هؤلاء البروتستنت ذرعا بأوتوقراطية الملك جميس الاول وبآرائه الدينية ، فنفضوا عن أقدامهم تراب انجلترا وذهبوا الى الارض الجديدة الغريبة عبر المحيط الاطلنطى ، حيث يجدون حرية أرحب ! .. وقد رست

بهم السفينة فى الشمال ، فى مكان اطلقوا عليه اسم « نيو بلايموث » أى بلايموث الجديدة ، وكان المستعمرون قد سبقوهم الى أماكن اخرى من الشاطىء الشمالى لامريكا، وفى أعقابهم جاءت أفواج جديدة من المهاجرين حتى امتلأ الشاطىء الشرقى كله بالمستعمرات المتراصة من الشمال الى الجنوب .. كانت هناك مستعمرات كاثوليكيــــة ، وأخرى اقامها الفرسان النبلاء الانجليز ، وغيرها أقامهـــا الكويكرز ، وكان هناك ايضا هولنديون وألمان وفرنسيون، وان ظل اغلبهم من المستعمرين الانجليز .. وقد اختـــار الهولنديون بقعة أقاموا عليها مدينة سموها « نيو امستر دام » فلما استولى عليها الانجليز أطلقـــوا عليهـــا اســـم « نيويورك » ..

وقد ظل المستعمرون الانجليز على ولائهم لملك انجلترا والبرلمان الانجليزى .. حقا لقد هاجروا لانهم غير راضين عن كثير مما يفعله الملك والبرلمان ، ولكنهم كانوا لا يريدون قطع صلتهم نهائيا بالوطن ، خصوصا من كان منهم من النبلاء أى من فرسان الملك .. وكانت كل مستعمرة من هذه المستعمرات تعيش حياتها المستقلة لا يربطها بغيرها الا قليل من الروابط فلما جاء القرن الثامن عشر كانت قد تكونت على الساحل ثلاث عشرة مستعمرة كلها تحت سيطرة انجلترا .. والى الشمال منها كانت توجد كندا ، والى الغرب توجد اراض تابعة لاسبانيا

وتذكرت مرة اخرى أن هذه المستعمرات كانت كلها على الشاطىء ، اما الاراضى الشاسعة الى الغرب فقد كانت مسكونة وواقعة تحت ســـيطرة الهنود الحمر ، بزعامة قبيلة « ايروكيوسي » .

وفى منتصف القرن الثامن عشر ، نشب صراع عالمى بين انجلترا وفرنسا تبلور فى الحرب التى عرفت باســـم

حرب السنين السبع « ١٧٥٦ ـ ١٧٦٣ » استمر أوارها في أوربا وأمريكا في وقت واحد ، وقد انتصرت انجلترا في هذه الحرب وانسحبت فرنسا من كندا ..

وقد حدثتك من قبل عن تجارة الرقيق التي كانت تقوم بها بعض الدول الاوروبية عن طريق نقل العمال الزنوج من أفريقيا الى أمريكا .. وقد كانت هذه التجارة الرهيبة الشائنة في أيدي الاسبان والبرتغال والانجليز ، وكانت أمريكا في حاجة الى الايدي العاملة ، خصوصا في الولايات الجنوبية ، حيث نشأت مزارع التبغ الشاسعة .. والسكان الاصليون لهذه البلاد هم الهنود الحمر ، وهم بدو رحل ، رفضوا الاستقرار والزراعة ، كما انهم رفضوا العمل في ظروف الرق ، وفضلوا المقاومة والفناء ، وقد تمت عملية اقناعهم بالفعل مع مرور الايام .. ولا نجد احدا يذكر ، ممن يرجعون الى سلالة ذلك الشعب الذي سكن تلك القارة زمنا طويلا ..

ولما كان الهنود الحمر يرفضون العمل في الزراعة ، والحاجة الى الايدي العاملة شديدة ، أخذ تجار الرقيق يأسرون أبناء أفريقيا التعساء ويضعونهم في أقفاص كما يصنعون بالحيوانات المتوحشة ، ثم يرسلونهم عبر البحار في قسوة ووحشية لا يمكن تصديقهما .. وهناك يرسل هؤلاء الزنوج الى ولايات الجنوب ـ فرجينيا وكارولينا وجيورجيا ـ حيث يعملون جماعات جماعات ، في حقول التبغ الشاسعة ..

أما في ولايات الشمال فالامر مختلف .. فهناك كان المتدينون الذين حملتهم « ماي فلاور » يحافظون على تقاليدهم النبيلة ، لا يزرعون الاقطاعات الهائلة بل يزرع كل واحد المساحة التي يحتاجها والتي يستطيع ان يباشرها بنفسه فلم تكن هناك حاجة الى العبيد ولا الى

الايدى العاملة الكثيرة ونشأ جو من المساواة بين أصحاب هذه الاقطاعات الصغيرة ..

هكذا نشأ فى تلك المستعمرات نظامان اقتصاديان مختلفان ، نظام يقوم على المساواة والمزارع الصغيرة فى الشمال .. ونظام يقوم على الرق والاقطاعات الكبيرة فى الجنوب .. ولم يشارك الهنود الحمر فى هذا النظام او ذاك بل اضطروا الى الانسحاب نحو الغرب شيئا فشيئا امام ضغط الوافدين الجدد ، وسهل انقراضهم لما كان بين قبائلهم وزعمائهم من خلافات ..

وكان لملك انجلترا نفسه وكثير من الملاك الانجليز مصالح كبيرة فى هذه المستعمرات ، فحرصوا على استغلالها الى أقصى الحدود .. ولما انتهت حرب السنوات السبع زاد ضغط الانجليز لاستخراج اكبر قدر من النقود من المستعمرات الامريكية .. ولما كان البرلمان الانجليزى مكونا من كبار الملاك ، فقد تحالف مع الملك فى فرض الضرائب الباهظة والقيود الثقيلة .. تماما كما كانوا يصنعون فى الهند .. واعترض المستعمرون فى أمريكا على هذه القيود وعلى الضرائب الجديدة ، ولكن الحكومة الانجليزية كانت تشعر بالزهو والقوة عقب انتصارها فى حرب السنين السبع بحيث لم تبال بهذه الاعتراضات .. ولكن حرب السنين السبع كانت قد علمت ابناء المستعمرات شيئا جديدا ! ..

لقد التقى أبناء الولايات المختلفة وتعارفوا .. وقد حاربوا فى جيوش نظامية تحت الراية الانجليزية فاعتادوا على الحرب وعرفوا فنونها فهم أيضا قد خرجوا من الحرب فى حالة تسمح لهم برفض مالا يرونه عادلا ! ..

ووصلت الامور الى ذروتها فى سنة ١٧٧٣ ٠ عندما أرادت انجلترا أن تفرض عليهم شراء الشاى الذى تبيعه

شركة الهند الشرقية ، وكان كثيرون من اصحاب النفوذ في انجلترا يحملون اسهم شركة الهند الشرقية ، فهم مهتمون بمصالحها ـ ولكن بيع الشاى الذى تنتجه شركة الهند الشرقية فى أمريكا يسيء الى الانتاج المحلى من الشاى فقرر ابناء المستعمرات مقاطعة هذا الشاى الاجنبى ..

وفى ديسمبر ١٧٧٣ ، عندما حاولت انجلترا تفريغ الشاى بالقوة فى ميناء بوسطن .. قاومها الاهالى ، وتنكر عدد من ابناء الولايات فى ثياب الهنود الحمر ، وصعدوا الى السفن المحملة بالشاى الاجنبى ، والقوا به الى البحر ، وتم هذا العمل علنا امام الجموع المحتشدة الهاتفة فكان تحديا صريحا ادى الى نشوب الحرب بين ـ المستعمرات الثائرة وبين انجلترا ..

ان التاريخ لا يكرر نفسه بدقة ، ولكنه يلتزم هذه الدقة فى بعض الاحيان بشكل غريب .. ان حادث القاء الشاى فى ميناء بوسطن سنة ١٧٧٣ اصبح حادثا شهيرا يطلق عليهم اسم «حفلة شاى بوسطن» ، وفى الهند ، منذ سنتين ونصف قاد غاندى حملة الملح الشهيرة ، وسار على رأس الزحف العظيم الى داندى .. وفى أمريكا يقارن الكثيرون بين حفلة شاى بوسطن وحملة الملح فى الهند ، وان كان هناك بالطبع فرق كبير بين الاثنين ..

وبعد عام ونصف من حفلة شاى بوسطن ، فى سنة ١٧٧٥ نشبت الحرب بين انجلترا ومستعمراتهاالامريكية .. ومن اجل اى شيء كانت المستعمرات تحارب ؟ .. ليس من اجل الاستقلال ، وليس بقصد الانفصال عن انجلترا ، فحتى بعد ان نشبت الحرب واريق الدم بين الجانبين ، ظل زعماء المستعمرات يقولون عن جورج الثالث ملك انجلترا « ملكنا المعظم » ويعتبرون أنفسهم رعاياه المخلصين .. وقد تكرر هذا الوضع فى حالات كثيرة ، فى

هولندا ظلوا يعتبرون فيلب الثانى ملك اسبانيا ملكا عليهم بالرغم من اشتباكهم فى حرب عنيفة ضد جيوشه وقد مضت سنوات كثيرة قبل ان تضطره هولندا الى اعلان استقلالها •• وفى الهند ما زال البعض يتشككون فى امكان تحقق الاستقلال ، ويطالبون بالبقاء ضمن نطاق الدومنيون، ولكن التاريخ يعلمنا أن مثل هذا الموج لا يمكن أن ينحسر الا عن الاستقلال التام ••

ففى سنة ١٧٧٤ ، قبل أن تنشب حرب الاستقلال فى أمريكا بقليل ، ألقى جورج واشنجطن خطبة قال فيها انه لايوجد عاقل واحد فى أمريكا يريد الاستقلال•• ولكن واشنجطن نفسه أصبح بعد ذلك أول رئيس للجمهورية الامريكية المستقلة ••

وفى سنة ١٧٧٤ ، وبعد ان نشبت الحرب فعلا ،توجه ٤٦ عضوا بارزا فى الكونجرس بالخطاب الى ملك انجلترا بوصفهم رعايا مخلصين ، طالبين منه حقن الدماء ••كانوا يريدون باخلاص اعادة الصفاء بين انجلترا الام وابنائها الامريكان •• كان كل ما يريدونه نوعا من الاستقلال الذاتى ، وقد اطلق على هذا النداء اسم « عريضة غصن الزيتون » ••

ولكن ، بعد أقل من سنتين ، وقع اكثر من ٢٥ عضوا من الذين وقعوا عريضة غصن الزيتون وثيقة اخرى هى اعلان الاستقلال !

فالمستعمرات لم تبدأ القتال من أجل الاستقلال •• كانت كل شكوى المواطنين فيها من الضرائب وقيود التجارة كانوا ينكرون فقط حق البرلمان البريطانى فى فرض الضرائب عليهم ما داموا غير ممثلين فيه ، فأرسلوا صيحتهم المشهورة « لا ضريبة بغير تمثيل » •• ولم يكن لابناء المستعمرات جيش ، ولكن كان لديهم وطن غنى يستطيع

أن يسعفهم عندما يريدون ، فأنشأوا جيشهم على عجل ، وغدا واشنجطن القائد العام لهذا الجيش ، وانتهـــزت فرنسا الفرصة لتكيد لانجلترا فأعلنت عليها الحرب وكذلك صنعت اسبانيا

لقد تحول التيار اذا ضد انجلترا ، ولكن الحرب ظلت مستمرة بضع سنوات ، وفي سنة ١٧٧٦ اذيع اعـلان الاستقلال المشهور ، وفي سنة ١٧٨٢ انتهت الحـــرب ووقعت معاهدة الصلح بين المتحاربين ســـنة ١٧٨٣ في باريس ..

هكذا تحولت المستعمرات الثلاث عشرة الى جمهورية مستقلة اسمها الولايات المتحدة الامريكية ، ولكن التنافس والغيرة بين هذه الولايات ظل يحتدم وقتا طويلا قبل أن يولد الشعور العام بالوطن الواحد ..

كانت الولايات المتحدة اول جمهورية عظيمة يعرفهـا العالم فلم يكن توجد فى ذلك الوقت جمهورية اخرى فى العالم كله غير سويسرا الصغيرة .. فهولندا وان كانت جمهورية الا انها كانت فى قبضة الارستقراطيين القليلين، وانجلترا لم تكن ملكية فحسب بل كان برلمانها في يـد طبقةالملاك الاغنياء ، فجاءت جمهوريةالولايات المتحدةطرازا من الدول ليس لها ماض مثلدول آسيا وأوروبا ، وليس فيها اقطاع عريق ، فيما عدا نظام الرق فى الجنوبوليس فيها طبقة النبالة الموروثة .. فالبورجوازية او الطبقـة المتوسطة حرة ليس امامها عقبات تذكر تحول دون نموها .. وبالفعل كان نموها سريعا .. وكان تعداد الجمهورية عند استقلالها ٤ ملايين ، وصل ســنة ١٩٣٠ الى ١٢٣ مليونا ..

واصبح جـــورج واشنجطن أول رئيس جمهـــورية للولايات المتحدة .. وكان من كبار ملاك الأراضى فى ولاية

فرجينيا .. ومن بين عظماء ذلك العصر الذين يعتبرون بحق خالقى هذه الجمهورية .. توماس بين وبنيامين فرانكلين ، وباتريك هنرى وتوماس جيفرسون ، وآدمز وجيمس ماديسون ، وكان بنيامين فرانكلين عالما عظيما اثبت بواسطة استخدام ـ طائرات الورق التى يلعب بها الاطفال ـ أن البرق الناشىء عن اصطدام السحب هو نوع من الكهرباء ..

أما اعلان الاستقلال ، فقد سجل أن كل الرجال يولدون متساوين .. وكانت الفكرة من وراء هذا النص هى القضاء على الفوارق الاقطاعية التى كانت تعرفها أوروبا ، وهذا فى حد ذاته تقدم عظيم .. ولا شك ان كثيرين من الذين صاغوا هذا الاعلان كانوا متاثرين بالفلاسفة والمفكرين الفرنسيين مثل فولتير وروسو ..

كل الرجال يولدون متساوين ! .. ومع ذلك فمازال هناك الزنوج التعساء .. ارقاء بغير حقوق ، فماذا عنهم ؟ .. كيف يتلائمون مع الدستور الجديد ؟ ..

بعد سنوات كثيرة نشبت حرب أهلية عنيفة بين ولايات الشمال وولايات الجنوب انتهت بالغاء الرق ، ولكن مشكلة الزنوج ما زالت موجودة فى أمريكا الى اليوم ! ..



١٠ أكتوبر ١٩٣٢

ما أصعب الكتابة عن الثورة الفرنسية ! انها صعوبة لا ترجع الى قلة المعلومات عنها ، بل الى كثرتها ..

لقدكانت هذه الثورة دراما رائعة منوعة مليئة بالاحداث الخارقة التى ما تزال تبهرنا وترعبنا وتهزنا ..

ان سياسات الامراء ورجال الدولة تدور فى المخادع والحجرات الخاصة ، يحيط بها جو من الغموض ، وعليها نقاب كثيف يغطى كثيرا من الخطايا ، ولغة مزخرفة زائفة ، تحجب صراع المطامع المتنافسة .. وحتى حين كان هذا الصراع يؤدى الى الحرب والى ارسال جيوش جرارة من الشباب الى حتفهم من اجل هذه المطامع والشهوات لا تسمع اذاننا اى اشارة الى هذه الدوافع الحقيرة .. بل تسمع كلاما عن الدوافع النبيلة والاغراض السامية التى تتطلب التضحية ! ..

ولكن الثورة شيء اخر تماما .. ميدانها ليس فى الحجرات المغلقة ولكنها فى الحقل والشارع والسوق ، ووسائلها غليظة خشنة ، فالناس الذين يصنعونهاليست

لهم ثقافة الامراء ورجال الدولة ، لغتهم ليست موشاه أو مهذبة ولا هى تخفى شـــبكة من المؤامرات والخطط الشريرة لا غموض هناك ولا نقاب يغطى ما تتجه اليـــه أفكارهم ، حتى أجسادهم ليس عليها الا القليل تتغطى به!

السياسة فى لحظات الثورة ليست مجرد رياضـــة للملوك والساسة المحترفين .. ولكنها تصبح تعاملا مع الحقائق ، صادرا عن الطبيعة الانسانية الخام ، والبطون الخاوية ..

وهكذا رأت فرنسا ، فى تلك السنوات الخمس الحاسمة من ١٧٨٩ الى ١٧٩٤ ، الجماهير الجائعة تعمل ، انهـــم الجائعون الذين أرغموا ايدى الساسة المرتعدة على الغاء الملكية والاقطاع وامتيازات الكنيسة ! .. انهم هم الذين قدموا القرابين الى المقصلة الرهيبـــة وانتقموا انتقاما قاسيا من أولئك الذين اضطهدوهم فى الماضى ، والذين اعتقدوا انهم يتآمرون على حريتهم الجديدة !.. ان هؤلاء الحفـــاة العراة هم الذين خفوا ليدافعوا عن ثورتهم فى أرض المعركة ، بأسلحة عتيقة ، قهروا بها الجيوش المدربة التى أرسلتها اوروبا المتحدة ضدهم ..

لقد صنع المعجزات هؤلاء الفرنسيون .. ولكنهم بعد سنوات رهيبة من التوتر والصراع ، كانت قوى الثورة قد انهكت فانقلبت على نفسها ، وأخذت تأكل بنيها ، ثم جاءت الثورة المضـــادة .. فابتلعت الثورة الاولى ، وأعادت الطبقات الممتازة لتتحكم فى أبناء الشعب الذين خاطروا وتحملوا كل هذا العناء ومن « الثورة المضادة » .. خرج نابليون وأصبح دكتاتورا وامبراطورا .. ولكن لا الثورة المضادة ولا نابليون استطاع ان يعيد الناس الى اماكنهم القديمة .. لا أحد استطاع أن يمحو الانتصارات

الرئيسية للثورة ، ولا أحد استطاع ان ينتزع من الشعب الفرنسي ، بل ومن سائر الشعوب الاوربية ، ذكرى تلك الايام التى حكم فيها رجل الشارع حقا ، ولو لفترة قصيرة جدا !!

وفى أيام الثورة الاولى ، كانت هناك أحزاب وهيئات كثيرة تحارب من اجل السلطة .. كان هنـــاك الملكيون يحاولون عبثا ابقاء الملك لويس السادس عشر بسلطاته الاستبدادية القديمة وكان هناك الاحرار المعتدلون يريدون دســــتورا يبقى الملك بسلطات مقيدة ، ثم الجمهوريون المعتــدلون ، وكان اســمهم « الجيروند » والجمهوريون المتطرفون ، وكان اسمهم « اليعاقبة » لانهم اعتادوا ان يجتمعوا فى قاعة دير يعقوب ..

تلك كانت المجموعات الرئيسية ، غير كثير من المغامرين وخلف كل هذه المجموعات الافراد ، كانت جماهير الشعب الفرنسي وجماهير باريس بصفة خاصة ، تعمـــل تحت زعامة قادة مجهولين خرجوا من غمارها .. وفى البـــلاد المجاورة ، خصوصا انجلترا ، كان يوجـد المهاجرون ، وهم النبلاء الفرنسـيون الذين فروا من الثورة وأخذوا يتآمرون ضدها .. ووقفت كل القوى فى أوروبا متحدة ضد فرنسا الثائرة .. انجلترا البرلمانية الارستقراطية ، مثلها مثل ملوك القارة وأباطرتها ، كانوا كلهم خائفين من غضبة الرجل البسيط فى فرنسا ، ويحاولون كبتها ..

لقد تآمر الملك والملكيون ولـــكنهم لم ينجحوا الا فى التعجيل بآجالهم ..

وكان أقوى حزب فى الجمعية الوطنية فى أول الامر هو حزب الاحرار المعتدلين الذين كانوا يريدون دستورا على الطراز الانجليزى أو الامريكى ، وعلى رأسه ميرابو .. وقد ظل هذا الحزب مسيطرا على الجمعية الوطنية ما يقرب من السنتين ، فاستطاع مدفوعا بانتصـــارات

الايام الاولى من الثورة ـ ان يسجل وثائق رائعة ويحقق تغييرات هامة .. وبعد عشرين يوما من سقوط الباستيل فى ٤ أغسطس ١٧٨٩ ، شهدت الجمعية الوطنية دراما عنيفة .. كان الموضـــوع المطروح للبحث هو : الغاء الحقوق والامتيازات الاقطاعية .. وكان جو فرنسا فى تلك الايام مشحونا بعقلية جديدة تماما، حتى امراء الاقطاع كانوا يبدون وكأنهم قد ثملوا أيضا بخمر الحرية الجديدة ! .. فوقف كبار رجال الاقطاع ورجال الكنيسة يتنافسون فى التنازل عن حقوقهم الاقطاعية وامتيازاتهم الخاصة !.. كانت بادرة شريفة كريمة منهم ، وبالرغم من أنها لم تنتج أثرها لبضعة سنين . فانه ليحدث فى أحيـــان نادرة أن تبدى الطبقات الممتازة مثل هذه الدوافع النبيلة ! .. أو لعلهم أدركوا أن وقت زوال امتيازاتهم قد حان فوجدوا أن سلوك هذا الطريق المتسم بالسخاء خير لهم وأبقى ..

وقد رأينا فى الهند منذ أيام قليلة بادرة رائعة من هذا النوع ، حين أعلن كهنة الهندوس الغاء التحريم الذى كان موضوعا على طائفة المنبوذين .. فكأن عصا سحرية مست تلك القيـــود التى وضـــعها الهندوس على أخوتهم فأسقطتها ، وانفتحت آلاف الابواب التى ظلت موصـــدة فى وجوه هؤلاء المنبوذين دهرا طويلا ..

وهكذا فى جو من الحماسة ألغى برلمان فرنسا الثائرة حقوق الاقطاع ، ومحاكم الاقطاع والغى اعفاء النبلاء من الضرائب بل وألغى حتى الالقاب .. وانصرفت الجمعية الوطنية الى وضع اعلان حقوق الانسان .. وربما كانت فكرة هذا الاعلان الشهير مأخوذة من اعلان الاســـتقلال الامريكى .. ولكن الاعلان الامريكى كان مختصرا بسيطا على عكس الاعلان الفرنسى الذى جاء طويلا .. وحقوق الانسان هذه هى الحقوق التى تكفل له الحرية والمساواة والسعادة

وقد كان هذا الاعلان بالنسبة لعصره عملا باسلا جريئا ، وقد ظل ما يقرب من مائة عام بعد ذلك هدفا للاحرار والديمقراطيين في أوروبا كلها .. ولكنه الان يبدو عتيقا ، وعاجزا عن حل أى مشكلة من مشاكل عصرنا الراهن .. فقد احتاج الناس الى بعض الوقت كي يكتشفوا ان المساواة امام القانون واباحة حق التصويت للجميع لا يكفيان لتحقيق المساواة الحقيقية أو الحرية أو السعادة .. ذلك ان أولئك الذين يملكون القوة لديهم وسائل كثيرة لاستغلال الناس .. وقد تغير الفكر السياسي وتقدم منذ الثورة الفرنسية ، حتى أصبح أشد المحافظين مغالاة يتمسكون اليوم بالمبادىء الرنانة التى انطوى عليها اعلان حقوق الانسان .. ولكن ليس معنى ذلك كما يظن البعض أن هؤلاء المحافظين يقبلون حقا المساواة والحرية الحقيقيتين .. فهذا الاعلان فى واقع الامر يحمى الملكية الخاصة فالمقاطعات المملوكة للنبلاء الكبار والكنيسة التي صودرت كانت مصادرتها لاسباب أخرى تتصل بالحقوق والامتيازات الاقطاعية أما حق الامتلاك فى ذاته فقد ظل حقا مقدسا لا يمس ..

وانت تعلمين أن المفكرين التقدميين الآن يعتقدون أن حق الملكية الخاصة شر يجب الحد منه ، بقدر الامكان !

قد يبدو اعلان حقوق الانسان لنا الان وثيقة عادية، ولكن كل الافكار الجريئة تصبح عادية بعد زمن . فحين أعلنت هذه الوثيقة اهتزت أوروبا كلها ، وبدت كأنها تحمل لكل المعذبين أملا فى حياة أسعد . ولكن الملك لم يقبلها . كان يراها كفرا والحادا فرفض ان يصدق عليها . وكان مايزال يسكن فرساى . وهنا هب غوغاء باريس ، تقودهم النساء وزحفوا على فرساى حيث لم يكتفوا بارغام الملك على توقيع الميثاق فقط ، بل وعلى العودة

الى قلب باريس ايضا ..

ثم أقدمت الجمعية الوطنية على تغييرات أخرى نافعة . صادرت املاك الكنيسة الواسعة ، وأعادت تقسيم فرنسا الى ٨٠ وحدة اقليمية ، وهو التقسيم الذى مايزال ساريا الى الان فيما أظن ، ووضعت قوانين جديدة للمحاكم لتحل محل محاكم الاقطاع القديمة . ولكنها لم تذهب فى ذلك كله الى الحد الكافى . فلم تصنع شيئا يذكر للفلاحين المتعطشين الى الارض ولا لسكان المدن الباحثين عن الخير ، وبدت الثورة كأنها قد ألقى القبض عليها أو أن قوة ما قد اعتقلتها !

ولم تكن الجماهير من الفلاحين ، أو سكان المدن ممثلة فى الجمعية الوطنية قط . كانت الجمعية تحكمها الطبقة المتوسطة تحت زعامة ميرابو ، فلما شعرت هذه الطبقة بأنها حققت أهدافها ، بدأت تبذل كل جهدها لايقاف الثورة عند هذا الحد . وبدأ هؤلاء الزعماء يتحالفون مع الملك بل ويعدمون الفلاحين فى الاقاليم . وأصبح زعيمهم ميرابو المستشار السرى الخاص للملك ..

وبدأ العامة الذين اقتحموا الباستيل وظنوا انهم حطموا أغلالهم ، يتساءلون ماذا يحدث هناك ؟ ان حرياتهم ماتزال بعيدة عنهم ، والجمعية الوطنية تحكمهم بنفس الطريقة التى كان يحكمهم بها الاقطاعيون القدماء ! ..

واذ خاب أمل أهل باريس ، قلب الثورة النابض فى الجمعية الوطنية ، وجدوا لانفسهم متنفسا فى بلدية باريس ، فكل قسم من أقسام المدينة التى تنتخب مندوبا عنها فى المجلس البلدى ، كان فيه تنظيم نشيط وثيق الاتصال بالجماهير . وأصبح المجلس البلدى منبرا للثائرين ، يضم خصوم الطبقة المتوسطة والمعتدلين

وجاء يوم الذكرى الاولى لسقوط الباستيل ، واحتفل

أهل باريس احتفالا هائلا فى ١٤ يوليو . وانطلق اهـل باريس يقيمون الزينات فى المدينة على حسابهم لان العيد عيدهم ..

هكذا وقفت الثورة فى سنتي ١٧٩٠ و ١٧٩١ : الجمعية الوطنية فقدت ثورتها تماما واكتفت بما صنعت من تغيرات وشعب باريس مازال معبأ بالطاقة الثورية ، والفلاحـون ينظرون نظرة جائعة الى الارض . ولم يكن ممكنـا ان يستمر الموقف على هذا النحو . فالثورة اما أن تمضى الى الامام او تموت

ومات ميرابو الزعيم المعتدل فى أوائل سـنة ١٧٩١ . وكان بالرغم من عمله مستشارا للملك محبوبا من الناس وعلى صلة وثيقة بهم . وفى ٢١ يونيو سنة ١٧٩١ وقع حادث حدد مصير الثورة وحظها . ذلك هو فرار الملك لويس السادس عشر وزوجته مارى انطوانيت متخفيين

وقد كاد الملكان الهاربان يصلان الى الحدود فعـلا ، لولا ان بعض الفلاحين عرفوهما فى « فارنجان » بالقرب من فردان ، فأوقفوهما وأعادوهما الى باريس

لقد خط الملك والملكة حظهما بهذا العمل . فقـد انتشرت الدعوة الى الجمهورية بسرعة هائلة ، وان ظلت الجمعية الوطنية بمنأى عن هذا الاتجاه ، بل انها أطلقت النار على الجماهير التى طالبت بخلع لويس . وانطلقت السلطات فى طلب « مارا » ، أحد أبطال الثورة الكبـار ، لانه هاجم الملك بعد فراره واتهمه بالخيانة ، فاضـطر « مارا » الى الاختفاء من مطارديه فى بعض مجارى باريس ، حيث أصيب بمرض جلدى بشع

ومع ذلك فقد ظل لويس ملكا ، ولو بالاسم ، سنة أخرى .. وفى سبتمبر سنة ١٧٩١ انتهت مدة الجمعية الوطنية وأخلت مكانها للجمعية التشريعية . وكانت معتدلة كسابقتها ولاتضم

الامميثلين للطبقات العليا . فلم تمثل قط الحمى المتزايدة فى فرنسا

وانتشرت حمى الثورة بين الناس على نطاق واسع ، وبدأ الجمهوريون المتطرفون اليعاقبة الذين خرجوا من غمار الناس يزدادون قوة ..

وفى نفس الوقت كانت القوى الاوربية تراقب هذه الاحداث لبعض الوقت ، مثل انهاء مملكة بولندا القديمة واقتسامها ، ولكن احداث فرنسا كانت تسير الى غايتها وتجتذب كل يوم المزيد من الانتباه ، وكانت النمسا تحتل بلجيكا ، وكانت لها تبعا لذلك حدود ملاصقة لفرنسا . وزحفت الجيوش الاوروبية الى ارض فرنسا وهزمت الجيش الفرنسى . وكان المفهوم ان الملك متحالف مع الاعداء الزاحفين ، وان الملكيين كلهم خونة . وكان الفرنسيون كلما تزايدت الاخطار أصبحوا أكثر حساسية وذعرا حتى أخذوا يرون الخونة والخيانة فى كل شيء . وتصدى مجلس بلدى باريس الثائر فى هذه الازمة ، ورفع الراية الحمراء ايذانا بأن الشعب قد أعلن الاحكام العرفية ضد خيانة القصر

وفى ١٠ أغسطس سنة ١٧٩٢ اصدر امر الهجوم على قصر الملك . وأمر الملك حرسه السويسرى باطلاق النار على المهاجمين ولكن الشعب انتصر وأرغم المجلس البلدى الجمعية التشريعية على اعتقال الملك ووضعه فى السجن

والراية الحمراء كما يعرف الجميع هى الان راية الشيوعية . ولكنها فى ذلك الوقت كانت تستعمل فى اذاعة نبأ اعلان الاحكام العرفية

على أن وضع الملك فى السجن لم يكن كافيا . فانطلق شعب باريس فى سورة غضبه من اطلاق نار الحرس السويسرى عليه وقتل الكثيرين منه ، كما انطلق مدفوعا بخوفه من الخونة والجواسيس ، يعتقل كل من يشتبه فيه حتى امتلأت السجون ولا شك أن الكثيرين جدا من

هؤلاء المعتقلين كانوا مذنبين ، ولكن المؤكد أن كثيرين أيضا من الابرياء قد دخلوا السجون ، وبعد بضعة أيام هبت عاصفة أخرى من السخط ، فأخذت الجماهير تخرج المسجونين من سجونهم ، وبعد محاكمات صورية ، تحكم عليهم بالاعدام . وقد قتل أكثر من الف شخص فى « مذابح سبتمبر » كما سميت

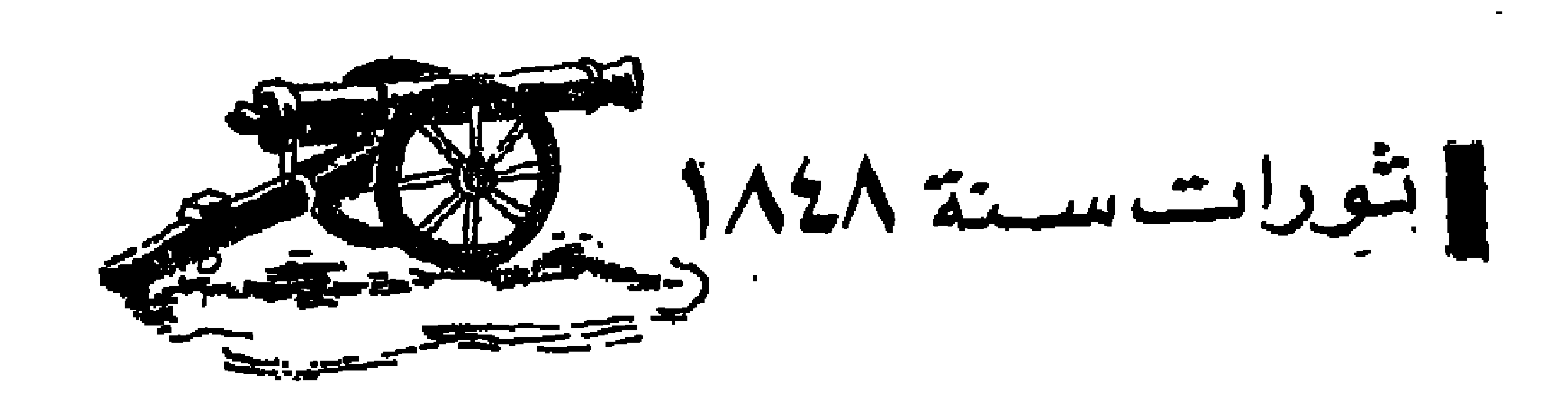
كانت هذه اول مرة يذوق فيها غوغاء باريس طعم الدم على نطاق واسع . وقد سال بعد ذلك دم كثير ، قبل أن يهدأ الظلم !

وفى سبتمبر هذا أيضا احرز الفرنسيون أول نصر لهم على النمسويين والبروسيين الغزاة . وكان ذلك فى معركة صغيرة فى « فالما » .. صغيرة فى نطاقها ، ولكنها كانت كبيرة جدا فى نتائجها .. فقد انقذت الثورة ..

وفى ٢١ سبتمبر سنة ١٧٩٢ اجتمع «المجلس الوطنى» وهو جهاز جديد حل محل الجمعية التشريعية . كان أكثر تقدما من الجمعيتين ، ولكنه ظل سائرا خلف المجلس البلدى . وكان أول عمل للمجلس الجديد هو اعلان الجمهورية . وبعد ذلك مباشرة تمت محاكمة لويس السادس عشر ، وحكم عليه بالاعدام ، وفى ٢١ يناير سنة ١٧٩٣ دفع رأسه ثمنا لاخطاء الملكية كلها !

وبذلك احرق الفرنسيون كل المراكب خلفهم ! لقد أقدموا على هذه الخطوة الاخيرة ، معادين بذلك ملوك أوروبا وأباطرتها الى الابد . لا رجعة الان الى الوراء .. وعلى سلم المقصلة ، وقبل أن يغسل من دم لويس ، وقف دانتون ، قائد الثورة العظيم ، يخطب فى الجماهير المحتشدة موجها تحديه الى كل الملوك

ـ لقد تحدانا ملوك أوروبا . فألقينا اليهم برأس واحد منهم !!



ثورات سنة ١٨٤٨

٢٨ يناير سنة ١٩٣٣

أريد أن نلقى نظرة اخرى على الصورة التى لا تكف عن التغير لاوروبا خلال القرن التاسع عشر . واظن انى حدثتك منذ شهرين فى بعض هذه الخطابات عن الملامح البارزة لهذا القرن . ولعلك مازلت تذكرين بعض تلك الاسماء التى ذكرتها مثل: الراسمالية الامبريالية والوطنية والاشتراكية والدولية .. الى آخره . واظن انى حدثتك أيضا عن الديمقراطية وعن العلم وعن التطور الخطير فى وسائل النقل وعن انتشار التعليم العام ، وعن الصحافة الحديثة . ان هذه الاشياء — وغيرها — هى التى صنعت حضارة أوروبا فى ذلك القرن .. الحضارة البورجوازية التى سيطرت فيها الطبقة المتوسطة على الصناعة الآلية ، فى ظل النظام الراسمالى . وقد تنقلت هذه الحضارة البورجوازية الاوروبية من نجاح الى نجاح . وصعدت قمة بعد قمة . فلم يكد القرن التاسع عشر يصل الى النهاية حتى كانت قد سجلت تفوقها وسيادتها فى العالم أجمع .. ثم لم يلبث أن ظهر الخلل !

وقد رأينا أطرافا من آثار هذه الحضارة فى آسيا أيضا .. عندما ذهبت اوروبا ـ مدفوعة بصناعتها النامية ـ تمد أيديها الى أراض بعيدة لكى تسيطر عليها وتستغلها لمصلحتها . وأنا أقصد بكلمة « أوروبا » هنا أوروبا الغربية بالذات ، التى كانت متفوقة على غيرها فى حركة التصنيع وفى اوروبا الغربية كانت انجلترا الزعيمة التى لا تبارى ، متفوقة على الآخرين ، مستفيدة من هذه الزعامة الى أقصى الحدود ..

على ان كل هذه التغييرات الهائلة التى كانت تتوالى فى غرب اوروبا ، لم تكن واضحة او مفهومة لدى الملوك والاباطرة فى مطلع القرن . فلم يدركوا أهمية القوى الجديدة الآخذة فى النمو . ومنذ القضاء على نابليون نهائيا كانت الفكرة الوحيدة المسيطرة على أولئك الملوك هى أن يحافظوا على عروشهم وسلالتهم وأن يجعلوا العالم ملائما لبقاء الاوتوقراطية . وكانوا فى الوقت نفسه لم يبرأوا بعد من الذعر الذى اصابتهم به الثورة الفرنسية ، فهم حريصون على أن لا يتيحوا الفرصة لنشوب ثورة اخرى ..

وكما قلت لك من قبل ، عقدوا بينهم ما اسموه بـ « المحالفة المقدسة » للمحافظة على « الحق الإلهى للملوك » ، ولمنع الناس من أن يرفعوا رؤوسهم ! وتحالفت الاتوقراطية ورجال الدين كالعادة . وكان الاسكندر قيصر روسيا هو الروح الموجهة وراء هذا الحلف .. ذلك أن بلاده ظلت حتى ذلك الوقت تعش فى ظلال القرون الوسطى ، لم تهب عليها نسمة واحدة من ريح الصناعة. كانت المدن الكبيرة هناك نادرة ، والتجارة تافهة ، وحتى الصناعات اليدوية كانت فى مستوى خفيض ، مما جعل الارستقراطية قوة وحيدة لا ينازعها أحد . وعلى

العكس من ذلك كانت الاحوال فى سائر بلاد اوروبا .
فكلما اتجه المرء غربا كان يجد الطبقـــــة المتوســطة أكثر نموا ، حتى يصل الى انجلترا نفسها فلا يجد فيهـا أوتوقراطية على الاطلاق . فالملك مقيد بسلطة البرلمان ، والبرلمان فى يد حفنة من الاغنياء . وكان الفارق كبيرا بين الاتوقراطية فى روسيا والاغنياء الحاكمين فى انجلترا ، ولكنهما كانا يشتركان فى شىء واحد : الخوف من الشعب .. ومن الثورة

هكذا كانت الرجعيــة مســيطرة منتصرة فى أوروبا . وكان كل مظهر له اقل حظ من الحرية ، يحارب بأشـد قسوة ، بل أنه بمقتضى قرارات مؤتمر فيينـا ١٨١٥ ، الغيت بعض الجنسيات ، مثل ايطاليا ، وادخلت ضمن الحكم الاجـنبى ، وكان لابد للاحتفــاظ بهذا الوضـع من استعمال العنف . ولكن مثـل هــذا الوضــع لا يمكن أن يـدوم ، فلابد من الاضــطراب . وأصبحت أوروبـا معبأة بالبخار ، الذى يعثر من حين الى آخر على منفذ له . وقد رويت لك من قبل قصة الاضطرابات التى وقعت سنة ١٨٣٠ ، والتى أدت الى بعض التغيرات ، مثل سقوط اسرة البوربون نهائيا فى فرنسا . ولكن هذه الاضطرابات أفزعت الملوك والاباطرة وأفزعت وزراءهم ، فاندفعـوا يخمدون سخط الجماهير فى وحشية بالغة .

وقد رأيت خلال هذه الخطابات التغييرات الكبيرة التى كانت تحدث نتيجة للحروب أو الثورات ..

أما الحروب فقد كانت فى الزمن الماضى اما دينية أو عائلية او وطنية . وان كانت تخفى وراءها عــادة بعض الاسباب الاقتصادية ايضا

وبوصولنا الى العصور الحديثة نجد أن الحـــروب الدينية والعائلية قد اختفت . لم تنته الحروب طبعا ،

بل لعلها زادت فى نطاقها ، ولكن أسبابها أصبحت سياسية واقتصادية ـ الاسباب السياسية مرتبطة عادة بالوطنية . كغزو دولة لدولة اخرى ، أو كصراع بين وطنيتين . ولكن حتى هذه الخلافات نجد لها أسبابا اقتصادية ، كاحتياج الدول الصناعية الى أسواق وخامات تستأثر بها

وهكذا نجد أن العوامل الاقتصادية أصبحت ومازالت الى الآن ـ هى الاسباب الاولى فى اشعال الحروب

وقد حدث نفس التطور بالنسبة للثورات . كانت الثورات قديما تحدث فى بلاط القصور : افراد اسرة حاكمة يتآمرون ضد بعضهم البعض ويتبادلون المكائد والاغتيالات .. او انفجار يائس يقوم به الناس لانهاء حياة طاغية ، أو استيلاء جندى طموح على العرش بواسطة القوة المسلحة . مثل هذه الثورات كان ينهض بها أفراد قلائل ، أما عامة الناس فكانوا لا يشاركون فيها ، بل يهتمون بها .. فالحكام يتغيرون ولكن النظام يبقى وحياة الناس لا تتغير . نعم ، هناك الحاكم الطاغية الذى لا يحتمل والحاكم الذى يستطيع الناس احتماله ولكن سواء كان الحاكم طيبا أو رديئا فان الظروف الاجتماعية والاقتصادية كانت تبقى على حالها . أى أن الثورات ، لم تكن اجتماعية

والثورات الوطنية تنطوى على تغير أكبر من ذلك : فحين تحكم احدى الدول دولة اخرى ، فمعنى ذلك ان طبقة حاكمة أجنبية هى التى تسيطر . وهذا الوضع يلحق بالدولة المحتلة اضرارا بالغة ، اذ معنى ذلك ان تكون الدولة المحكومة مكرسة لصالح الدولة الحاكمة والطبقة الاجنبية الحاكمة ..

هذا الوضع يؤدى الى الثورة الوطنية ، لانه من ناحية يؤذى كرامة أبناء الدولة المحكومة . ويحرم الطبقات البارزة

فيها من الوصول الى مراكز السلطة والنفوذ ، التى لولا الحكم الاجنبى لشغلها أبناء هذه الطبقـــات ، والثورة الوطنية الناجحة هى التى تطرد العنصر الاجنبى وتضـع العناصر الوطنية القوية بدلا منها . ومعنى ذلك ان مثـل هذه الثورة الوطنية تعود بالنفع اولا وقبل كل شىء على أبناء الطبقات العليا لانهم هم الذين يستفيدون مباشرة من خروج العنصر الاجنبى

اما الطبقات الفقيرة فلاشك أنها تستفيد أيضا اذ لاتعود بلادهم محكومة لحساب دولة أجنبية . ولكن فائدتهم تبقى ضئيلة ، مالم تكن الثورة الوطنية مصحوبة بثورة اجتماعية أيضا . .

والثورة الاجتماعية شىء يختلف تماما عن الثـــورات الاخرى التى لا تغير شيئا سوى الســـطح ، هى ثورة سياسية بغير شك ، ولكنها تنطوى على شىء أكـــثر من ذلك ، اذ تغير تكوين المجتمع ذاته . فالثورة الانجليزية مثلا ، التى جعلت سلطة البرلمان هى العليا ، لم تكن ثورة سياسية فحسب ، بل كانت اجتماعية فى بعض نواحيها ، اذ أدت الى مشاركة الطبقة الغنية للملك فى سلطة الحكم . وبذلك ارتفعت تلك البورجوازية سياسيا واجتماعيـا ، بينما لم ينل أبناء البورجوازية الصغيرة ولا عامة النـاس شيئا . والثورة الفرنسية كانت ثورة اجتماعية ، بل وربما أكثر من ذلك قليلا ، فقد قلبت نظام المجتمع كله رأسا على عقب ، ولعبت الجماهير فيها دورا هاما

وقد انتصرت البورجوازية هنـــا أيضـــا ، فقد أعادت الجماهير ــ بعد أن لعبت دورها ــ الى مكانها القديم ، وأخرجت فى الوقت نفسه النبلاء أصحاب الامتيازات . .

فالثـــورات الاجتمـــاعية اذا أبعـــد أثرا من التطورات السياسية ، اذ أنها وثيقـــة الصـــلة بظروف المجتمع .

والثورة الاجتماعية لا يمكن أن يخلقها فرد طموح أو جماعة معينة ، ما لم تكن الجماهير مهيأة ومستعدة لهذه الثورة بحكم الظروف

ولست أقصد باستعداد الجماهير أن تكون متيقظة لما ستفعله بعد اخبارها به . ولكننى أقصد أن تكون الظروف الاقتصادية والاجتماعية قد وصلت الى حالة اصبحت حياتهم معها عبئا لا يجدون خلاصا منه الا بعد تفكير كبير . حقا ، لقد كانت الحياة خلال قرون طويلة عبئا رهيبا بالنسبة لجماهير ضخمة من الناس ، احتملت هذا العبء احتمالا غريبا . كانت هذه الجماهير تثور أحيانا ، ثورات فلاحين فى الغالب ، ولكنها كانت تفقد رشدها من الغضب فتنطلق مدمرة ما كانت تستطيع أن تضع يدها عليه . ولكن هذه الجماهير كانت تثور خالية من اية رغبة فى تغيير النظام الاجتماعى . وان كان هذا الجهل لم يمنع انهيار تلك الاوضاع الاجتماعية مرة أخرى ، كما حدث فى روما القديمة . وفى أوربا فى العصور الوسطى وفى الهند والصين وغيرها من الامبراطوريات التى أندثرت

وفى الماضى ، كانت التغييرات الاجتماعية الاقتصادية تتم فى بطء نظرا لان وسائل الانتاج والتوزيع والنقل ظلت دهورا طويلة دون أن تتغير تغيرا يذكر . وعلى ذلك كان الناس لا يلحظون هذا التغيير البطىء ويبقون على اعتقادهم بأن النظام الاجتماعى القديم أبدى لا بديل له . كذلك ساهم الدين فى وضع هالة من القداسة حول هذه النظم ، وما يصاحبها من عقائد وتقاليد . وأصبح الناس على درجة من الاقتناع بدوام هذه الاوضاع حتى انهم لم يفكروا قط فى أى تغيير للنظام الاجتماعى بالرغم من تغيير الظروف تغيرا كبيرا . ولكن بظهور الثورة

الصناعية وتغير وسائل النقل هذا التغيير الرهيب ؛ أصبحت التغييرات الاجتماعية أسرع من ذى قبل ، لقد قفزت طبقات جديدة الى المقدمة وأصبحت واسعة الثراء . وظهرت طبقة من العمال الصناعيين تختلف تماما عن طبقة العمال اليدويين أو الزراعيين ، كل ذلك أصبح يقتضى تغييرا اقتصاديا وسياسيا عاجلا . وأصبحت أوربا الغربية فى حالة غريبة من القلق . والمجتمع الحكيم هو المجتمع الذى يقدم على التغييرات الضرورية اذا دعت اليها الحاجة وبذلك يفيد من التطور . ولكن المجتمعات ليست فى العادة عاقلة ، ولا هى تفكر تفكيرا جماعيا بل ان أفرادها يفكر كل واحد لنفسه ومن أجل مصلحته ، كما ان الطبقات التى تضم أفرادا تتشابه مصالحهم تعمل لحساب نفسها . فاذا كانت هناك طبقة تحكم مجتمعا من المجتمعات ، فأنها تريد أن تبقى حاكمة مسيطرة تستغل الطبقات الادنى منها . والعقل والنظر البعيد يؤكدان أن الخير فى المدى الطويل لا يصيب فردا الا اذا كان خيرا للمجتمع الذى يعيش فيه هذا الفرد ، ولكن الفرد صاحب السلطة أو الطبقة صاحبة السلطة لا تريد الا أن تبقى على سلطتها . وأسهل طريقة لذلك هى محاولة اقناع سائر الطبقات والافراد بأن النظام الاجتماعى القائم هو خير نظام يمكن قيامه . وفى ذلك يساهم رجال الدين ، ويساهم التعليم ، حتى يصل الى اقناع الناس بعدم جدوى أى تغيير على الاطلاق . وما أكثر ما ينجح رجال الدين ورجال التعليم فى ذلك . حتى الذين يقاسون أكثر من غيرهم يصلون الى الاقتناع بحق النظام الاجتماعى القائم فى الاستمرار .. ببقائهم جائعين خانعين بينما يستمتع الآخرون بالحياة المترفة

هكذا نجد أناسا يعتقدون أن النظم الاجتماعية شىء

لا يتغير وان فقر الاغلبية لا ذنب فيه لاحد • انها فى رأيهم « القسمة » أو « الحظ » أو « جـزاء ما قدمت أيديهم فيما مضى » . فالمجتمع دائما محـافظ يكره التغيير ، يحب أن يبقى حيث هو ويؤمن بأنه خـلق ليبقى حيث هو . ومن أجل ذلك نرى المجتمع كثيرا ما يعاقب أولئك الدين يريدون أن يخرجوه من الوحل الذى يعيش فيه

ولكن الظروف الاقتصادية والاجتماعية لا تنظر لحسن الحظ ، انهـا تمضى وتتغـير ولو بقيت آراء النـاس جامدة . وبالتدريج تتسع مسافة الخلف بين الحقيقة الواقعة وبين المعتقدات القديمة بحيث لا يبقى هنـاك مفر من عمل شيء لتقليل مسافة الخلف بين الاثنـين والا تعرض النظام للكارثة والانهيار

تلك هى الظروف التى تخـلق الثورة الاجتـماعية الحقيقية . فاذا وصلت الامور الى هذا الحد فلا مفر من نشوب الثورة ، مهما تأخرت بفعل انتشار المعتقدات القديمة ..

أما اذا لم تتوفر هـذه الظـروف ، فان أى عدد من الافراد لا يمكن ان يخلق ثورة اجتماعية مهما بذلوا من جهود

أما اذا انفجرت الثورة فعلا فسرعان ما يسقط القناع الذى كان يخفى الاوضاع الحقيقية عن العيون وسرعان ما يدخل الفهم الى عقول الناس . والناس اذا خرجوا من الجحر لا يلبثون أن يزحفوا الى الامام . وهذا هو السبب فى أن الناس فى أيام الثورات يتقدمون بنشـاط عجيب ..

هكذا تأتى الثورة نتيجة حتمية للرجعية المتحجرة . أمااذا تجنب المجتمع غلطةالاقتناع بدوام النظم الاجتماعية واحتفظ بمرونته وقدرته على التطور مع تغير الظروف ،

فأنه لا يتعرض للثورة الاجتماعية أبدا . اذ يحل محل الثورة : التطور المضطرد ..

لقد استطردت فى الحديث معك عن الثورات دون أن أقصد والواقع أن هذا الموضوع يثيرنى ويعجبنى ، فالعالم الآن يغمره القلق فى كل مكان ، والنظام الاجتماعى يقف فى كثير من البلاد على وشك الانهيار ، مما يدعو المرء الى الاعتقاد بأن العالم يقبل على تطورات خطيرة

ففى الهند ، كما فى غيرها من البلاد المستعمرة ، نجد الشعور الوطنى دافقا قويا . ولكن هذا الشعور القومى الدافق يتركز أساسا بين الطبقات الميسورة الحال ، أما الفلاحون والعمال ، وغيرهم ممن يعيشون فى عوز دائم ، فانهم بالطبع مهتمون بملء بطونهم اكثر مما يهتمون بالاحلام الوطنية المجردة . الوطنية بالنسبة لهم لا تعنى شيئا ما لم تحمل اليهم مزيدا من الطعام . وعلى ذلك فالمشكلة في الهند ليست سياسية فقط ، بل واجتماعية أيضا

لقد اندفعت فى هذا الحديث الطويل عن الثورات بمناسبة شروعي فى الحديث عن تلك الثورات التى غمرت أوربا فى القرن التاسع عشر

وكثير من هذه الثورات كان من نوع الثورات الوطنية ضد الغاصب الاجنبى . الا أن الافكار الثورية فى البلاد الصناعية بالذات أدت الى مزيد من الخلاف بين طبقة العمال الجديدة والرأسماليين أصحاب الصناعات . وبدأ الناس يفكرون ويعملون فى انتباه من أجل الثورة الاجتماعية ..

وجاء عام ١٨٤٨ الذى يسمى فى أوروبا عام الثورات . فقد نشبت الثورات فى كثير من البلاد ، ونجح بعضها وان كان أغلبها قد انتهى الى الفشل . كانت الوطنية

المقهورة وراء الثورة فى بولندا وايطاليا وبوهيميا وهنجاريا

كانت ثورة بولندا ضد بروسيا وكانت ثورة بوهيميا وشمال ايطاليا ضد النمسا . وقد أخمدت جميعا . أما الثورة الهنغارية ضد النمسا فقد كانت أكبرها جميعا ، وقد تزعمها « لوجوس كوساث » الذى يذكره تاريخ المجر كأحد الوطنيين وأبطال الحرية الخالدين . وبالرغم من سنتين كاملتين من المقاومة ، فقد أخمدت هذه الثورة أيضا

وبعد فترة أخرى من الزمن نجحت المجر فى نيل استقلالها بواسطة ثورة أخرى من نوع جديد قادها زعيم اسمه « دياك » . وقد أصبحت حركة المقاومة السلبية التى تزعمها دياك ، بعد نصف قرن ، نموذجا للحركة الايرلندية ضد انجلترا ، وفى سنة ١٩٢٠ عندما بدأت حركة عدم التعاون فى الهند ، ذكر كثيرون كفاح « دياك » .. وان كان ثمة فروق كثيرة بين الطريقتين ..

وقد نشبت ثورة أخرى فى ألمانيا أيضا سنة ١٨٤٨ ولكنها لم تكن ذات خطر ، فتم اخمادها مع وعد باجراء بعض التعديلات لتهدئة الخواطر

أما فى فرنسا فقد تم تغيير كبير . فمنذ طرد البوربون كان يحكم فرنسا الملك لويس فيليب ، وكانت ملكية شبه دستورية . وفى سنة ١٨٤٨ ثار الناس عليه وأرغموه على التنازل ، ثم أعلنت الجمهورية مرة أخرى .. الجمهورية الفرنسية الثانية ، اذ كانت الاولى خلال الثورة ..

وانتهز ابن أحد أخوة نابليون ــ لويس بونابرت ــ فرصة الاضطراب ، فعاد الى باريس ، وتظاهر بأنه من أنصار الحرية الكبار ، فانتخبه الفرنسيون رئيسا للجمهورية الجديدة ، ولم يكن تظاهره بأنه من أنصار

الحرية الا خـدعة ليصل الى القـوة . فلمـا اطمأن الى قوته ، واطمأن الى سيطرته على الجيش ، عمد سـنة ١٨٥١ الى عمل انقلاب ، حاصر باريس وأطلق الرصاص على الناس وأرهب أعضاء البرلمان ، وفى السنة التاليـة أعلن نفسه امبراطورا ، وسمى نفسه نابليون الثالث ..

وهكذا انتهت الجمهورية الثانية فى فرنسا ، بعد عمر قصير غير مجيد لم يدم أكثر من أربع سنوات

ولم تقع فى انجلترا خلال سنة ١٨٤٨ ثورة ما ، ولكنها تعرضت لاضطرابات ومتاعب خطيرة . ولانجلترا أسلوب خاص بها فى الرضوخ عندما تهـددها بوادر اضطراب خطير ، وبذلك تتجنب وقوعه . فدستورها المرن يسهل لها ذلك من ناحيـة ، كما أن الخبرة الطـويلة عودت الانجليزى على أن يقبل الحل الوسط اذا لم يعد ثمة طريق آخـر أمامه .. وبذلك تجنبت انجلترا كثيرا من التغيرات الكبيرة المفاجئة التى تعرضت لها الدول الاخرى لان دساتيرها أكثر صلابة وأبناءها أقل مرونة ..

فى سنة ١٨٣٢ شهدت انجلترا اضطرابا كبيرا من أجل اصدار قانون الاصلاح الذى أعطى حق الانتخاب لعدد أكبر من المواطنين ، فبمقتضاه اقتصر حق الانتخاب على عدد من أبنـاء الطبقة المتوسطة ، أما العمال والاغلبيـة الساحقة من الناس فلم يكن لهم حق الانتخاب .. وكان البرلمـان من أجل ذلك فى يد حفنة من الاغنيـاء الذين كانوا لا يريدون فقد هذه الميزة التى تعيدهم الى مقاعد مجلس العموم فى كل انتخاب دون أى عناء ..

وقد قاوم هؤلاء الاغنياء اصدار هذا القانون بكل قوتهم ومهارتهم ، وكانوا يرددون ان انجلترا سوف تنهـار ، والعالم سوف ينتهى ، اذا تم اصدار ذلك القانون !.. ووصلت انجلترا الى مرحلة الخوف من وقوع حـرب

أهليـــة .. قبل أن يوافق البرلمان على اصدار هـــذا القانون .. ولم تتمزق انجلترا بل ولم يتغير البرلمـــان كثيرا ، فقد ظل واقعا تحت ســيطرة نفس الحفنة من الاغنياء .. وان كانت الطبقة المتوسطة الميسورة الحال قد نالت مزيدا من القوة ..

فلما جاءت سنة ١٨٤٨ تعرضت البلاد لهزة جديدة.. فقد قامت حـــركة ضخمة تريد ارغام البرلمـــان على الموافقة على اصلاحات اخرى كثيرة .. وبعد ان افزعت هـــذه الحركة الطبقات الحاكمة الى حد بعيـــد ، تم اخمـــادها .. ولكن السخط بين طبقات العمال ظـــل محتدما .. فبدأ البرلمان يصدر أول قوانين للعمال .. وهى قوانين كانت لا تفيد العمال الا قليلا ..

وفى ذلك الوقت كانت انجلترا تحصل على ارباح هائلة من تجارتها المتزايدة .. كانت قد أصبحت « مخـــزن العالم » كله فى التجارة .. وكانت اغلب هـــذه الارباح تذهب طبعا الى أصحاب المصانع ، فلا يتسرب منها الى العمال الا التافه القليل .ولكن هذا القليل على اية حال ساعد على تأجيل الثورة التى أوشكت على النشوب سنة ١٨٤٨ .. وان بقى خطرها معلقا فى الافق



داروين وانتصار العلم

٣ فبراير ١٩٣٣

تعالى نترك حديث الشعراء وننتقل الى حديث العلماء .. فاننى اخشى ان يكون الشعراء ما زالوا معتبرين قوما غير نافعين .. اما العلماء فانهم صانعو المعجزات فى هذا العصر ..

هم الآن أصحاب القوة والشرف ولم يكن هذا شأنهم قبل القرن التاسع عشر ..

فى القرون الاولى كانت حياة العلماء فى أوربا معرضة للخطر الدائم ، وكثيرا ما انتهت بفاجعة .. وقد رويت لك من قبل كيف أحرقت الكنيسة فى روما العالم « جيوردانو برونو » وبعد ذلك بسنوات ، فى القرن السابع عشر ، كاد جاليليو يلقى حتفه بنفس الطريقة ، لانه قال ان الارض تدور حول الشمس !.. فلم يفلت من الحرق بتهمة الكفر الا بعد أن اعتذر عن نظريته ، وسحب الآراء التى نادى بها !..

الى هذا الحد كانت الكنيسة فى أوروبا تخالف العلم وتقاومه وتكبت الآراء الجديدة .. أما العلم « الرسمى »

فى أوروبا وغيرها فقد كان يدين ببضع نظريات يجب على العلماء جميعا أن يسلموا بها دون أى مناقشة !..

ولكن العلم له طريقة أخرى فى النظر الى الاشياء ، أنه لا يأخذ شيئا قط على انه قضية مسلم بها دون مناقشة .. أنه يدعو الى التفكير الحر ومواصلة البحث عن الحقيقة ، بواسطة مزيد من التجارب والاختبارات ، وواضح أن هذا الاتجاه يختلف تماما عن اتجاه الكنيسة .. فليس غريبا بعد ذلك أن يحتدم الخلاف بين العلم والكنيسة الى اقصى الحدود ..

وما أحسب الا أن التجارب العلمية كانت شيئا عرفه كثير من الناس فى جميع العصور .. فانه يقال مثلا أن الهند القديمة كانت متقدمة جدا فى الطب والكيمياء ، ومثل هذا لا يمكن أن يتم الا بعد كثير من التجارب والابحاث .. كذلك أحرز الاغريق بعض التقدم فى هذا الميدان ..

أما الصين فقد قرأت منذ قريب ابحاثا مدهشة ، عن أكتشاف مؤلفات لبعض الكتاب الصينيين ترجع الى ١٥٠٠ سنة مضت ، تثبت أن هؤلاء الصينيين كانوا يعرفون شيئا عن نظرية النشوء والارتقاء ، وعن الدورة الدموية فى الجسد ، على أننا لا نعرف ـ حتى الآن ـ معلومات كاملة عن هذه الابحاث والنتائج الاخيرة التى وصلت اليها .. ولا يملك الانسان نفسه من التساؤل اذا كانت الحضارات القديمة قد عرفت المنهج العلمى ، فلماذا أهملته بعد ذلك ؟ .. لماذا لم تستخدمه لتحقيق مزيد من التقدم ؟ .. أم تراها لم تكن تعلق أهمية كبيرة على هذا النوع من التقدم ؟ ..

ما أكثر الاسئلة التى تخطر على البال .. لولا أننا لا نملك المعلومات الكافية للاجابة عليها ! ..

وقد كان العرب مغرمين الى أقصى حد بالتجارب ، وقد سارت أوروبا على نهجهم خلال العصور الوسطى .. على أن تجـارب العصور الوسطى لم تكن علميـة بالمعنى الصحيح .. كان هم النـاس فيهـا منصرفا الى البحث عما كانوا يسمونه بـ « حجر الفلاسفة » الذى كـانوا يعتقدون أنه سوف يحول المعدن الرخيص الى ذهب ... وكثير من الناس من أنفقوا أعمارهم فى تجارب معقـدة أملا فى العثور على سر تحويل المعادن الى ذهب ، وكانت هذه التجارب تسمى « الكيميـاء » .. كـذلك كانوا يبحثون فى دأب عن « اكسير الحيـاة » الذى يمنـح الانسان الحياة الدائمة .. على أنه لا يوجد اى شيء يدل على عثور اى انسان على حجر الفلاسفة أو اكسير الحياة ، اللهم الا فى القصص الخرافية ...

كانت الابحاث اذا تجرى وراء أحلام الناس فى الثروة والقوة والعمر الطويل .. وليس هذا من روح العـلم فى شيء فالعلم شيء أخر غير السحر والشعوذة ..

وقد نشأ المنهج العلمى الحقيقى وتطور تدريجيا فىأوروبا ومن بين المع الاسماء فى تاريخ العـلم العـالم الانجليزى « أيزاك نيوتن » .. الذى عاش من سنة ١٦٤٢ الى سنة ١٧٢٧ ..

ولقد وضع نيوتن قانون الجاذبية .. اى شرح لنـا لماذا تقع الاشياء على الارض اذا تركت معلقة فى الهواء .. وعن طريق هذا القانون، وبعض قوانين أخرى تم أكتشافها، أستطاع ان يشرح حركة الشمس «والاجرام السماوية» .. وبدا أن كل شيء يمكن تفسيره على أساس هذه النظرية : ونال نيوتن عليها تشريفا كبيرا ..

ومضى العلم يعزز انتصاراته ضد الكنيسة .. ولم يعد ممكنا أنكار اكتشافاته أو الحكم على مكتشفيهابالموت ..

ومضى كثير من العلماء يعملون فى صبر ، ويجربون ويسجلون الحقائق والمعارف خصوصا فى انجلترا وفرنسا، ثم فى المانيا وأمريكا ، وانك لتذكرين ان القرن الثامن عشر كان القرن الذى انتشرت فيه النظرة العقلية بين الطبقات ، والذى بزغ فيه فولتير وروسو وغيرهم من الفرنسيين العباقرة الذين كتبوا فى شتى الموضوعات ووضعوا خميرة التفكير فى عقول الناس .. انه ايضا القرن الذى تكون فى رحمه جنين الثورة الفرنسية ..

وقد اتفقت هذه النظرة العقلية مع النظرة العلمية التى أوجدها العلماء ، واتحد الاثنان فى جبهة واحدة ضد الكنيسة ..

ومن صفات القرن التاسع عشر الرئيسية ، أنه عصر العلم فالثورة الصناعية والتغيرات الهائلة فى وسائل النقل وغير ذلك من نتائج العلم .. فقد غيرت المصانع وسائل الانتاج ، وربطت السكك الحديدية والبواخر بين أجزاء العالم وضيقت المسافات ، وكان التلغراف الكهربائى اعجوبة اخرى ..

واهتزت الافكار القديمة تحت ضغط هذه التغيرات الهائلة وتراخت قبضة الكنيسة الى حد بعيد ، فأنه من طبيعة الحياة الصناعية ـ على عكس الحياة الزراعية ـ أن تدفع الناس الى مزيد من التفكير فى العلاقات الاقتصادية ..

وفى منتصف ذلك القرن ، او فى سنة ١٨٥٩ بالتحديد، ظهر فى انجلترا كتاب خطير دفع بالخلاف بين النظرة العلمية والنظرة المؤمنة الى غايته .. ذلك هو كتاب « اصل الانواع » لمؤلفه شارلز داروين ..

وداروين لا يوضع عادة بين كبار العلماء ، ذلك أنه لم يأت بجديد ..

وكثير من علماء الجيولوجيا والطبيعة عملوا قبل داروين وحصلوا على معلومات كثيرة .. ومع ذلك فان كتاب داروين هو الذى صنع العصر كله .. فقد خلق تأثيرا عاما وساعد على تغير النظرة الى المشاكل الاجتماعية ، اكثر مما فعل اى كتاب علمى آخر ..

كان صدور هذا الكتاب بمثابة انفجار بركان عقلى ، جعل داروين رجلا شهيرا

لقد طاف داروين بجنوب أمريكا والمحيط الهادى كعالم طبيعى ، وجمع من كل مكان كمية هائلة من المعلومات والحقائق ثم استعمل كل ما جمعه فى شرح كيف أن كل نوع من الحيوانات تغير وتطور بالاختيار الطبيعى .. كان الناس قبل ذلك يعتقدون أن كل نوع من الحيوان حتى الانسان قد خلق منفصلا عن الانواع الاخرى وانه بقى كما خلق دون أن يتغير فأى نوع من المخلوقات ـ اذا ـ لايمكن ان يتحول الى نوع اخر ..

ولكن داروين اثبت بعديد من الامثلة الحقيقية ، أن الانواع تتغير من نوع الى اخر ، وان هذه هى الطريقة الطبيعية للتطور وهى طريقة الاختيار الطبيعى .. فأى تغير بسيط فى نوع من الانواع ، اذا كان نافعا لهذا النوع بأى صورة من الصور أو اذا ساعده على ان يعيش أكثر من غيره من الانواع ، فانه يؤدى بالتدريج الى تغير مستمر .. لان مزيدا من هذه الانواع المتغيرة سوف يوجد .. وبعد قليل تصبح هذه الانواع المتغيره هى الاغلبية ..ثم تطغى على الانواع الاخرى ، فلا يمضى بعض الوقت الا وقد ظهر نوع جديد تماما .. وبمرور الزمن تظهر أنواع جديدة كثيرة عن طريقة البقاء للاصلح بواسطة الانتخاب الطبيعى .. وهذا التطور يمكن أن

يحدث بالنسبة للنبات والحيوان ‥ وللانسان أيضا ‥ ومن الممكن ـ بناء على هذه النظرية ـ أن يكون ثمة أصل مشترك لجميع النباتات والحيوانات التى نعرفها الان ‥

وبعد سنوات قليلة نشر داروين كتابا آخر اسمه « سلالة الانسان » طبق فيه نظريته الاولى على الانسان ‥

وهذه النظرية عن التطور والاختيار الطبيعى مقبولة الان من كثير من الناس ، وان لم تعد فى صورتها الاولى التى وضعها داروين وأتباعه ‥ ومن الامور العادية اليوم أن يستعمل الانسان مبدأ الاختيار صناعيا لاخراج أنواع أرقى من الحيوانات والفاكهة والزهور وسائر المزروعات ‥ وأغلب الحيوانات التى تنال الجوائز فى المسابقات الان تعتبر أنواعا جديدة ، تم خلقها صناعيا ‥ فاذا كان الانسان يحصل على هذه النتائج ، وفى مثل هذا الزمن القصير ، فأى شىء تعجز عنه الطبيعة فى عملية تطور مستمر ، وخلال مئات والاف من السنين ‥

ان زيارة قصيرة لاى متحف للتاريخ الطبيعى كمتحف جنوب كنسجتون فى لندن مثلا ترينا كيف أن النباتات والحيوانات تعدل نفسها باستمرار لتتلائم مع الطبيعة‥

كل هذا يبدو لنا الآن واضحا بسيطا .. ولكنه لم يكن واضحا بسيطا هكذا منذ مائة سنة بل أن أغلب الناس فى أوروبا ما زالوا يؤمنون حتى الان بأن العالم خلق قبل ميلاد المسيح بأربعة الاف سنة فقط ‥ وان كل زرع أو حيوان قد خلق كما تعرفه الان ‥

وكل هذا لا يتلائم مع نظرية داروين فان داروين وعلماء الجيولوجيا يحسبون عمر الارض بملايين السنين ،لابفترة قصيرة تبلغ ستة الاف سنة ‥ وقد أدى ذلك الىاضطراب عظيم فى عقول الرجال والنساء ‥ وكثيرون جدا من

الناس الطيبين وقفوا حائرين لا يعرفون ما يصنعون ؟ ..
ايمانهم القديم يطالبهم أن يعتقدوا فى أى شيء .. وعقلهم يقول شيئا آخر .. والناس اذا أمنوا بعقيدة ما، ثم تعرض ايمانهم لهزة عنيفة شعروا باليأس والتعاسة والضياع .. اد لا يجدون أرضا صلبة يقفون عليها ..

هكذا احتدم النقاش والخلاف بين رجال العلم ورجال الدين فى انجلترا وغيرها من بلاد أوروبا .. وأظن أنه ليس هناك شك فى النتيجة فان العالم الجديد عالم الصناعة والالات والنقل السريع يقوم على العلم ، فليس من الممكن رفض هذا العلم ..

انتصر العلم اذا على طول الخط .. وأصبحت كلمات « الاختيار الطبيعى » .. و .. « البقاء للاصلح » شائعة فى القاموس العادى للناس ، الذين كثيرا ما يستعملون هذه العبارات دون أن يدركوا تماما أى معان تنطوى عليها

ومن الغريب أن الطبقات الحاكمة لم تتأخر عن تفسير نظرية داروين بحيث تناسب مصالحها .. وبحيث تجعلها دليلا جديدا يؤكد تفوقهم : انهم بغير شك أقوى من الآخرين وأقدر فى معركة الحياة !.. انهم قد وصلوا بحكم قانون « الاختيار الطبيعى » الى القمة وأصبحوا هم الطبقة الحاكمة !.. الطبقة التى تحكم الطبقات الاخرى والجنس الذى يحكم أجناسا أخرى وجد فى هذه النظرية حجة جديدة له . بل لقد أصبحت هذه النظرية حجة للاستعمار نفسه : فأبناء الجنس الابيض يعتقدون أنهم كلما زادوا سطوة وقوة كانوا اكثر تقدما فى مدارج الرقى الانسانى !! .. انها فلسفة كريهة بغير شك ، ولكنها تفسر كثيرا من سلوك الاستعمار الغربى فى آسيا وافريقيا

وقد تعرضت نظريات داروين لنقد كثير من العلماء .

ولكن الخطوط الرئيسية فيها ما زالت صـــامدة .. ومن نتائج الاخذ بهذه النظرية أنها جعلت الناس يؤمنون بفكرة التقدم ، بأن الانسان والمجتمع بل والعالم كله يسير الى الامام ، من الحسن الى الاحسن .. على أن هذه الفكرة لم تكن وليدة نظريات داروين وحدها .. فان الاكتشافات العلمية والثورة الصناعية كلها ساهمت فى اعداد عقــول الناس لتقبل هذه النظرية .. فلما جاءت نظرية داروين وجدت الارض مهيأة لها .وأصبح الناس يتصورون أنفسهم سائرين الى الامام من نصر الى نصر نحو الكمال الانسانى ، مهما كان نوع هذا الكمال !

ويجب أن نلاحظ أن فكرة التقدم هذه كانت جــديدة تماما ، انها لم توجد من قبل فى أوروبا أو اسيا ، اوفىأى حضارة قديمة .. فى أوروبا حتى ظهور الثورة الصناعية .. كان الناس ينظرون الى الماضى على أنه المثل الاعلى . كانوا يعتقدون أن عصر الاغريق والرومان هو أزهىعصور البشر وأكثرها حضارة وثقافة ، وأن العالم يتأخر وينحط ويسير من سيىء الى أسوأ ..

وفى الهند نجد نفس الفكرة ـ فكرة الانحطاط والعصر الذهبى الذى مضى والاساطير الهندية كلها تقدر الزمـــن دائما بالحديث عن عصر باهر مجيد « ستايا يوجا » ثـــم تنتهى الى العصر الحاضر وتسميه عصر الشـــيطان « كالا يوجا » ..

ففكرة التقدم الانسانى اذا فكرة جـــديدة تماما .. ومعرفتنا الخالية بالتاريخ القديم تجعلنا نؤمن بهذهالفكرة

ومع ذلك فان معلوماتنا حتى الان يشوبها كثــــير من النقص وربما لو تكاملت لدينا المعلومات لتغيرت فكرتنا بعض الشىء بل اننا لا نجد اليوم فى هذا الايمان بالتقــدم نفس الحرارة التى كانت تملؤه فى النصـــف الثانى من

القرن التاسع عشر . ومن الناس من يقول الان : اذا كان هذا التقدم يدفعنا الى أن ندمر بعضنا البعض على هـذا النطاق الواسع الذى رأيناه فى الحروب العالمية ، فلا شك أن هناك عيبا ما فى هذا التقدم ..

وناس اخرون يقولون الان أن قول داروين بأن البقاء للاصلح ، ليس معناه بالضرورة .. أن يكون البقـــاء للاحسن ..

على أن الذى يهمنا فى النهاية هو أن الاقتناع القـديم بوجود مجتمع ثابت لا يتغير ، قد نحاه العلم جانبا ، وحل محله الايمان بمجتمع ديناميكى متغير ..

وبمناسبة حديثى هذا عن نظرية داروين فى أصـل الانواع قد يكون من الطريف أن أروى لك ما كتبهفيلسوف صينى اسمه « تسون تسي » فى هذا الموضوع منذ ٢٥٠٠ سنة أى قبل المسيح بستة قرون ، وفى زمن بوذا تقريبا

قال الفليسوف الصينى :

« كل الاشياء مبتدعة من نوع واحد .. هذا النـوع الواحد تعرض لكثير من التغيرات التدريجية المستمرة ، حتى انتهى الى كل هذه الاشياء المختلفة الاشكال .. هذه الاشياء لم تتشكل وتختلف مرة واحدة ، بل على العكس ، قد اختلفت خلال التغيير التدريجى ، جيلا بعد جيل !! »

هذا الكلام كما ترين قريب جدا من نظرية داروين !..

وانه لمن الغريب أن يصل ذلك البيولوجى الصينى القديم الى هذه النتيجة التى كان على العالم أن يقضى ٢٥٠٠ سنة أخرى قبل أن يعود فيكتشفها من جديد ! ..

لقد ضاعف العلم من سيطرة الانسان على الطبيعة ولكن الانسان بكل قوته هذه لم يعرف كيف يسيطر على نفسه .. فمضى يسيىء التصرف ويضيع خيرات العلم فيـما لا ينفع .. ولكن العلم بالرغم من ذلك مضى قدما فى موكبه ،

وفى خلال مائة وخمسين عاما أحدث العالم من التغيير مالم تحدثه الاف السنين من قبل ..

وما زال العلم ماضيا حتى الان الى الامام ، وربما بسرعة أكبر .. فلا يكاد الانسان يشترى آلة ويركبها ويعدها للعمل حتى تكون قد أصبحت طرازا قديما بما ظهر بعدها من آلات احدث واقدر .. وها نحن نرى الكهرباء تحل محل البخار فى كل شيء .. مما سوف يؤدى الى ثورة أخرى فى الصناعة

واليوم .. نرى الافا مؤلفة من العلماء يعملون بغير كلل فى كل فروع العلم .. وأكبر اسم الان بين هؤلاء العلماء هو البرت اينشتين الذى نجح فى تعديل نظرية نيوتن التى أشرنا اليها من قبل ..

وقد بلغ من سرعة التقدم العلمى .. ان العلماء أنفسهم قد أخذهم الروع ، وفقدوا كبرياءهم الاول ! .. انهم يشكون الان فى كل نتيجة يصلون اليها ، وكل مستقبل يتنبأون به !

ولكن هذا الشك وليد القرن العشرين ووليد أيامنا الراهنة فحسب أما القرن التاسع عشر ، فقد ركع البشر فيه أمام العلم ، معتقدين أنه الرب الجديد !! ..



تقدم الديمقراطية

١٠ فبراير ١٩٣٣

رويت لك فى خطاب سابق لمحات عن تقدم العلم فى القرن التاسع عشر .. وأريد الان أن أحدثك عن ناحية من نواحي التقدم فى هذا القرن ، وأعنى تقدم الفكرة الديمقراطية ..

ولعلك ما زلت تذكرين حديثى لك عن حرب الافكارفى فرنسا فى القرن الثانى عشر ، وعن « فولتير » أعظم كتاب هذا العصر ومفكريه،وآخرين غيره من الذين تحدوا المعتقدات القديمة عن الدين والمجتمع ، والذين قدموا فى جرأة عجيبة أفكارا جديدة

وقد ساد هذا التفكير فى فرنسا فى ذلك الوقت على نطاق واسع .. أما فى ألمانيا فقد كان الفلاسفة مهتمين بمسائل فلسفية أشد تعقيدا .. وفى انجلترا كانت التجارة والاعمال فى تزايد مستمر ، والناس هناك غير مغرمين بالتفكير ما لم تضطرهم الظروف الى التفكير اضطرارا ! ..

ومع ذلك فقد ظهر فى انجلترا فى النصف الثانى من

القرن الثانى عشر كتاب خطير ، ذلك هو كتـــاب « آدم سميث » عن ثروة الامم •• وهو ليس كتابا فى السياسة، ولكن فى الاقتصاد الســـياسى •• فحتى ذلك الوقت كان الاقتصاد كغيره من العلوم ، مختلطا بالدين وبالادب ، مما جعله عرضة للكثير من الاضطراب والخلط •• ثم جاء آدم سميث فعالج الاقتصاد معالجة علمية ، متحاشـــيا كل التعقيدات الادبية ، محاولا أن يعثر على القوانين الطبيعية التى تتحكم فى الاقتصاد ، والاقتصاد ـ كما لابد تعرفين ـ يتحدث عن دخل الافراد ونفقاتهم ، أو دخل الدولة كلهـا ونفقاتها عما ينتج الناس وما يستهلكون ، عن علاقاتهـم بغيرهم من الدول وغيرهم من الناس •• وكان ادم سميث يؤمن بأن كل هذه العمليات المعقدة تتم طبقا لقوانين طبيعية محددة سجلها فى كتابه •• وكان يؤمن أيضا بأنه لابد من اعطاء الحرية الكاملة للحياة الصناعية حتى تؤتى هـــذه القوانين نتائجها •• وهو مذهب « دعهم يعملون » الذى حدثتك عنه من قبل ••

وكتاب آدم سميث هذا لا شأن له بالافكار الديمقراطية الجديدة التى كانت تتبلور فى ذلك الوقت فى فرنســا • ولكن هذه المعالجة العلمية لمشكلة من أهم المشـــاكل التى تؤثر فى مصائر الافراد والشعوب ، تدل على أن الانسان كان آخذا فى اتجاه جديد غير الاتجاه اللاهوتى القديم •• وادم سميث يعد الان أبو علم الاقتصـــاد ، وقد أثر فى كثيرين جدا من رجال الاقتصاد الانجليز فى القرن التاسع عشر ••

وقد ظل علم الاقتصاد الحديث قاصرا على الاساتذة وعلى عدد قليل من خاصة المثقفين ، ولكن الافكار الديمقراطية الجديدة كانت فى ذلك الوقت تنتشر بسرعة •• ثم جاء نجاح الثورة الامريكية والثورة الفرنسية فكان بمثابة دعاية واسعة

اكسبت هذه الافكار شعبية هائلة .. فقد هزت الناس تلك الكلمات الرنانة التي احتوى عليها اعلان الاستقلال الامريكي واعلان حقوق الانسان الفرنسي .. كانت هذه الكلمات بمثابة رسالة خلاص للملايين من المظلومين والمستعبدين ، فكل من الوثيقتين تتحدث عن الحرية والمساواة وحق كل فرد في أن يستمتع بالسعادة .. ومن أن اعلان هذه الحقوق الان لم يؤد مباشرة الى فوز الناس بها . (بل أن الذين يستمتعون بهذه الحقوق الان ، وبعد قرن ونصف من اعلانهـــا ، ما زالوا قليلين) ! .. فقد كان مجرد اعلان هذه الحقوق عملا قيما ، باعثا على الامل ..

لقد كانت الفكرة القديمة في أوروبا وفي كل مكان ، والفهم السائد للمسيحية وغيرها من الاديان ، أن الخطيئة والشقاء قدر مكتوب على الانسان . وبدت الاديان - بهذا التفسير - وكأنها تخص التعاسة والشقاء في هذا العالم بمركز دائم ممتاز .. وكأن كل ما تعد به البشر من جزاء ، مكانه في عالم اخر .. أما في هذا العالم فقد كان علينـا أن نصبر على قدرنا وأن لا نعمل على أي تغيير جوهري .. كانت تشجع الاحسان والتصدق على الفقراء ولكنها لا تقدم أي فكرة للقضاء على الفقر ذاته أو على النظم التي تؤدي الى هذا الفقر ..

والديمقراطية لا تزعم أن كل الناس سواء .. وهي لا تستطيع أن تزعم ذلك ، اذ أنه من الواضح جدا أن بين الناس فروقا كثيرة .. هناك فروق جسدية تجعل من الرجال من هم أقوى من غيرهم ، وفروق عقلية تجعل بعض الناس أذكى أو أحكم من سواهم ، وفروق اخلاقية تؤدي الى وجود من هم اقل انانية من الاخرين ، وان كان جانب كبير من هـــذه الفروق يعود الى ظروف التربيـــة والتعليم ..

خذى ولدين أو بنتين علي درجة واحدة من الاستعداد ، واعطي أحدهما تعليما واحرمي الاخر من التعليم ، وسوف ترين بعد سنوات قليلة أن ثمة فارقا هائلا بين الاثنين ، أو اعطي الواحد طعاما صحيا كافيا والاخر طعاما رديئا ناقصا .. وسترين أن أولهما سينشأ قويا سليما صحيحا في حين يصبح الاخر ضعيفا يائسا عليلا . اذا فالتربيـــة والثقافة ، والبيئة التي ينشأ فيها الانسان ، تتسبب في خلق كثير من الفروق بين الناس الى حد كبير . كل هــذا ممكن . ولكن فيما يتعلق بالفكرة الديمقراطية ، نجد أنها تعترف بأن الافراد ليسوا في الحقيقة متساوين ، ولكنها مع ذلك تعطيهم جميعا نفس القيمة السياسية والاجتماعية. فاذا سلمنا بهذه الفكرة الديمقراطية كاملة فسوف يؤدى بنا ذلك الى نتائج ثورية خطيرة

ولسنا هنا بصدد تقصى النتائج جميعا ، ولكن أبسط نتيجة لها هى أن يكون لكل مواطن الحق فى أن يعطى صوته فى انتخاب الحكومة أو البرلمان الذى يمثل الشعب. فالصوت الانتخابى هو رمز القوة السياسية ، واذا أعطينا كل مواطن حق التصويت فمعنى ذلك أننا ساوينا بين الجميع فى القوة الســـياسية . وهكذا كان أول مطالب الديمقراطية خلال القرن التاسع عشر هو المســـاواة بين الجميع فى حق التصويت

ولكن الذى حدث ، أن معظم الذين نالوا حق التصويت اكتشفوا أن الامر بالنسبة لهم لم يتغير كثيرا ! فبالرغم من أنه قد أصبح من حقهم أن يشتركوا فى الانتخابات ، فقد ظلوا بعيدين عن أى نفوذ فى الدولة أو ليس لهم من النفوذ الا التافه القليل ..

كان الصوت قليل النفع بالنسبة للرجل الجائع ، وظل اصحاب السلطة الحقيقية هم أولئك الذين يفيدون من جوعه

ويجعلونه يفعل أى شيء يرونه فى مصلحتهم • وهكذا ظهر أن القوة السياسية التى يمنحها هذا الصوت ليست الا ظلا لا حقيقة له ، ما دام مجردا من القوة الاقتصادية ، وأن أحلام الديمقراطيين النبيلة عن المساواة التىسوف يحققها تعميم حق الانتخابات ، لم تسفر عن شيء !

على أننى قد سبقت الحوادث قليلا ، فهذا التطور الاخير لم يظهر الا فيما بعد ، أما فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، فقد كانت حماسة الديمقراطيين لعقيدتهم هائلة ، وكان الاعتقاد سائدا بأن الديمقراطية سوف تجعل كل واحد من المواطنين حرا مساويا لغيره ، وأن الحكومة سوف تعمل من أجل سعادة الجميع ••

وكانت الحملة فى القرن الثامن عشر عنيفة على أوتوقراطية الملوك والحكومات وعلى الطريقة التى كانت تستغل بها سلطتها المطلقة •• وكان من نتائج ذلك أن نصت اعلانات حقوق الانسان على الحقوق الفردية • ولعل فى اعلان الحقوق الفرنسى والامريكى بعض الخطأ من هذه الناحية • ففى مجتمع معقد كالذى نعيش فيه ، ليس من السهل أن نفصل بين الافراد ونعطى كلا منهم حرية كاملة ••

فهذا الوضع سوف يؤدى الى تصادم مصالح الافراد بمصالح المجموع • ومهما كان الامر فقد دافعت الديمقراطية دفاعا عنيفا عن الحرية الفردية

وقد تأثرت انجلترا التى كانت متخلفة فى التفكير السياسى خلال القرن الثامن عشر ، بالثورتين الامريكية والفرنسية • وكان أول أثر بدا عليها ، هو الخوف من أن تؤدى هذه الديمقراطية الجديدة الى ثورة اجتماعية فى الجزيرة نفسها ، فأصبحت الطبقات الحاكمة أكثر رجعية

ومحافظة من ذى قبل • ولكن الافكار الجديدة ظلت تنتشر بين المثقفين • وظهر فى ذلك الوقت رجل انجليزى مرموق اسمه « توماس بين » كان يعيش فى أمريكا خلال الحرب الاهلية ، وقام بمساعدة الثوار هناك • وكان مسئولا الى حد كبير عن توجيه الامريكيين نحو فكرة الاستقلال التام • فلما عاد الى انجلترا ألف كتابا اسمه « حقوق الانسان » دافع فيه عن الثورة الفرنسية التى كانت قد بدأت فى ذلك الوقت ، وهاجم الارستقراطية ، ودعا الى الديمقراطية ومن أجل ذلك طاردته الحكومة الانجليزية ، ففر الى فرنسا وفى باريس لم يلبث أن أصبح عضوا فى المجلس الوطنى الذى كان يتزعم الثورة ، ولكن اليعاقبة المتطرفين ألقوا به الى السجن سنة ١٧٩٣ ، حين عارض فى اعدام الملك لويس السادس عشر

وفى سجون باريس ألف كتابا ثانيا أسماه « عصر العقل » هاجم فيه التفكير الدينى • ولما سقط روبسبيير وأعدم ، أطلق سراح توماس بين • ولما كان وجوده فى فرنسا قد جعله بعيدا عن متناول المحاكم الانجليزية ، فقد حكمت هذه المحاكم بالسجن على الناشر الذى قام بطبع هذا الكتاب فى انجلترا • فمثل هذا الكتاب كان يعد خطرا على المجتمع ، اذ كان التفكير الدينى يعتبر ضروريا لابقاء الفقـــراء فى مكانهم ، وقد دخل السجن كثيرون ممن حاولوا نشر كتاب « بين » كان من بينهم عدد من النساء

ومن الطريف أن نذكر أن الشاعر شيللى كتب رسالة طويلة يعترض فيها على هذه الاحكام ••

كانت الثورة الفرنسية هى أم المبادىء الديمقراطيةالتى انتشرت فى أوروبا خلال النصف الاول من القرن التاسع عشر وبالرغم من أن الظروف فى فرنسا قد تغيرت بسرعة الا أن مبادىء الثورة ظلت تتوالد وتنتشر ••

كانت هذه الافكار بمثابة رد فعل لطغيان الملوك وكانت مبنية على أسس سابقة على ظهور الصناعة • ولكن الصناعة الحديثة .. جاءت فقلبت النظم القديمة رأسا على عقب

ومن الغريب أن الديمقراطيين المتطرفين فى أوائل القرن التاسع عشر ، لم ينتبهوا لهـــذا التغير العميق ، وظلوا يرددون العبارات الاخاذة التى صاغتها الثورة وميثـــاق حقوق الانسان • فهل بدا لهم هذا التغير ماديا بحتا ، لا صلة له بالمطالب الروحية والسياسية التى كانت تنادى بها الديمقراطية ؟! ولكن الاشياء المادية لها واقع صارم يرفض أن يتجاهله أحد ! انه لمن الممتع أحيانا أن نلاحظ كم هو صعب على الناس أن يتركوا معتقداتهم القديمـــة المتداعية ويغلقون اعينهم عن الظروف المتطورة • يرفضون أن يروا شيئا • انهم قد يكافحون من أجل القديم ولو كان هذا القـــــديم ضارا بهم • انهم قد يقبلون أى شيء ، الا أن يسلموا بالافكار الجديدة ويكيفوا أنفسهم بما يلائمهـــا • أن للمحافظة على القديم سلطانا خارقا حتى على المتطرفين ، الذين يحسبون أنفسهم متقدمين •• انهم كثيرا ما يلتصقون بالمبادىء القديمة ليتقبلوا معتقدات جديدة ! انهم يغلقون عيونهم وعقولهم ولا عجب بعد ذلك أن يكون التطور بطيئا على الدوام ، وأن توجد مسافة واسعة من الخلف بين أحوال الناس الحقيقية وبين معتقداتهم ، الامر الذى يؤدى الى خلق هذه المواقف الثورية

هكذا بدت الديمقراطية للكثيرين ، مجرد اســـتئناف لمبادىء الثورة الفرنسية • وعجز هؤلاء الديمقراطيين عن مجاراة الظروف الجديدة هو الذى أدى الى ضعف الديمقراطية فى نهاية القرن التاسع عشر ، ثم الى كفر الكثيرين بهـــا خلال هذا القرن .. العشرين ..

وعندنا في الهند اليوم ، ما زلنا نجد كثيرين من الزعماء المتقدمين يرددون كلمات الثورة الفرنسية وحقوق الانسان، غير معترفين بكل ما حدث منذ ذلك التاريخ ..

وقد كان طبيعيا أن يحتكم الديمقراطيون الاوائل في كل شيء الى العقل ما داموا يدعون الى حرية الفكر والقول والتعبير ..

وفي هذا اتفقت الديمقراطية مع تقـدم العلم ، وبدأ الناس يتجاسرون على انتقاد الانجيل نفسه ، كأنه كتـاب كغيره من الكتب،لا يجب تقبله تقبلا أعمى دون تفكير . ووصل نقاد الانجيل الى نتيجة .. هي أن الانجيل عبارة عن مجموعة من الوثائق كتبها أفراد متعددون في عصور مختلفة ! .. وقالوا أيضا ، أن المسيح لم يكن يرمي الى ايجاد ديانة جديدة ! ..

وكانت الاسس الدينية القديمة قد تزعزعت تحت تأثير العلم ، فقد كان طبيعيا أن تبذل محـــاولات كثيرة لوضع فلسفة جديدة تحل محل الدين القديم . قام باحدى هذه المحاولات فليسوف فرنسي اسمه أوجست كونت عاش من سنة ١٧٩٨ الى سنة ١٨٥٧

كان كونت يعتقد أن المعتقدات الدينية القديمة قــد أصبحت شيئا عتيقا ولكنه كان يعتقد أيضا أنه لا بد من وجود عقيدة ما ، كضرورة اجتماعية ، فدعا الى « دين الانسانية » وأطلق عليه اسم « الموضوعية » وقال ان هذا الدين يقوم على الحب والنظام والتقدم ، وأنه ليس فيه شيء خارق لانه يقوم على أساس ارتقاء الجنس البشرى . ولم يصبح دين « كونت » عقيدة الا لعدد قليل من المثقفين فقط ، ولكن أفكاره بوجه عام كان لها تأثير عظيم في الفكر الاوروبي كله وقد كان في الواقع بدء علم الاجتماع الذى يهتم بالمجتمعات الانسانية والثقافية

وبعد « كونت » ظهر نصير اخر له هو «جون ستيوارت ميل » الفيلسوف والاقتصادى الانجليزى الذى عاش من سنة ١٨٠٦ الى ١٨٧٢ كان ميل متأثرا بتعـــاليم كونت وبآرائه الاجتماعية

وقد حاول أن يدفع المدرسة الانجليزية فى الاقتصـــاد السياسى نحو وجهة جديدة ، غير التى كانت تسير عليها منذ آدم سميث بادخال جانب من التفكير الاجتماعى على التفكير الاقتصادى • وقد اشتهر بأنه زعيم نظرية جديدة بدأت قبل ذلك بقليل فى انجلترا ووصلت الى ذروتها على يده وهى مدرسة تتوخى تحقيق « أكبر قسط من السعادة لاكبر عدد من الناس » كما يقول شعارها ، وكان هـــذا الشعار عندها هو الامتحان الحقيقى للتفرقة بين الخـطأ والصواب ، فالعمل يعتبر صوابا بقدر ما يحقق للنـــاس من سعادة ، ويعتبر خطأ بقدر ما يحرم الناس من السعادة ، والمجتمع والحكومة يجب أن يقوم كل منهما على هـــــذا الاساس ، أساس تحقيق أكبر قسط من السعادة لاكبر عدد من الناس ••

وهذه الفكرة ليست هى الفكرة الديمقراطيـــة الاولى بالضبط التى كانت تدعو الى حقوق متساوية لجميع الافراد فتحقيق أكبر قسط من السعادة لاكبر عدد من الناس قد يعنى التضحية أو الشقاء لعدد أقل من الناس • وأنا أشير الى هذا الفارق فحسب ، دون أن أفكر فى مناقشـــته فالديمقراطية على أية حال تعنى حق الاغلبية

وكان جون ستيوارت ميل مدافعا قويا عن الفـــكرة الديمقراطية فيما يتعلق بالحرية الفردية • وقد وضع كتابا صغيرا أسماه « فى الحرية » لم يلبث أن ذاعت شـــهرته سأقتطف لك منه فقرة عن حرية القول والرأى ••

« أن أسوأ ما فى كبت الرأى هو أنه يعد سرقة للجنس

البشرى فما زال الخير الناتج عن الفكر أكثر بكثير من الشر والرأى الممنوع اذا كان صوابا ، فقد أضعنا فرصة استبدال هذا الصواب بالخطأ القائم • واذا كان خاطئا فقدنا ما هو أهم ، الا وهو : الاقتناع بالصواب الذى نحن فيه بمقارنته بالخطأ • انه لا يمكن أبدا الجزم بأن الفكر الممنـــــــوع خطأ •• ولو جزمنا بذلك ، فان منعه يعد شرا ، بالرغم من ذلك ! »

أنه كما ترين ليس تفكير رجل مؤمن ، ولكنه تفكير رجل فيلسوف ، باحث عن الحقيقة ! ••

وبعد •• لقد ذكرت لك عددا قليلا من أسماء المفكرين الكبار الذين ظهروا فى غرب أوروبا فى القرن التاسع عشر ، لاظهرك على الافكار التى كانت ســـــائدة فى ذلك الوقت ، ولتكون لك بمثابة علامات الطريق ، فى عـــالم التفكير • ولكن هذه الافكار لم تتعد أول الامر الطبقات المثقفة. ثم تسربت بعد ذلك عن طريق المثقفين الى الاخرين. وبالرغم من أن تأثير هذه الافكار المباشر على الجماهير كان ضعيفا ، الا أن اثارها غير المبـــاشرة كانت هائلة بل ان تأثيرها المباشر فى بعض الحالات كان عظيما ، اذ أدت الى تعميم حق الانتخاب ••

ولما تقدمت السن بالقرن التاسع عشر ، ظهرت حركات وآراء جديدة ، ظهرت حركة الطبقة العاملة ، والاشتراكية. وقد اثرت هذه الحركات والنظريات الجديدة على التفكير الديمقراطى السائد كما تأثرت به • ومن الناس من ينظرون الى الاشتراكية كبديل للديمقراطية ومنهم من يعتبرها جزءا ضروريا متمما لها • وقد رأينا ــ كيف كان الديمقراطيون ممتلئين ايمانا بالحرية والمســـاواة ، وحق كل فرد فى السعادة ••

ولكنهم سرعان ما أدركوا أن السعادة لا تتحقق بمجرد

اعتبارها حقا للجميع . فبعد كل شيء ، كان لا بد من قسط مناسب من الحياة المادية . والانسان الجائع لا يمكن أن يكون سعيدا .. مما دفعهم الى التفكير فى أن السعادة تتوقف على وجود توزيع أعدل للثروات بين الناس ، وهذا أدى بهم الى الاشتراكية ، وهى نظرية يجب أن تنتظر رسالة تالية :

وفى النصف الاول من القرن الثامن عشر ، تحالفت الديمقراطية والوطنية فى كل مكان قام فيه الصراع من أجل الحرية . ومازينى الايطالى مثل دقيق لهذا النوع من الوطنيين الديمقراطيين . وحين تقدم هذا القرن فقدت الوطنية هذه الصفة الديمقراطية ، وأصبحت أكثرعدوانا وتسلطا . وأصبحت الدولة هى الاله الذى يجب أن يعبده كل مواطن ..

ولقد قاد رجال الاعمال الانجليز الصناعة الحديثة دون أن يكونوا معجبين اطلاقا بالمبادىء الديمقراطية العالية أو حق الناس فى الحرية . ولكنهم اكتشفوا أن اعطاء الناس مزيدا من الحرية يعود بالخير على مصالحهم ، فهى ترفع مستوى العمال وتعطيهم الاحساس بالاستقلال ، وتجعلهم أكثر صلاحية لعملهم الدقيق . كذلك انتشر التعليم الشعبى للحصول على مزيد من الكفاية الصناعية ..

ولما أدرك رجال الاعمال الانجليز هذه الحقيقة وافقوا على منح الناس هذه الحقوق !



ظهور الاشتراكية ..

١٣ فبراير سنة ١٩٣٣

حدثتك فى الرسالة السابقة عن تقدم الديمقراطية ، ومرة أخرى ، أحب أن أذكرك ، فى هذه الرسالة بأنه كان تقدما شاقا كافح الديمقراطيون من أجله كثيرا ، فالذين لهم مصلحة فى نظام قائم يرفضون أى تغيير له ، بل ويقاومونه بكل ما يسعهم من القوة . وكل تقدم أو تحسن معناه أن على النظام القائم ، أو الحكومة القائمة ، أن تخلى مكانها لما هو أحسن . والذين يريدون تقدما من هذا النوع لابد لهم من مهاجمة النظم القديمة والعادات الموروثة ..

وهكذا يؤدى بهم الطريق الى الانكار المستمر للظروف السائدة والى الصراع المرير مع أولئك الذين يستفيدون من بقاء تلك الظروف

ولقد قاومت الطبقات الحاكمة فى أوروبا التقدم خطوة خطوة ، فى انجلترا مثلا ، لم تسلم الطبقات الحاكمة بالمطالب السابقة الا حين أدركت أن مقاومتها لن تؤدى الا الى ثورة عنيفة

واذكرك بشىء آخر : ان هذه المبادىء الديمقراطية كانت

خلال النصف الاول من القرن التاسع عشر قاصرة تقريبا على المثقفين . اما عامة الناس فقد تأثرت حيـــاتهم تأثرا شديدا بنمو حركة التصنيع ، اذ هجروا الارض متجهين الى المصانع .. وبدأت طبقة من العمال الصناعيين تنمو فى مدن صناعية كريهة وغير صحية ، كانت تنشأ عـــلى الاغلب بجوار مناجم الفحم . وقد أخذ هؤلاء العمـــال يتغيرون بسرعة ، وتتكون لهم عقلية جديدة ، حتى أصبحوا شيئا مختلفا تماما عن الفلاحين والصناع اليدويين ، الذين احتشدوا فى المصانع تحت وطأة الجـــوع . وكما كانت انجلترا أسبق الدول فى اقامة المصانع ، فقد كانت اسبقها فى نمو هذه الطبقة من العمال الصناعيين

وكانت الاحوال فى المصانع مرعبة ، وبيوت العمـــال او جحورهم رديئة جدا . كان البؤس ضاربا أطنـــابه بينهم . والاطفال الصغار والنساء يضطرون الى العمل ساعات طويلة بلا شفقة . ومع ذلك فقد كانت كل المحاولات التى تبذل لتحسين حالة هذه المصانع والبيوت عن طريق التشريع ، تقاوم بشدة من أصحاب المصانع ، وكانوا يقولون ان مثل هذه التشريعات تعتبر اعتداء مخجلا على حقوق الملكية ! حتى محاولة ادخال الشروط الصحية فى البيوت التى يسكنها العمال ، كان اصحاب المصانع والبيـــوت يقاومونها على هذا الاساس ذاته !..

كان العمال الانجليز التعساء يموتون موتا بطيئـــا من الجوع وارهاق العمل ، وبعد الحروب النابليونية كـــانت انجلترا نفسها مرهقة ، واقتصادها محطما والعمـــال يقاسون اكثر من سواهم . وفكر العمال فى انشاء هيئـــات تدافع عنهم وتكافح من اجل تحسين حالتهم . وفى الزمن القديم كانت هناك هيئات للصناع والعمال المهـــرة ، ولكنها كانت شيئا يختلف عن هذه المنظمات الجديدة تمام

الاختلاف . ومع ذلك فربما كانت ذكرى هذه الهيئات القديمة هي التي اوحت الى عمال المصانع فكرة تكوين منظمات منهم . ولكنهم منعوا من ذلك. فقد كانت الطبقات الانجليزية الحاكمة ترتعد من الثورة الفرنسية ، حتى انها سنت قوانين تحرم على العمال حتى مجرد الاجتماع لمناقشة الامهم الرهيبة

كان القانون والنظام فى انجلترا . . كما هو الان فى الهند هو السبب الوجيه الذى يبديه أولئك القابضون على السلطان للاحتفاظ بسلطانهم ، وبأرواحهم !

ولكن القوانين التي تمنع العمال من الاجتماع والمناقشة لم تحسن أحوالهم . كل ماصنعته أنها اسخطتهم ، ودفعتهم الى اليأس ، فأسسوا جمعيات سرية !

كانوا يقسمون فى تلك الجمعيات السرية على الكتمان والاجتماع فى جوف الليل ، فى أماكن غير مطروقة . فاذا خانهم أحد أو ضبطوا مجتمعين تعرضوا لمحاكمات تتهمهم بالخيانة وتوقع عليهم عقوبات رهيبة . وكثيرا ما أحرقوا الآلات من فرط غيظهم ، أو أحرقوا المصانع بل وقتلوا بعض رؤسائهم . واخيرا فى سنة ١٨٢٥ ضعفت القيود الموضوعة على اجتماعاتهم ، وبدأت نقابات العمال تتكون . .

وقد تكونت أولا من العمال المهرة الذين يأخذون أجورا كبيرة نسبيا . .

ولكن الاغلبية الساحقة من العمال العاديين ظلت زمنا طويلا دون أى تنظيم . ثم بدأوا بدورهم فى تكوين نقابات تسعى لتحسين أحوالهم عن طريق الاتفاقات الجماعية أى أن يتفق صاحب المصنع مع النقابة على شروط العمل بدلا من أن يتفق مع العمال فردا فردا . .

وعلى هذا النحو مضى صراع الطبقة العاملة. تضحيات

هائلة من جانب العمال تُظير مكاسب بطيئة من حين الى آخر . كانوا محرومين من حق الانتخاب ، فلم يكن لهم اى تأثير على البرلمان . بل ان قانون الاصلاح الذى صدر سنة ١٨٣٢ ، بعد معارضة عنيفة ، لم يعط حق الانتخاب الا لافراد الطبقة المتوسطة من المتيسرين اى أنه لم يحرم العمال فقط من حق الانتخابات ، بل والطبقة المتوسطة الفقيرة ايضا

وفى هذه الاثناء ظهر من بين أصحاب المصانع فى مانشستر رجل انسانى النزعة ، كانت أحوال العمال التعيسة تؤلم ضميره هذا الرجل هو « روبرت أوين »

وقد أدخل اصلاحات كثيرة فى المصانع التى يملكها ، وعمد الى تحسين أحوال عماله ، وقاد حملة بين أصحاب المصانع محاولا أن يقنعهم بالمناقشة بأن يعملوا على تحسين أحوال العمل وبفضل جهوده هذه وافق البرلمان البريطانى على أول قانون يحمى العمال من جشع اصحاب الاعمال ذلك هو قانون المصانع لسنة ١٨١٩ الذى قضى بأن لا يعمل الاطفال الذين تقل اعمارهم عن تسعة أعوام ، أكثر من ١٢ ساعة فى اليوم الواحد ! ولعل هذا الشرط نفسه ، كاف ليعطيك فكرة بسيطة عن الظروف الرهيبة التى كان هؤلاء العمال يخضعون لها

وروبرت أوين هو الذى يقال عنه انه كان أول من استعمل كلمة « اشتراكية » فى سنة ١٨٣٠

وانت تعلمين أن فكرة المساواة بين الاغنياء والفقراء ، أو توزيع الثروة توزيعا عادلا على أى نحو ، ليست فكرة جديدة . لقد دعا اليها منذ قديم كثير من الناس ، وقد عرفت المجتمعات الاولى نوعا من الشيوعية . كانت القبيلة او القرية كلها تملك الارض وسائر الاشياء ملكية مشاعة ، وهذه هى التى يطلق عليها اسم الشيوعية البدائية . وقد

عرفتها كثيرا من البلاد القديمة ، ومن بينها الهند . ولكن الاشتراكية الحديثة شيء آخر غير مجرد الرغبة في التسوية بين الافراد . هي فكرة أكثر تحديدا ظهرت أولا كي تطبق على نظام الانتاج الصناعي الحديث ، فهي اذا وليدة الثورة الصناعية . وقد كانت فكرة « أوين » ترمي الى تكوين جمعيات تعاونية للعمال ، والى ان يكون للعامل نصيب في المصنع الذي يعمل فيه . وقد انشأ بالفعل بضعة مصانع ومؤسسات نموذجية على هذا النمط في انجلترا وامريكا ، ولكنه فشل في اقناع زملائه اصحاب الاعمال اوالحكومة بهذه الاراء . على أن تأثيره على عصره كان قويا ، وقد خلق كلمة « الاشتراكية » التي ظلت منذ ذلك الحين معنى يخلب لب الملايين ..

وفي أثناء ذلك كله ، كانت الصناعات الرأسمالية تنمو بغير انقطاع .. وكلما تزايد نجاحها تفاقمت مشكلة الطبقة العاملة . فقد أدت الرأسمالية الى المزيد من الانتاج، مما أدى الى تزايد عدد السكان بسرعة كبيرة ، اذ أصبحت زيادة الانتاج تسمح باطعام عدد أكبر من الناس . كانت الصناعات الكبرى تنمو في تكامل معقد بين فروعها المختلفة، بينما كانت الصناعات الصغيرة تموت تحت وطأة المنافسة. كان الثراء يتدفق على انجلترا ، ولكن معظمه كان يتجه الى اقامة مصانع جديدة ، أو مد خطوط للسكك الحديدية أو ما الى ذلك من المرافق . والعمال يحاولون تحسين أحوالهم عن طريق الاضرابات التي كانت تفشل فشلا ذريعا

كان نجاح الرأسمالية يبهر الناس جميعا ، عدا قلة من ذوي النظر البعيد أو الافكار المتقدمة ، او النزعات الانسانية ، كان هؤلاء يكرهون ما فيها من منافسة قاتلة ، ويكرهون الشقاء الذي تسببه للعمال بالرغم من أن ثروة البلد تزداد

واخذ هذا الفريق من الناس فى انجلترا وفرنسا والمانيا يقترحون حلولا مختلفة للموقف . وظهرت هذه الحلول والمقترحات تحت أسماء مختلفة مثل « الأشتراكية » أو « الجماعية » أو « الديمقراطية الاجتماعية » وكلها اسماء مجردة تعبر عن نفس المعنى تقريبا ..

كان هناك اتفاق عام بين دعاة الاصلاح هؤلاء على ان موطن الداء يكمن فى نظام الملكية الخاصة المسيطرة على الصناعة . وان الدولة اذا استطاعت أن تملك وان تدير هذه الصناعات ـ ولو وسائل الانتاج الرئيسية فقط ، مثل الارض والصناعات الهامة ـ اذا لما عاد هناك خوف على العمال من الاستغلال

هكذا كان الناس يفكرون تفكيرا عائما لتغيير النظام الراسمالى . ولكن النظام الراسمالى لم يكن مستعدا للتقهقر بل كان على العكس من ذلك يزداد قوة

وقد ظهرت هذه الافكار الاشتراكية اولا بواسطة المثقفين ، وواحد من أصحاب العمل هو روبرت أوين . أما نقابات العمال فقد كانت تسير فى طريق مختلف ، لم تكن تطلب شيئا أكثر من رفع الاجور وتحسين الاحوال المعيشية بوجه عام . ولكنها لم تلبث ان تأثرت بهذه الافكار ، ثم أثرت بدورها تأثيرا كبيرا على تطور الفكرة الاشتراكية ذاتها . وقد نمت الاشتراكية بطريقة مختلفة فى كل بلد من البلاد الصناعية الثلاث الاولى فى أوربا وهى انجلترا وفرنسا والمانيا ، تبعا لطبيعة الطبقة العاملة فى كل بلد وقوتها . كانت الاشتراكية الانجليزية مثلا « محافظة » تؤمن بالتطورالتدريجى البطىء ، فى حين كانت الاشتراكية فى القارة الاوروبية اكثر تطرفا وثورية . أما فى امريكا فقد كانت الاحوال مختلفة تماما ، فالبلاد هناك شاسعة والطلب على العمال كبير ، فلم تظهر أى حركة

عمالية قوية لزمن طويل ..
ومنذ منتصف ذلك القرن ، ظلت الصناعة الانجليزية تسيطر على العالم مدى جيل كامل ، وكانت الثروة تتدفق على انجلترا من أرباح صناعتها ومن أستغلالها لبلاد أخرى كالهند . وكانت هذه الثروة المتدفقة من الوفرة بحيث ذهب جانب منها الى العمال .فارتفع مستوى معيشتهم الى حد لم يعرفوه أبدا من قبل وعلى ذلك فسرعان ما اختفت الروح الثورية القديمة التى كانت تملأ العمال الانجليز واصبحت الاشتراكية الانجليزية اكثر انواع الاشتراكية اعتدالا . واطلق عليها اسم « الفابيانية » ، نسبة الى قائد رومانى قديم اسمه « فابيوس » كان يرفض الاشتباك مع العدو فى معركة حاسمة ، مفضلا أن يتغلب عليه شيئا فشيئا

وفى سنة ١٨٦٧ حصل بعض عمال المدن على حق الانتخاب . اما نقابات العمال فقد كانت ناجحة ، تعامل معاملة حسنة ، حتى ان العمال كانوا يعطون اصواتهم فى الانتخابات البرلمانية لحزب الاحرار ..

وبينما كانت انجلترا مشغولة بنجاحها ظهرت فى القارة الاوروبية دعوة جديدة قوبلت بترحيب حار . تلك هى: الفوضوية . إنها كلمة تبعث الرعب فى نفوس الذين لا يعرفون عنها شيئا . ومعناها ايجاد مجتمع يستغنى الى أقصى حد عن الحكومة المركزية ، ويستمتع أفراده بقسط كبير من الحرية الفردية ، بحيث لا يكون هناك «أى ضغط أو ارغام من ناحية الدولة » ، فالحكومة تبلغ أعظم درجة من النجاح حيث لا تحكم ابدا ! وحين يصبح الناس مستعدين لمثل هذه الحكومة ، فسوف نكون لهم !! هكذا قال الامريكى « ثورو »

لاشك أن هذا يبدو رائعا ! حرية كاملة لكل فرد ، كل

واحد يحترم الاخر ، لا أنانية قط ، بل رغبة خالصة فى التعاون ! ولكن عالمنا الحاضر بكل ما فيه من انانية وعنف، يبدو بعيداً عن هذه الفكرة تماما . ولا شك أن دعـــوة الفوضويين الى عدم وجود حكومة مركزية قط ، أو وجود حكومة فى أضيق نطاق فقط ، لاشك ان هذه الدعوة كانت بمثابة رد فعل للاوتوقراطية والسلطة المطلقة التى كـانت طابع الحكومات ، والتى قاسى الناس منها كثيرا . فقــد طالما اضطهدت الحكومة الناس وأرهقتهم وطاردتهم ، حتى فكروا فى نوع من الحياة بلا حكومات !

ورأى الفوضويون ايضا ان الدولة فى ظل النظـــــام الاشتراكى سوف تكون مسيطرة على كل وسائل الانتاج مما يجعلها مستبدة مطلقة ..

فالفوضويون اذا نوع من الاشتراكيين . يعلقون اهمية بالغة على الحرية الفردية والمحلية . وقد كان هناك مــن الاشتراكيين أنفسهم من كانوا مستعدين للتســـليم بالفوضوية كهدف بعيد لمبدئهم ، يجب أن يسبقه وجود حكومة مركزية اشتراكية قوية

وهكذا نجد أن بين الاشتراكية والفوضوية فروقا هائلة من ناحية ، كما ان بينهما بعض ظلال من الشبه فى ناحية اخرى ...

وقد أوجدت الصناعة الحديثة فرصة ملائمة لتــكوين طبقة منظمة تنظيما محكما ، فكانت النتيجة ان عجــزت الأفكار الفوضوية عن الانشار فى البلاد الصناعية حيث كانت تنمو النقابات وغيرها من التنظيمات . فلم يظهر فى انجلترا ولا فى المانيا عدد يذكر من الفوضويين . ولـــكن الفوضوية وجدت أرضا خصـــبة بعض الشىء فى شرق أوروبا وجنوبها حيث كانت الحياة الصناعية متخلفة .. وقد اصبح هذا المذهب الان ميتا تماما ، ماعدا فى بلــد

واحد مازال متأخرا وهو اسبانيا ..

ان الفوضوية قد تبدو مبدأ فاتنا له سحره الخاص ، ولكنه كما يعطى الفرصة للناس الساخطين العصبيين ، فانه يعطى الفرصــــة للافراد الذين يبحثون عن الــربح الشخصي وراء ستار المبادىء ، كذلك فهى فكرة تقود الى نوع من العنف ، اقترن بعد ذلك باسمها فى كل اذن ، حتى أصبح أسمها يبعث على الرعب

ولما عجز الفوضويون عن انشاء مجتمع على الطراز الذى رسموه ، بدأ بعضهم يدعو لمبدئه بطريقة جديدة ، هى طريقة العمل .. اى طريقة ضرب المثل للناس عن طريق الشجاعة الخارقة ، والاعمال الباسلة فى مقــــاومة الطغيان ولـــو بالتضحية بالنفس ..

وبهذا الاسلوب انفجرت بعض الثـــورات فى أمـــاكن متفرقة . ثورات لم يكن أصحابها يرجون لها أى نجاح ، ولكنهم بالرغم من ذلك خاطروا بحياتهم فى ســـــبيل القيام بهذا النوع الجديد من الدعاية لمبدئهم !.. وقـــد فشلت هذه الثورات بالطبع .. واتجه الفوضـــويون بعدها الى أعمال الارهاب .. كالقاء القنابل واغتيـــال الملوك وكبار الرسميين . ولا شك أن هذا الصنف الاحمق كان دليلا على تزايد ضعفهم وبأسهم . فلم تأت نهاية القرن التاسع عشر حتى كانت الفوضوية كحركة قـــــد انتهت . وتبرأ زعماء الفوضوية من كل اعمال الارهـــاب والدعاية العملية التى ارتكبها أنصارهم !..

ولعله يهمك الان أن اذكر لك اسماء بعض الفوضويين المشهورين . وقد تدهشين اذا عرفت أن هؤلاء الزعمـــاء الفوضويين كانوا فى حياتهم الخاصـــــة مثالا للرقـــــة والاخلاص ، والتمسك بالمثل العليا ..

كان أول القادة الفوضويين فرنسى ، أســـــمه « بين

برودويه » عاش من سنة ١٨٠٩ الى سـنة ١٨٦٥ ، واصغر منه بقليل ، كان رجل أخر ، روسى نبيل أسمه « ميشيل باكونين » وكان قائدا محبوبا لجماهير العمال فى جنوب أوروبا . .

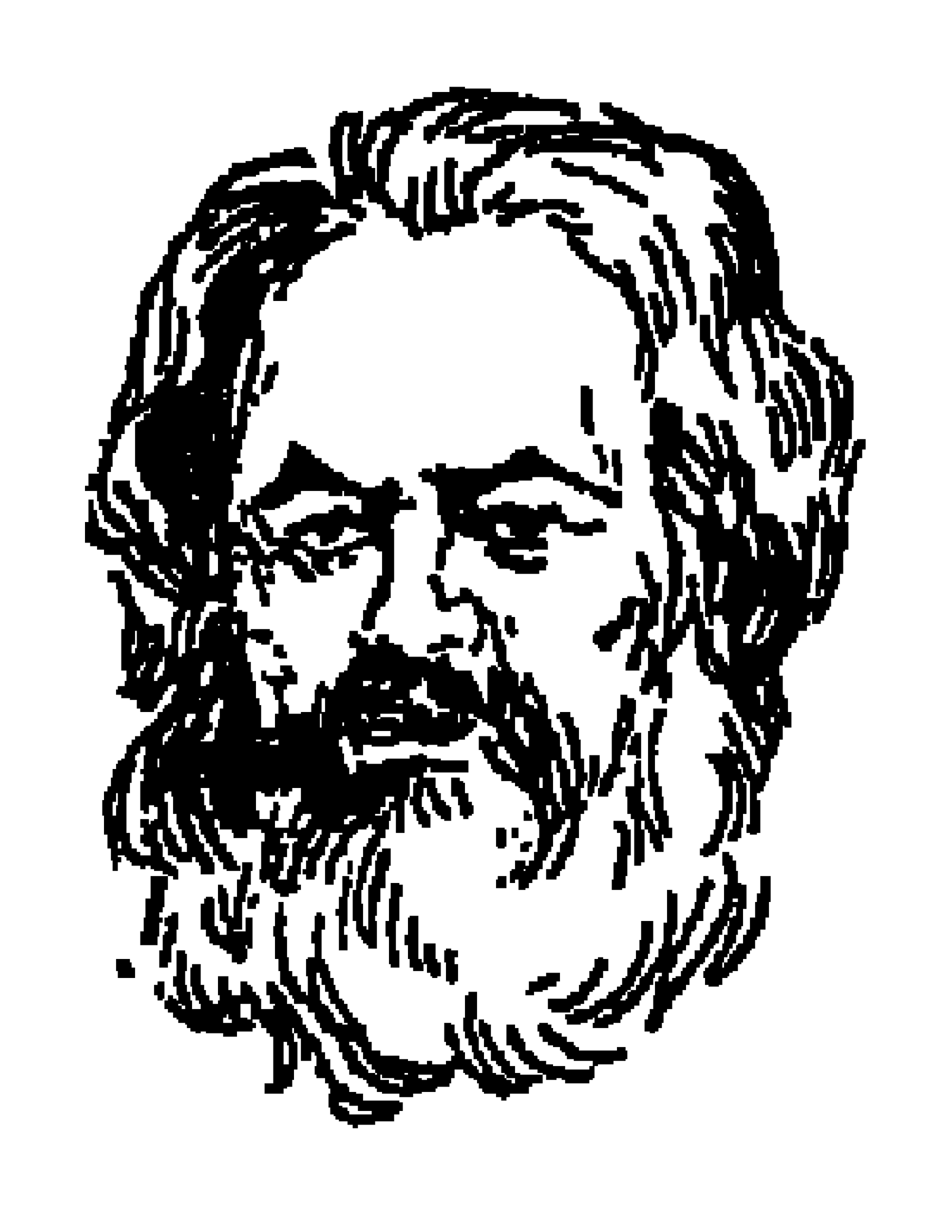
وقد أختلف باكونين مع ماركس . فأخرجه هـذا هو وأنصاره من الاتحاد الدولى . والاسم الثالث لرجل عاصرناه هو الامير الروسى بيترو كروباتكين . وقد ألف مجموعة من الكتب الممتعة عن الفوضـوية وغيرها من الموضوعات . والاسم الرابع والأخير لايطالى كهل ، ذلك هو انريكو مالاتستا ، اخر الفوضويين العظام الذين عرفهم القرن التاسع عشر . .

ومن النوادر التى تروى عن « مالاتسـتا » انه حوكم مرة أمام احدى المحاكم فى ايطاليا . ووقف المدعى العام فى المحاكمة يقول ان مالاتسـتا له تأثير هائل على العمـال فى المنطقة التى يعمل فيهـا ، حتى أنه غير شخصياتهم تماما . . وانه استطاع أن يضع حدا للاجرام ، حتى اصبحت الجرائم فى هذه المنطقة نادرة جدا !

وأستطرد المدعى العام قائلا : « واذا توقف الاجـرام تماما ، فماذا تصنع المحاكم ؟! من أجل ذلك فقط يجب أن يذهب مالاتستا الى السجن ! »

وفعلا حكم عليه بالحبس ستة شهور !..

انه لمن سوء حظ الفوضوية انهـا أقترنت بالعنف حتى نسى النـاس انها فلسفة وأنها مبدأ اعتنقه عدد من عظماء الرجال الممتازين !. أنها ـ كمبـدأ ـ ما تزال بعيدة جدا عن عالمنا الراهن ، بعيوبه التى نعرفها ، وان حضارتنا الحديثة لاكثر تعقيدا من أن يعالجها هـذا المبدأ بمستحضراته البسيطة . .



كارل ماركس ..

١٤ فبراير سنة ١٩٣٣

فى منتصف القرن التاسع عشر ايضا ، ظهرت فى أوروبا وفى عالم العمل والاشتراكية ، شخصية خطيرة .. ذلك هو كارل ماركس . وهو يهودى المانى ، ولد سنة ١٨١٨ ، ودرس القانون ، والتاريخ والفلسفة. ثم اصطدم بالسلطات الالمانية بسبب مجلة أصدرها ، فسافر الى باريس ، حيث اتصل بناس جدد وقرأ كتبا جديدة فى الاشتراكية والفوضوية ، حتى دان بالفكرة الاشتراكية وامن بها ايمانا عميقا ، وفى باريس التقى بالمانى اخر ، اسمه فريدريك انجاز ، استوطن فى انجلترا ، واصبح من أصحاب المصانع الاثرياء فى صناعة القطن النامية ، وكان انجلز بدوره يستشعر التعاسة والالم من الظروف الاجتماعية التى رآها حوله ، وكان عقله يبحث جاهدا للعثور على حل لما يراه من فقر واستغلال . وقد اجتذبته فى أول الامر آراء روبرت أوين ومحاولاته للاصلاح ، واصبح من أتباعه . على أن

زيارته لباريس ، التى قادته الى التعرف بكارل ماركس غيرته أيضا . وأصبح ماركس وانجلز صديقين حميمين وزميلين لا يفترقان ، يحملان نفس الاراء ، ويعمـــلان قلبا وقالبا من أجل غرض واحد . وكانا فى عمر متقارب .. وقــد بلغ من تفاهمهما وتقاربهما أن أكثر ما انتجــاه من الكتب اشتركا فى كتابتها سويا ..

على أن الحكومة الفرنسية القائمة فى ذلك الوقت ــ حكومة لويس فيليب ــ طــــردت ماركس من باريس . فذهب الى لندن . حيث عاش سنوات كثيرة ، غارقا بين الكتب المكدسة فى المتحف البريطانى . كان يعمـل عمـلا متواصلا فى صقل نظرياته والكتابة عنها . ومع ذلك فانه لم يكن قط فيلســوفا غارقا فى نظرياته منقطع الصــلة بالمسائل العامة . فبينما كان يعمل فى تطوير وتوضـــيح المبادىء العائمة التى كانت توجه الحركة الاشتراكيـــة ، ويضع اهدافا محددة قاطعــة لها ، كان يقـــوم بدور قيــادى هام فى تنظيمات الحركة والعمال . وكان طبيعيا أن تهزه حوادث عام ١٨٤٨ ، عام الثورات فى أوروبا ، وان تحركه الى حد بعيد

ففى تلك السنة بالذات اصدر مع أنجلز البيــان الذى أصبح بعد ذلك من أشهر البيانات .. ذلك هو « البيان الشيوعى » ، الذى ناقشا فيه افكار الثــورة الفرنسية الكبرى ، كما ناقشا الثورات الاخرى التالية لهـــــا التى نشبت سنة ١٨٣٠وسنة ١٨٤٨ ، واظهرا كيف أنهما كانتا مخالفتين وغير متلائمتين مع الظروف الحقيقيـــة فى ذلك الوقت . وانتقد الصيحات الديمقراطيـــة التى تصاعدت تنادى بالحرية والاخاء والمساواة ، وأكــــد أن هذه الكلمات لا تعنى الناس كثيرا ، وأنها انما تصــــلح رداء طيبا للدولة البورجوازية ، وباختصار ، شرحـــــا

نظريتهما الخاصة بالاشتراكية ، وختما بيانهما بنداء شهير الى جميع العالم « يا عمال العالم ، اتحدوا انكم لن تخسروا شيئا الا قيودكم ، وأمامكم عالم بأسره كي تكسبوه ! »

كان هذا البيان دعوة الى العمل . وقد أعقبه ماركس بدعاية نشيطة فى الصحف والكتب وبمحاولات متصلة للربط بين تنظيمات العمال المختلفة .

ويبدو أنه شعر بأن أوروبا على وشك أزمة خطيرة ، فأراد ان يكون العمال مستعدين لها ، متهيئين للاستفادة منها الى اقصى حد . وطبقا لنظريته الاشتراكية ، كان لابد ان تقع الازمة فى ظل النظام الراسمالى . .

وكتب سنة ١٨٥٤ فى جريدة تصدر فى نيويورك : «نعم، أن فى اوروبا الان قوة سادسة تفرض سيطرتها فى بعض الظروف على القوى الخمس الاخرى الكبيرة وتجعلها ترتجف . تلك القوة السادسة هى الثورة . انها بعد أن رقدت طويلا نراها الآن تتجمع فى أرض المعركة بفعل الازمة والمجاعة . أشارة واحدة فقط ، وسوف تتقدم بعدها تلك القوة السادسة والعظمى فى اوروبا لامعة الدروع ، سيفها فى يدها ، مثل مينرفا عندما هبطت جبل الاوليمب ، وستكون الحرب الاوروبية القادمة ، هى الاشارة الموعودة . .

على أن نبوءة ماركس عن الثورة الوشيكة الوقوع فى أوروبا لم تتحقق . فقد مرت ستون عاما بعد كتابة هذا الكلام ، وقامت حرب عالمية ، قبل ان تقوم تلك الثورة ، وفى جزء واحد من أوروبا فحسب . أما المحاولة التى حدثت فى باريس ، سنة ١٨٧١ ، فقد أخمدت بقسوة بالغة . .

وفى سنة ١٨٦٤ نجح ماركس فى عقد مؤتمر مشترك فى لندن .. فقد كانت هناك جماعات كثيرة اشتراكية .. وكان هناك الديمقراطيون الوطنيون الذين أتوا من بلاد اوروبية خاضعة للحكم الاجنبى ، والذين كان اهتمامهم بالاشتراكية ضئيلا ، اذ كانوا أكثر اهتماما بتحقيق الاستقلال الوطنى

ومن ناحية أخرى كان هناك الفوضويون الذين يكافحون من أجل معركة سريعة وحاسمة . والى جانب ماركس ، كانت الشخصية الاخرى القوية هى شخصية باكونين ، زعيم الفوضويين ، الذى فر من سيبريا قبل ثلاث سنوات ، بعد أعوام طويلة من النفى والسجن . وكان انصار باكونين يتركزون على الاغلب فى جنوب اوروبا ، فى الدول اللاتينية مثل ايطاليا واسبانيا ، التى كانت متخلفة صناعيا . وكانوا يتكونون من المثقفين العاطلين والعناصر الثورية الفردية التى لم تجد لنفسها مكانا فى النظام الاجتماعى القائم

أما أنصار ماركس فكانوا من البلاد المتقدمة صناعيا ، وخصوصا المانيا ، حيث كانت احوال العمال أحسن قليلا . وعلى ذلك كان ماركس يمثل طبقة العمال النامية المنظمة المستعدة للعمل الايجابى ، وكان باكونين يمثل العمال الاكثر فقرا واقل تنظيما ، والمثقفين والساخطين

ودعا ماركس الى تنظيم العمال وتعليمهم فى صبر ، طبقا لنظرياته الاشتراكية ، حتى تجىء الساعة الموعودة ، والتى كان يعتقد انها قريبة . بينما دعا باكونين الى العمل فورا . وقد انتصر ماركس على طول الخط .. وتأسست « المنظمة الدولية للعمال » ، أول منظمة دولية للعمال ..

وبعد ثلاث سنوات اى فى سنة ١٨٦٧ ، صدر كتاب ماركس الضخم « رأس المال » باللغة الالمانية ..

كان هذا الكتاب ثمرة كدحه الطويل فى لندن .. وقد تناول فيه بالنقد النظريات الاقتصادية المعاصرة .. وشرح نظريته الخاصة شرحا مسهبا . كان هذا الكتاب عملا علميا محضا . حلل فيه التاريخ والاقتصاد تحليلا علميا خالصا بعيدا عن أى شائبة من شوائب العاطفة ، ومتجنبا كل اوهام المثالية . وقد ناقش فيه بنوع خاص نمو الحضارة الصناعية والآلة الكبيرة ، ووصل الى نتائج هامة فى التطور والتاريخ ، والصراع بين الطبقات فى المجتمع الانسانى ..

ومن أجل ذلك اطلق على اشتراكية كارل ماركس اسم « الاشتراكية العلمية » تمييزا لها عن الاشتراكية المثالية التى كانت منتشرة قبل صدور هذا الكتاب ..

وكتاب « رأس المال » هذا ليس من الكتب التى تسهل قراءتها ، بل انه أبعد ما يكون عن القراءة السهلة . ولكنه بالرغم من ذلك من الكتب القليلة التى اثرت فى طريقة تفكير اكبر عدد من الناس ، وبدلت معتقداتهم ، واثرت تبعا لذلك فى مجرى التاريخ الانسانى كله ..

وفى سنة ١٨٧١ وقعت مأساة « الكومون » فى باريس ، التى سبق ان أشرت اليها ، والتى كانت فيما أعتقد أول ثورة اشتراكية هامة . وقد ادت هذه المأساة الى ازدياد الفزع بين الحكومات الاوروبية ، وبالتالى الى ازدياد قسوتها فى معاملة حركات العمال ..

وفى العام التالى ، انعقدت منظمة العمال الدولية مرة اخرى ، ونجح ماركس فى نقل مقر قيادتها الى نيويورك . ويبدو أن السبب فى ذلك كان رغبة ماركس فى ابعاد انصار باكونين الفوضويين عنها ، وربما لأنه وجد أنها هناك سوف تكون آمن مما لو بقيت تحت سطوة الحكومات الاوروبية التى كانت متحفزة للبطش بها منذ مأساة

« كومون باريس » الا أنه كان مستحيلا أن تعيش القيادة على هذا البعد من مركز نشاطها فى أوروبا ، وفى الوقت الذي كانت الحركة العمالية في أوروبا تمر بأيام عصيبة . وهكذا تلاشت « الدوليةالاولى » تدريجيا

وقد انتشرت الماركسية انتشارا عظيما بين الاشتراكيين الاوروبيين خصوصا فى المانياوالنمسا،حيث كانت تنتشر « الاشتراكية الديمقراطية » . اما انجلترا فلم تتقبلها بنفس الحماس . كانت انجلترا فى ذلك الوقت من النجاح والثراء بحيث يصعب ان تنجح فيها أى دعوة متطرفة . كانت الاشتراكية الانجليزية تتمثل فى « الجمعية الفابية » ذات البرنامج المعقول للاصلاح البطىء . ولم يكن الفابيون على صلة ما بالعمال ، بل كانوا طائفة من المثقفين التقدميين الاحرار . وكان برناردشو أحد الرواد الاوائل فى هذه الجمعية . .

أما خطة هذه الجمعية فيمكن ان نلخصها فى كلمة أحد زعمائها ، سيدنى ويب : « حتمية التدريج » . .

اما فى فرنســـــا ، فقد مرت على محاولة الكومون ١٢ سنة قبل أن تصبح الاشتراكية فيها قوة فعالة مرةاخرى ولكنها اتخذت فى هذه المرة شكلا جديدا ، بين الفوضوية والاشتراكية ، واطلق عليها اسم « النقابية » : فالنظرية الاشتراكية تقول ان الدولة بوصفها ممثلة للمجتمع كله ، يجب ان تملك وان تدير وسائل الانتاج جميعا ـ اىالارض والمصانع وما اليها . وكان الخلاف منحصرا فى مدى تأميم وسائل الانتاج . اذ ان هناك وسائل انتاج شخصية مثـــل الآلات اليدوية وما اليها ، من الحمـاقة طبعا التفكير فى تأميمها . على أن الاشتراكيين كانوا متفقين على تأميم أى شىء يمكن أن ينتج ربما فرديا عن طــــريق اســـــتغلال الاخرين . .

اما « النقابيون » فقد كانوا ، كالفوضويين ، لا يحبون

« الدولة » ويحاولون الحد من سلطتها . كانوا يقولون أن كل صناعة يجب ان يديرها العمال المشتغلون فيها ، عن طريق نقابتهم . على أن تنتخب النقابات المختلفة ممثلين لها فى مجلس عام ينظر فى جميع مسائل البلد ، كنوع من البرلمان ، فى المسائل العامة فقط ، دون أن يتدخل فى المشاكل الخاصة بكل صناعة من الصناعات . اما الوسيلة التى دعا اليها « النقابيون » لتحقيق هدفهم فهى : الاضراب العام الذى يشل الحياة العامة تماما . وقد كان الماركسيون يرفضون هذه الدعوة رفضا باتا ، ولكن اصحاب هذه الدعوة ظلوا يعتبرون كارل ماركس « بعد وفاته » واحدا منهم !

وقد توفى كارل ماركس سنة ١٨٨٣ ، أى منذ خمسين سنة فقط (١) وفى خلال هذه المدة حدثت اشياء كثيرة : نمت اتحادات ونقابات قوية للعمال فى انجلترا والمانيا وسائر البلاد الصناعية ومرت الصناعة الانجليزية بأروع أيامها ، ثم بدأت فى الانحدار فى وجه المنافسة المتزايدة بين المانيا وامريكا .. وكانت امريكا بالذات تتمتع بمزايا طبيعية هائلة ساعدتها على تحقيق تقدم صناعى سريع

اما المانيا فكانت مزيجا غريبا من الاوتوقراطية السياسية (ممثلة فى برلمان هزيل فاقد السلطة) والصناعة المتقدمة وقد عملت الحكومة الالمانية فى عهد بسمارك وبعده ، على مساعدة الصناعة بمختلف الطرق ، كما حاولت ان تكسب الطبقة العاملة عن طريق الاصلاح الاجتماعى وتحسين احوالها . وفى انجلترا اتبع الاحرار الانجليز نفس الاسلوب فى الاصلاح الاجتماعى ، مثل تخفيض عدد ساعات العمل وتحسين احوال العمال بعض الشىء

وقد ظل الاسلوب ناجحا ، وظل العمال الانجليز معتدلين

---

(١) منذ خمسين سنة من تاريخ كتابة هذه الرسالة

مخلصين لحزب الاحرار طوال الفترة التى كانت الصناعة الانجليزية فيها ناجحة نامية فلما اقتربت نهاية القـــرن ووضعت المنافسة الاجنبية حدا لهذا النجاح والنمـو ، بدأت انجلترا تشعر بالكساد التجارى ، وبدأت اجـــور العمال تهبط . . وهنا تحركت الطبقة العاملة مرة أخرى ، وبدت الروح الثورية فى الافق ، والتفت كثير من الانجليز الى الماركسية . .

وفى سنة ١٨٨٩ ، بذلت محاولة أخرى لتكوين « دولية عمالية » جديدة ، وبعد ان أصبح هناك عدد من النقابات والاحـــزاب العمالية القوية ، يعمـــل فيها عـــدد كبير من الموظفين المحترفين . وقد اطلق على هـــذه المنظمة اســـم « الدولية الثانية » . وقد عاشت هذه «الدولية الثانية» ربع قرن حتى جاءت الحرب العالمية الاولى التى اختبرتها ووجدتها ضعيفة فعلا : بل كان من أعضاء هـــذه الدولية من تولوا بعد قليل مناصب هامة فى بلادهم .

وقد كان هناك من استغلوا الحركة العمالية لمصلحتهم الخاصة ثم هجروا ، وأصبحوا رؤساء وزارات ورؤســـاء جمهوريات . لقـــــد نجحوا فى حياتهم ، أما الملايين التى ساعدتهم ووضعت ثقتها فيهم فقد بقيت فى مكانها . لقد اصبح هؤلاء الزعماء الذين اقســـموا يمين الولاء لمبادىء كارل ماركس ، اصبحوا أعضاء فى البرلمانات . او أصبحوا رؤساء نقابات يأخذون مرتبات كبيرة . واصـــــبح من الصعب عليهم ان يخاطروا بمراكزهم المريحة فى صـــــدام سياسى عنيف

وهكذا هدأوا شيئا فشيئا ، وحتى عندما كان العمال يندفعون تحت وطأة اليأس الى عمل عنيف ، كان هؤلاء الزعماء يحاولون تهدئتهم . .

وبعد الحرب . . أصـــــبح رئيس جمهورية المانيـــــا

ومستشارها من الاشتراكيين الديمقراطيين ، وفى فرنسا ، اصبح « ارستيد بريان » النقابى المتحمس وافصح دعاة الاضراب العام ، اصبح رئيسا للوزراء احدى عشرة مرة ، واخمد اضرابا كبيرا تزعمه زملاؤه القدامى . وفى انجلترا اصبح رامزى ماكدونالد رئيسا للوزراء ، وترك حزب العمال الذي اظهره . وتكررت نفس الظاهرة فى السويد والدنمرك وبلجيكا والنمسا . وغرب اوربا اليوم (١) مملوءة بالديكتاتوريين الساسة الذين كانوا فى أول حياتهم السياسية ، اشتراكيين ، فلما تقدمت بهم السن نالهم الضعف ونسوا حماسهم القديم واهدافهم الاولى ، بل وكثيرا ما تحولوا ضد زملائهم القدامى . ان موسولينى دكتاتور ايطاليا ، كان اشتراكيا ، وكذلك بلسودسكى دكتاتور بولندا ..

ان الحركات العملية ، بل والحركات الوطنية أيضا ، تعاني دائما من هذا الداء ، داء الضعف فى قادتها

ان هؤلاء القادة يتعبهم الكفاح ، ويرهقهم الفشل وعدم النجاح ، والهالة المضيئة على رءوس الشهداء لا تغرى أصحابها زمنا طويلاً ..

فهم يهدأون بعد حين وتتحول نار حماستهم الى رماد . فاذا كان الواحد منهم اكثر طموحا فانه يعبر الى الجانب الاخر ويعقد هدنة فردية مع اولئك الذين كان يعارضهم ويقاومهم . وانه لمن السهل دائما ان يبرر الانسان لنفسه ، ولضميره ، اى خطوة يريد ان يخطوها !

هكذا تقاسى الحركات العمالية والوطنية وتتعرض للنكسات من جراء هذا العيب . ولما كان أعداء الحركات العمالية والوطنية يعرفون ذلك جيدا ، فهم دائما يحاولون ان يكسبوا الافراد البارزين فيها الى جانبهم بكل وسائل

(١) سنة ١٩٣٣

الأغراء وأنواع القول المعسول . ولكن القول المعسول لا يرضى جماهير العمال ، ولا يشفى غليل بلد تتعطش للحرية . ولهذا فبالرغم من فرار الفارين ، ونكسة المنتكسين ، فان الصراع يمضى دائما الى غايته المرسومة

بدأت الدولية الثانية اذا سنة ١٨٨٩ ، ونمت فى العدد والهيبة . وبعد سنوات قليلة اخرج منها الفوضويون بزعامة مالاتستا بسبب رفضهم خوض المعارك الانتخابية لنيل الاغلبيات البرلمانية ..

وفضل الاشتراكيون فى الدولية الثانية البرلمانات على الاشتراك مع زملائهم القدامى فى صراع مشترك . واصدر بعضهم بيانات باسلة عما يجب ان يصنعه الاشتراكيون فى أوروبا اذا وقعت الحرب . وأعلنوا ان الاشتراكيين لا يعترفون بالحدود الوطنية ، وان كفاحهم مشترك ومصالحهم مشتركة . فهم لم يكونوا « وطنيين » بالمعنى القديم للكلمة . ولهذا أعلنوا أنهم يعارضون الحرب . فلما وقعت الحرب فعلا سنة ١٩١٤ ، تحطم بناء« الدولية الثانية » بأكمله .. وتحول الاشتراكيون، وتحولت احزاب العمال ، بل وتحول الفوضويون مثل كروباتكين ، تحولوا جميعا الى وطنيين متعصبين كارهين لغير بلادهم من البلاد، كالاخرين سواء بسواء . قليل جدا منهم هم الذين قاوموا وثبتوا على دعوتهم الاولى ، وقد عرضهم ذلك لاضطهاد رهيب ولايام عصيبة وسجن طويل

فلما انتهت الحرب ، أسس لينين « دولية ثالثة » فى موسكو سنة ١٩١٩ ، كانت هذه الدولية منظمة شيوعية صرفة ، أعلنت انها لا تقبل الا الشيوعيين . وهى المنظمة التى ما تزال موجودة الى اليوم

أما من تبقى بعد الحرب من أعضاء الدولية الثانية ، فمنهم من تحالف مع الدولية الثالثة ، ومنهم من ابدى

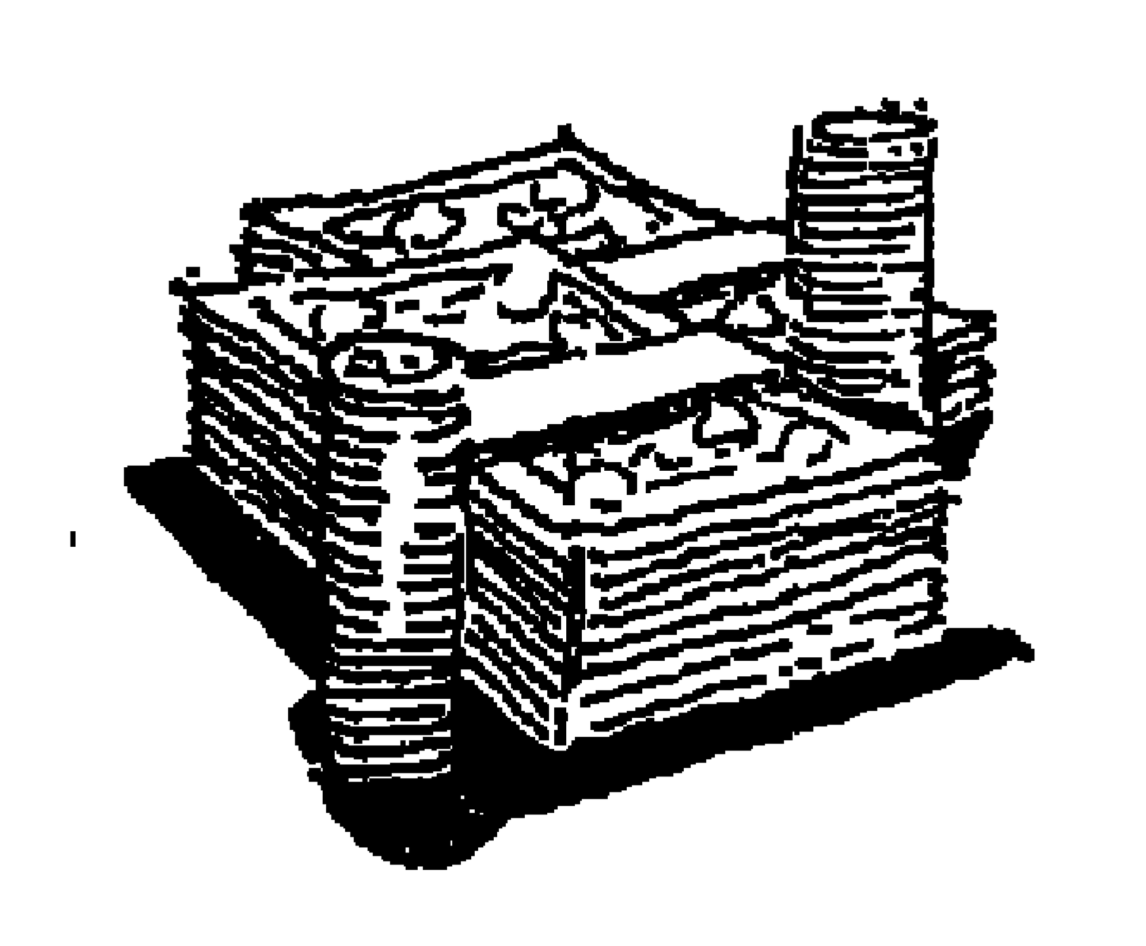
كراهيته لموسكو ورفض أن يرتبط بدوليتها الثالثة بأى شكل .. وقد استمر هؤلاء يكونون الدولية الثانية ..

والغريب أن كلا الهيئتين تدين بالماركسية ، ولكن كلا منهما تفسر الماركسية على طريقتها الخاصة ، بل انهما تتبادلان كراهية لا تقل عن كراهيتهما لعدوهما المشترك : الراسمالية ..

على ان هاتين « الدولتين » لا تضمان كل نقابات العمال فى العالم ...

فهناك نقابات كثيرة جدا لا تتبع أيهما ؛ فنقابات العمال الامريكية مثلا تقف فى جانب خاص بها . لانها محافظة جدا ..

كذلك فان النقابات فى الهند لا تتبع أيا من هاتين الدولتين



إنجلترا تصبح دائنة العالم

٢٣ فبراير سنة ١٩٣٣

قلت لك فى رسائل سابقة ان ثراء انجلترا ورخاءها فى القرن التاسع عشر يرجع الى صناعتها من جهة ، والى استغلالها لمستعمراتها من جهة اخرى ، ولكنه يرجع بوجه خاص الى أربع صناعات رئيسية هى : القطن والفحم والحديد وبناء السفن . وحول هذه الصناعات الاربع الرئيسية نمت أغلب الصناعات الاخرى ، الخفيف منها والثقيل ، ونشأت بيوت الاعمال الضخمة والبنوك ، وانتشرت السفن الانجليزية فى جميع أنحاء العالم ، لا تحمل المصنوعات الانجليزية وحدها بل ومنتجات الدول الصناعية الاخرى ، واصبح الانجليز بذلك سادة النقل التجارى ، وأصبح مكتب لويدز للتأمين فى لندن مركزا للنقل البحرى فى العالم ، واصبحت هذه الصناعات والاعمال هى التى تحكم البرلمان

وتدفق الثراء على انجلترا فغمر الطبقات العليا والمتوسطة ووصل جانب منه الى الطبقة العاملة فارتفع مستوى معيشتها ولكن ماذا يصنع الاغنياء بكل هذه

الاموال المتدفقة عليهم ؟ ان ابقاءها عاطلة بغير استثمار حماقة بلا شك. وكل واحد حريص على أن يستثمرها فى مزيد من الصناعة ، والحصول بالتالى على مزيد من الارباح . .

ولكن ، بعد فترة من الزمن ، وعندما امتلأت البلد كلها بعدد هائل من المصانع وتشبعت بالتصنيع الى أقصى حد .. بدأ معدل الارباح يهبط شيئا فشيئا بفعل المنافسة الشديدة . .

وهنا نظر الراسماليون الى خارج بلادهم باحثين عن ميادين اخرى لاستثمار اموالهم فوجدوا ان الفرص فى الخارج كثيرة .. وبدأت الاموال الانجليزية تتدفق الى الخارج ، لتبنى السكك الحديدية والتلفونية والتلغرافات والمصانع ، فى أوروبا وامريكا وافريقيا وجميع المستعمرات الانجليزية : الولايات المتحدة ذات الموارد الفنية والنمو السريع تنال جزءا هاما من المال الانجليزى لبناء السكك الحديدية . وفى أمريكا الجنوبية خصوصا الارجنتين ، يمتلك المال الانجليزى عددا من المزارع الشاسعة ، وفى كندا واستراليا يبنى كل شىء برأس المال الانجليزى ، وكذلك فى الصين ، وفى الهند طبعا ، حيث أقرض الانجليز أموالهم لشركات السكك الحديدية بفوائد باهظة

بذلك أصبحت انجلترا هى البنك الذى يقرض العالم ، وأصبحت لندن هى السوق الدولية للنقود . .

ولا تحسبى أن معنى ذلك ان انجلترا كانت ترسل النقود الى الدول الاخرى فى صورة حقائب مملوءة بالذهب أو الفضة أو البنكنوت . ان الاعمال التجارية الحديثة لاتتم بهذه الصورة البدائية ، والا لما وجدنا من الذهب والفضة ما يكفى هذه المعاملات. ان من الناس من يعلقون اهمية بالغة على الذهب والفضة ، والواقع انها ليست

سوى « وسيلة » للتعامل وتبادل السلع ، ان الذهب والفضة معادن لا تؤكل ولا تلبس ولا تنفع الا فى الزينة فحسب ، وهى شيء تافه . أن الثراء الحقيقى ليس فى اقتناء الذهب والفضة .. أنه فى امتلاك البضائع التى يمكن استعمالها . وعلى ذلك فحين نقول ان الرأسماليين الانجليز استثمروا اموالهم فى الخارج فى الصناعة أو فى السكك الحديدية ، فمعنى ذلك انهم أرسلوا بضائعهم الى الخارج ، اى أرسلوا الالات والقطارات والقضبان وغيرها من المواد الى الدول الاجنبية ، ومعنى ذلك ربح جديد للصناعة الانجليزية ، وفرصة جديدة للطبقة المستثمرة فى انجلترا ، كما توظف الفائض من أموالها نظير ربح كبير ..

ان اقراض النقود عملية مربحة جدا . وقد أثرت منها ثراء هائلا حتى لقد نشأت طبقة مترفة تعيش على فوائد هذه القروض وحدها . وابناء هذه الطبقة لا يعملون شيئا على الاطلاق .. انهم فقط يحملون اسهما فى شركات السكك الحديدية ، وشركات زراعة الشاى وما اليها ، وفى نهاية كل عام تجيئهم الارباح بانتظام

ولكن ، ها هنا سؤال هام : هذه الدول التى اقترضت النقود من انجلترا بهذه الطريقة ، كيف تدفع ربح هذه القروض ؟ ..

مرة أخرى ، هى لا تدفعها ذهبا ولا فضة ولكنها تدفعها سلعا وهى لا تدفعها سلعا مصنوعة كتلك التى تبيعها انجلترا ، لان انجلترا نفسها هى سيدة الانتاج الصناعى، ولكنها تدفعها مواد غذائية وخامات أى ان الارباح كانت تتدفق على انجلترا فى صورة كميات هائلة من القمح والشاى والبن واللحم والفاكهة والقطن والصوف .. الخ

والتجارة بين دولتين من الدول لا تقوم الا على أساس تبادل السلع والمواد . فانه من المستحيل أن تقتصر دولة

ما على الشراء او تقتصر على البيع . واذا حدث واضطرت دولة الى أن تشترى من دولة أخرى سلعا دون أن تبيع لها ، فمعنى ذلك انها ستضطر الى دفع ثمن ما تشتريه ذهبا او فضة ، ولن تجد هذه الدولة من الذهب أو الفضة ما يكفى . وهنا لابد لهذه التجارة من جانب واحد ان تتوقف . فالتجارة بين دولتين اذا لابد فيها من التبادل ولا بأس بعد ذلك من أن يميل الميزان لمصلحة هذه الدولة أو تلك ...

ولو فحصنا تجارة انجلترا خلال القرن التاسع عشر، لوجدنا انها تستورد كميات أكثر جدا مما تصدر ، مع فارق واحد ، هو انها تستورد الطعام والخامات وتصدر السلع المصنوعة وليس معنى ذلك ان انجلترا كانت تدفع ثمن ما تستورده زائدا عما تصدر ، كلا ، فهذا الزائد هو ربح اموالها التى تقرضها ولم تكن تأتى كلها الى انجلترا. كان جانب منها يظل فى البلد المقترض ، حيث يعاد استثمارها لحساب الرأسماليين الانجليز ايضا

وبذلك أخذ الاستثمار الانجليزى فى الخارج ينمو ويتزايد ، دون حاجة الى ارسال مزيد من الاموال او البضائع . وفى الهند نعرف جميعا ضخامة الاستثمارات الانجليزية فى السكك الحديدية وغيرها

قلت لك ان انجلترا وجدت ان خير طريقة للمضى فى عملية الاقراض هذه ، هى ان تقبل فوائد اموالها فى صورة بضائع ، وقد أدى ذلك الى نتيجتين هامتين : الاولى هى تزويد شعبها بكل ما يحتاجه من طعام بكميات كافية ، وانصرافها انصرافا تاما عن الزراعة وتركيز كل جهدها فى انتاج السلع المصنوعة ، ذلك أنه اذا كانت انجلترا تستطيع أن تحصل على الطعام من الخارج بأسعار زهيدة ، فلماذا تتعب نفسها فى استنباته ؟ واذا كانت الصناعة تدر ربحا

أكثر فلماذا تشغل نفسها بالزراعة ؟ وهكذا اصبحت انجلترا دولة صناعية تماما ، تعتمد فى الحصول على طعامها على ما يأتيها من الخارج ..

اما النتيجة الثانية فهى دعوتها لسياسة حرية التجارة اى لا تفرض الضرائب على السلع التى تأتيها من الخارج، أو لا تفرض عليها الا التافه البسيط . فما دامت هى الدولة الاولى فى الصناعة ، فليس لها أن تخشى منافسة الصناعات الاجنبية لها . كما أن فرض ضرائب على السلع المستوردة معناه فرض ضرائب على الطعام الذى تأكله ، والخامات التى تستخدمها ، مما يرفع اسعار المواد الغذائية للمستهلكين ويرفع تكاليف الانتاج بالنسبة للمنتجين ..

هذا الى أنها اذا فرضت ضرائب عالية تمنع السلع الاجنبية من المجىء فكيف تدفع لها الدول الاولى فوائد أموالها ؟

لهذه الاسباب كلها تبنت انجلترا سياسة حرية التجارة ، فى الوقت الذى كانت فيه سائر الدول تلجأ الى حماية صناعتها بواسطة فرض ضرائب ورسوم على السلع التى تستوردها .. مثل أمريكا وفرنسا والمانيا ..

وقد تبدو سياسة انجلترا خلال القرن التاسع عشر من الاهتمام بالصناعة واهمال الزراعة والاعتماد فى طعامها على ما تستورده فى الخارج ، قد تبدو هذه السياسة سليمة ، الا ان لها مخاطرها التى بدأت تتضح فى هذا القرن ..

لقد بنيت هذه السياسة على أساس تفوق انجلترا الصناعى وسيادة تجارتها فى الخارج ولكن ، لنفرض أن هذا التفوق قد ذهب . وان هذه التجارة قد هبطت تبعا

لذلك ، فماذا تصنع فى هذه الحالة ؟ كيف تدفــــع ثمن طعامها ؟ واذا استطاعت ان تدفع ثمنه فكيف تحمله الى بلادها اذا وقف لها فى الطريق عدو قوى ؟

لقد كاد أهل انجلترا يجوعون خلال الحرب العالميــة الاولى ، لان الطعام الذى يأتيها من الخارج قد انقطع ، وأخطر من ذلك الهبوط المستمر فى تجارتها نتيجة لتزايد المنافسة . وقد بدت خطورة هذه المنافسة قرب نهـــاية القرن ، عندما بدأت الولايات المتحـــدة باحثــة عــن اسواق اجنبية . .

وما زال هذا الخطر يتزايد بانتشار الصناعة فى كل مكان من العالم ، اذ اصبحت كل دولة تريد ان تصـــنع بنفسها اكبر قدر ممكن من السلع التى تستهلكها ــ الهند مثلا تريد أن تستغنى عن استيراد الاقمشة من الخارج فماذا تصنع انجلترا فى هذه الحالة ، والمؤســـســـات الانجليزية التى تعتمد على تجارة القماش ؟

كل هذه أسئلة خطــيرة ، على انجلترا ان تبحث عن اجابتها قبل ان تواجهها الايام العصيبة بعد حين . انها لا تستطيع الانطواء على نفسها ، والانعزال عن العالم بحيث تنتج ما يكفيها من الزراعة والصناعة . فالعلم الحديث اكثر تعقداً من أن يتيح مثل هذا الاستكفاء الذاتى

هذه الاسئلة التى تبدو اليوم خطيرة ، لم تكن كذلك فى القرن التاسع عشر

فمضت انجلترا تقامر بمستقبلها وتلعب على تفوقها الصناعى انها مقامرة خطيرة حقا : ان تظل الدولة الاولى فى العالم كله أو أن تواجه الانهيار . ان لا يكون هناك حل وسط بين أحد الاحتمـــالين . ولكن الرجل الانجليزى فى العصر الفيكتورى لم تكن تنقصـــه الثقـــة المطلقة بالنفس ، بل ولا الغـــرور . فقد اقنعه نجـــاحه

وتقدمه فى الصناعة بأنه متفوق على سائر البشر . فهو ينظر الى انباء البلاد الاخرى من عل . وشعوب آسيا وافريقيا فى اعتقاده شعوب همجية متخلفة، خلقت لكى تعطيه فرصة ممارسة عبقريته فى السيطرة على سائر الاجناس حتى ابناء اوروبا كانوا بالنسبة اليه جهلة حمقى . كان الانجليزى الفيكتورى يرى انه الرجل المختار لقيادة الحضارة وان انجلترا هى الرائد الذى يتقدم أوروبا ، وأوروبا هى التى تتقدم سائر العالم وكان يرى أن الامبراطورية البريطانية نظام مقدس

وكان واحد من ابرز الانجليز قد اهدى كتابا الفه « الى اولئك الذين يؤمنون بأن الامبراطورية البريطانية هى بعد العناية الالهية . اعظم قوة تعمل للخير عرفها العالم ..

ولا تحسبى اننى اتهكم بهذا الكلام على الانجليز فى العصر الفيكتورى . كلا على الاطلاق . فقد يكون من النادر فعلا ان نرى انسانا مثقفا يسلك مثل هذا السلوك المنطوى على الغرور والمباهاة ، ولكن المجتمعات الوطنية على العكس من ذلك مستعدة لتصديق اى شىء يرضى كبريائها . فالفرد لا يتصرف بهذه الطريقة المبتذلة ازاء جيرانه او معارفه ، أما الدول فليس لها مثل هذا الضمير ، ونحن جميعا لسوء الحظ نحمل فى نفوسنا عين الطباع ونتباهى بمدح فضائلنا الوطنية . فشخصية الانجليزى الفيكتورى موجودة فى كل مكان ، مع فوارق بسيطة فحسب

قلت لك ان ثراء انجلترا وغرب اوروبا كان مرجعه الى نمو الصناعة الراسمالية التى ظلت ماضية الى الامام دون توقف بحثا عن الربح ..

كان الربح هو الرب الوحيد الذى يعبده الناس هناك . والرأسماليه لا شأن لها بالدين او الاخلاق . انها مذهب المنافسة حتى الموت بين الافراد والامم ، وليذهب المغلوب

الى الجحيم !

كان الفيكتوريون يتباهون باحتفاظهم بايمانهم الديني . كانوا يؤمنون بالعلم والتقدم وكانوا يقولون ان نجاحهم في الاعمال وفي بناء الامبراطورية يثبت انهم الجنس الاصلح الذي فاز في الصراع . ألم يقل داروين ان البقاء للاصلح ؟ وعلى هذا الاساس نفسه كان يقوم ايمانهم الديني ، وقد وصف احد كتابهم « ر . هـ تادني » هذا الايمان بقوله : « ان الله في مكانه ، بعيد عن المشاكل الارضية .. ان ملكية الله ملكية مقيدة تماما كالملكيات الموجودة على الارض ! »

هكذا كان ايمان البورجوازية الغنية الديني . ولكنها كانت في الوقت نفسه تشجع مادونها من الجماهير على الذهاب الى الكنيسة والاستمساك بالدين ، لعل ذلك ان يصرفها عن الافكار الثورية !..

وقد وصلت الصناعة الراسمالية الى درجة هائلة من الضخامة والاتساع . فانه من الاربح دائما ان يكون الانتاج اكبر وعلى نطاق اوسع . وكلما كبر حجم المؤسسة واتسع نطاقها كانت تكاليف الانتاج لديها اقل منها لدى المؤسسات الصغيرة .. على ذلك نشأت الاتحادات الهائلة ، تتحكم في صناعات بأسرها وتبتلع المؤسسات الصغيرة المملوكة للافراد . وانهارت فكرة « دعه يعمل » القديمة واصبحت فرصة الفرد في هذا الميدان ضئيلة جدا . بل ان هذه الاتحادات اصبحت تتحكم في الحكومات ذاتها ..

وبازدياد المنافسة بين القوى الصناعية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر انتقلت الرأسمالية الى مرحلة ثانية ، تلك هي التطلع الى الخارج للبحث عن الاسواق والمواد الخام . واحتدم التنافس الوحشي في كل

مكان على بناء الامبراطوريات. وقد رويت لك فى خطابات سابقة ماحدث بالتفصيل فى الهند والصين وايران . والآن هبطت الدول الاوروبية كالطيور الجارحة على افريقيا ، تتقاسمها فيما بينها ، وفى أفريقيا ايضا فازت انجلترا بنصيب الاسد . استولت على مصر فى شمال القارة وعلى مساحات اخرى شاسعة . وفازت فرنسا بنصيب لا بأس به ، وارادت ايطاليا ان تشترك فى المادبة. ولكنها لاقت فى الحبشة متاعب هائلة كادت تصل بها الى الهزيمة . واستولت المانيا على نصيب لم يرضها . .

الى كل مكان ذهبت الراسمالية صائحة مهددة : تغنى رديارد كبلنج ، شاعر الامبراطورية البريطانية ب « عبء الرجل الابيض » . .

وتحدث الفرنسيون عن « مهمة فرنسا الحضارية » وتحدث الالمان طبعا عن ثقافتهم . هكذا ذهب حملة « مشاعل الحضارة والمدنية » ، ذهبوا فى تضحية رائعة، يجثمون على انفاس الاجناس الاخرى . دون ان يتحدث أحد عن عبء الرجل الملون ! . .

ولم يكن العالم واسعا بحيث يتسع لكل هؤلاء الاستعماريين المتنافسين، فلم تلبث المصادمات أن احتدمت بينهم فى كل مكان وقع فيه التنافس على الاسواق

وكثيرا مابدت الحرب وشيكة الوقوع بين انجلترا وفرنسا . الا ان الصدام الحقيقى فى المصالح كان بين الصناعة الانجليزية والالمانية . .

لقد أصبحت المانيا تماثل انجلترا فى تفوقها الصناعى وفى بناء السفن بالذات واخذت تتحدى سيطرتها على الاسواق . ولكنها وجدت أن اسواق العالم محتلة فعلا بالانجليز . .

ولما كانت المانيا فخورة متحمسة عالية الروح ، حانقة

لابعادها عن العالم الواسع بواسطة الدول الاخرى ، فقد بدأت تستعد فى أصرار من أجل صراع هـائل مع تلك الدول الاخرى .. واخذت اوروبا كلها تستعد ، وتضخمت الجيوش والاساطيل ، وتتابعت الاحداث والمعاهدات بين الدول المختلفة حتى بدأ أن هناك معسكرين متنافسين مدججين بالسلاح ، والحلف الثنائى من جهة اخرى بين روسيا وفرنسا ، وكانت انجلترا مرتبطة به سرا، من جهة أخرى ..

وفى تلك الاثناء ، وعند نهاية القرن ، اشتبكت انجلترا فى حرب صغيرة خاصة فى جنوب افريقيا ، وهى حرب نشبت سنة ١٨٩٩ نتيجة لاكتشافات مناجم الذهب فى جمهورية الترنسفال . وقد حارب البوير ببسالة خارقة مدة ثلاث سنوات ضد انجلترا . ولكنهم انهزموا آخر الامر ، وكان عليهم ان يعترفوا بالهزيمة . وكانت انجلترا حكيمة فى سلوكها معهم بعد الحرب ، فلم تمض سنوات حتى أصبح اتحاد جنوب افريقيا دولة حرة فى نطاق الدومنيون البريطانى ..

الإمبراطورية الامريكية الخفية ..

٢٨ فبراير سنة ١٩٣٣

قضت الحرب الاهلية فى امريكا على ارواح الكثيرين من شبابها ، وتركت لها عبئا باهظا من الديون . غير أن تلك البلاد كانت شابة مليئة بالنشاط فاستمر نموها السريع. كذلك فقد كانت تملك موارد طبيعية هائلة ، خصوصا فى المناجم الغنية بالموارد الرئيسية الثلاث التى تقوم عليها اليوم كل صناعة حديثة : الفحم والحديد والبترول . وكان ثمة كثير من مساقط المياه التى يمكن استغلالها فى توليد الكهرباء ، وشلالات نياجرا المعروفة لاشك ترد على خاطرك فى هذا المجال ..

كانت تلك الدولة قارة هائلة يقطنها سكان قليلون نسبيا ، فكان كل فرد يجد امامه مجالا واسعا للثراء ، وعلى ذلك تهيأت لها كل الاسباب لاقامة دولة صناعية من الدرجة الاولى ، وقد اخذت فى ذلك بسرعة ملحوظة ، فلم تأت سنة ١٨٨٠ حتى بدأت الصناعة الامريكية تنافس الصناعات الانجليزية فى الاسواق الخارجية :

لقد وضعت الصناعة الامريكية والالمانية حدا للتفوق

الذى استأثرت به انجلترا فى التجارة الخارجية مدى قرن كامل من الزمان ..

وتدفق المهاجرون على الدولة الجديدة من جميع الشعوب الاوربية : المان واسكندنافيون وايرلنديون وايطاليون ويهود وبولنديون .. جاء بعضهم طريد الاضطهاد السياسى فى أوطانهم الاصلية وجاء بعضهم الاخر بحثا عن مستوى افضل من الحياة ..

لقد ارسلت أوروبا المزدحمة الزائد من سكانها الى أمريكا فى صورة هذا المزيج الغريب من الاجناس واللغات والاديان .. كان هؤلاء المهاجرون يعيشون فى اوروبا منفصلين ، لكل واحد منهم عالمه الخاص الصغير ، وقلوبهم جميعا مليئة بالحقد المتبادل ولكنهم ذهبوا الى مكان جديد وجو جديد ، اختفت فيه معظم هذه الاحقاد القديمة ، وسرعان ما جاء نظام التعليم الاجبارى الموحد فمحا الرواسب الوطنية القديمة ، وبدأ الطابع الامريكى يظهر ، من خلاصة هذه البوتقة الغريبة ، وان بقى الانجلو سكسون القدامى يعدون أنفسهم الطبقة الارستقراطية ، ويستأثرون بالزعامة الاجتماعية

وقد حاولت الولايات المتحدة ان تبقى بعيدة عن مشاكل ومؤامرات القوى الاوربية المتنازعة ، وان تبقى أوروبا بعيدة عن الامريكتين الشمالية والجنوبية جميعا . وقد حدثتك فى رسالة سابقة عن « مبدأ مونرو » ، المبدأ الذى وضعه الرئيس مونرو عندما حاولت بعض القوى الاوربية ـ دول الحلف المقدس ـ ان تتدخل فى أمريكا الجنوبية لحماية مصالح الامبراطورية الاسبانية فيها . فقد اعلن مونرو ان الولايات المتحدة لن تقبل تدخل اى قوة اوروبية فى نصف الكرة الامريكى . وقد انقذ هذا التصريح جمهوريات أمريكا الجنوبية من براثن اوروبا الى حد بعيد

وقد كانت امريكا الجنوبية دائما مختلفة عن أمـريكا الشمالية • ولم تفلح مائة سنة فى القضاء على وجـــوه الاختلاف هذه • ففى حين نرى كندا تزداد شبها بالولايات المتحدة يوما بعد يوم • لا نرى ذلك بالنسبة لجمهوريات أمريكا الجنوبية : فالحدود التى بين الولايات المتحـــدة والمكسيك تفصل نوعين من الناس والثقـــافة •• والى الجنوب نجد اللغات الاسبانية والبرتغالية هى الطاغية •• وقد بقيت اللغة الاسبانية حتى اليوم من اللغات الاولى فى العالم ، لسبب واحد هو انتشارها فى هذه البقعة من الارض ، وامريكا اللاتينية ما زالت تنظر الى اسبانيا على أنها أم روحية لها •• وهناك ، لا يعلق المواطنون اهمية كبيرة على الاجناس كما يفعلون فى كندا والولايات المتحدة وقد تزاوج الاسبان مع الهنود الحمر اصحاب البـــلاد الاصليين ، ومع الزنوج أيضا ، وأخرجوا عنصرا مولدا ••

وعلى الرغم من مرور مائة سنة من الحرية على هذه البلاد ، فانها فشلت حتى الان فى تحقيق الاستقرار • فالثورات والدكتاتوريات العسكرية هناك دورية ، حتى أنه ليصعب جدا تتبع الخطوط السياسية الدائمة التغيير •• واقوى هذه الجمهوريات هى الارجنتين والبـــرازيل وشيلى والمكسيك

منعت الولايات المتحدة ـ بتصريح مونرو ـ اوروبا من التدخل فى شئون أمريكا اللاتينية • ولكنها ما أن ازدادت ثراء حتى بدأت تمد بصرها الى الخارج بحثا عن أرض بكر تتوسع فيها ••

وكان من الطبيعى ان يقع بصر الولايات المتحـــدة على أمريكا اللاتينية •• ولكنها لم تحاول ان تستولى على أى من هذه الجمهوريات بالقوة ، اى بالطريقة القديمة لبناء الامبراطوريات ولكنها ارسلت بضائعها اليها واستولت

على اسواقها ..

كذلك وظف الامريكيون رؤوس أموالهم هنــــاك في السكك الحديدية والمناجم ، وفي اقراض الحكومات ، بل وبعض الاحزاب في اوقات الثورات ! والذين وظفوا أموالهم على هذا النحو هم الرأسماليون الامريكيون واصـــحاب البنوك ، ولكن ، خلفهم ، كانت تقف دائما حكومةالولايات المتحدة نفسها !

وشيئا فشيئا ، أصبح هؤلاء الرأسماليون يسيطرون على حكومات امريكا اللاتينية بواسطة نقــــودهم التى يقرضونها لها ويوظفونها فى بلادها ، بل لقد صنع هؤلاء الرأسماليون بعض الثورات والانقلابات عن طريق تقديم النقود لهذا الحزب او ذاك . وخلف هؤلاء الرأسماليين ، كما قلت ، كانت تقف حكومة الولايات المتحدة القوية ، فماذا تفعل الجمهوريات اللاتينية الصغيرة ، الضعيفة ؟ . لقد حدث فعلا ، أن أرسلت الولايات المتحدة جيوشـــها لنصرة حزب معين من الاحزاب ، بدعوى العمل على اعادة الامن والنظام !

بهذه الطريقة اذا ، أصبح للرأسماليين الامريكيين سيطرة قوية على تلك الدول الصغيرة فى الجنـــوب . فقد اداروا بنوكها وسككها الحديدية ومناجمها ، مستغلين ذلك كـله لمصالحهم الخاصة . اى ان الولايات المتحدة استـــولت على ثروة هذه الدول . وهـــذا هو الشكل الجـــديد للامبراطوريات : امبراطورية اقتصادية ، خفية ، تحـكم وتستغل دون اى مظهر خارجى للحـــكم والاستغـلال ، فجمهوريات امريكا الجنوبية ــ من الناحية السياسيـــة والدولية ــ دول حرة مستقلة . وعلى الخريطة لا شيء يدل على أنها فاقدة لحريتها . ومـــع ذلك ، فان الولايات المتحدة تستعمر معظمها استعمارا كاملا . .

لقد عرفنا انواعا مختلفة من الاستعمار فى شتى العصور: فى البداية كان انتصار دولة على اخرى فى الحرب يعنى أن المنتصر يستطيع ان يفعل مايشاء بالارض المفتوحة والشعب المنهزم ، الذى يتحول افراده كلهم الى عبيد . ثم اخلى هذا النظام مكانه لنوع جديد من الاستعمار ، من مقتضاه ان يستولى المنتصر على الارض وحدها دون الافراد ، فلا يصبح المهزومون عبيدا . ذلك ان الاستعمار قد اكتشف انه من الاسهل استنزاف اموالهم عن طريق الضرائب وغيرها من وسائل الاستغلال

وكثيرون منا لا يعرفون الاستعمار الا على هذه الصورة، كاستعمار الانجليز للهند ، معتقدين انه اذا تخلى الانجليز عن نفوذهم السياسى فى الهند ، تصبح الهند حرة تماما . ولكن هذا النوع من الاستعمار اخذ بدوره فى الزوال ، تاركا مكانه لنوع ثالث من الاستعمار اكثر تقدما واتقانا : لا يحتكر حتى الارض .. بل يستولى فقط على الثروة ووسائل الانتاج فى البلد المستعمر . فبذلك تستطيع الدولة المستعمرة ان تستغل مستعمراتها لمصلحتها الخاصة ، وتسيطر على مصائرها ، دون ان تتحمل مسئولية حكم المستعمرة واضطهاد شعبها . فهى تحكم الارض والشعب على السواء .. وبأقل قدر من المتاعب !

على هذا النحو تطور الاستعمار على مر الايام ، حتى اصبح استعمارا خفيا ، اقتصاديا . فحين قضى على الرق، ثم على رقيق الارض فى عهد الاقطاع ، حسب الناس ان الانسان صار حرا ، ولكنهم سرعان ماادركوا ان الانسان ما زال مستعبدا مستغلا ، يحكمه الذين يملكون قوة المال ، فبعد العبودية ، ورق الارض ، أصبح الناس « عبيد الاجر » ومازالت الحرية بعيدة عنهم

وكذلك الحال بالنسبة للدول : فالناس يحسبون أن

المشكلة كلها فى الحكم السياسى الذى تفرضه دولة على أخرى ، فاذا أقصينا هذا التحكم السياسى جاءت الحرية حتما ، وهذا غير صحيح ، وكثيرا مانجد اليوم دولا حرة سياسيا .. ولكنها خاضعة تماما لدولة أخرى نتيجة للسيطرة الاقتصادية

ان الاستعمار الاقتصادى هو اقل انواع الاستعمار كلفة ، بالنسبة للدول الاستعمارية ، فهو لا يثير المتاعب التى يثيرها الاستعمار السياسى ، ذلك لان كثيرا من الناس لا يلحظونه ..

والامبراطورية الامريكية الخفية تمتد حتى تصل الى جزر الفلبين ، وهى الجزر التى « حررتها » امريكا فى حرب خاضتها ضد اسبانيا

وقد بدأت هذه الحرب فى جزيرة كوبا سنة ١٨٩٨ ، واليوم أصبحت كوبا دولة مستقلة ، بالاسم فقط . لان الولايات المتحدة ما زالت تحكم كوبا وهايتى تماما (١)

ومنذ عشرات السنين ، تم شق قناة بناما ، فى تلك الرقعة الرقيقة من الارض التى تربط بين الامريكتين ، وقد وضع مشروع حفر القناة ، فرديناند دى لسبس ، نفس الرجل الذى شق قناة السويس ، ولكنه لم يلبث ان اصطدم فى بناما بمتاعب جمة منعته من اتمام عمله ، فأتمه الامريكيون

والقناة تقع فى جمهورية بناما الصغيرة . ولكن الولايات المتحدة اليوم تحكم القناة والجمهورية على السواء . ورغم ان القناة بالغة الاهمية من الناحية التجارية الا انها ليست فى مثل أهمية قناة السويس

وهكذا مضت الولايات المتحدة تزداد كل يوم قوة ، ويزداد انتاجها من المليونيرات وناطحات السحاب !

---

(١) كتب هذا الكلام قبل ثورة كاسترو وماتلاها من احداث بثلاثين سنة !



سقوط القيصرية في روسيا..

٧ ابريل ١٩٣٣

عندما كنت أحدثك عن الحرب العالمية (الاولى) أشرت اشارة عابرة الى الثورة الروسية وأثرها على هذه الحرب. وبصرف النظر عن تأثيرها في نتيجة الحرب ، فقد كانت هذه الثورة في حد ذاتها حادثا خطيرا ، فريدا في تاريخ العالم كله . وبالرغم من انها كانت الاولى من نوعها ، فانها لن تظل الوحيدة زمنا طويلا . لقد أصبحت خطرا بالنسبة لسائر الحكومات ومثلا احتذاه كثير من الثوريين في مختلف أنحاء العالم . فهي اذا خليقة بدراستها عن قرب

ولا شك ان هذه الثورة كانت أهم نتائج الحرب العالمية جميعا . ومع ذلك فهي نتيجة لم يتوقعها ، ولم يرغب فيها، أي حاكم او حكومة من الحكومات التي خاضت غمار هذه الحرب . او ربما كان من الادق ان نقول ان هذه الثورة كانت وليدة الظروف التاريخية والاحوال الاقتصادية في روسيا ، والتي وصلت الى غايتها بسرعة نتيجة للخسائر الفادحة والشقاء الهائل الذي جلبته الحرب

وفي هذه الظروف ، استطاع رجل ذو ارادة هائلة وكفاية

ثورية فذة أن يجد فرصته ، ذلك هو لينين

وقد وقت فى روسيا خلال عام ١٩١٧ ثورتان ، الاولى فى مارس والثانية فى نوفمبر . ولكن لاشك أن هذه الفترة كلها كانت ثورة متصلة ، لها قمتان ، فى مارس ونوفمبر

وقد حدثتك فى خطاب سابق عن الثورة التى قامت فى روسيا سنة ١٩٠٥ ، فى أعقاب فترة من الحرب والهزيمة ايضا . وقد اخمدت هذه الثورة بقسوة ، واستمرت حكومة القيصر فى سياستها الاوتوقراطية المطلقة ، تتجسس على كل فرد وتخمد كل محاولة للتفكير الحر . .

وقد شمل هذا الاضطهاد الماركسيين ، وخصوصا البلاشفة ، حتى بات كل المهمين من رجالهم ونسائهم فى معسكرات الاعتقال فى سيبيريا أو منفيين فى الخارج . ولكن هذه الحفنة من المنفيين ظلت تواصل نشاطها ودراساتها فى الخارج بزعامة لينين . وقد كانوا جميعا ماركسيين . ولكن النظرية الماركسية وضعت لتلائم البلاد المتقدمة صناعيا مثل انجلترا او المانيا ، اما روسيا فقد كانت ماتزال اقطاعية ، زراعية . مع قليل من الصناعة فى المدن الكبيرة . وانطلق لينين يعمل ليوفق بين أسس الماركسية وبين ظروف روسيا الخاصة . وقد كتب لينين كثيرا ، واتصلت المناقشات بين الروس المنفيين ، فكانوا بذلك يعدون أنفسهم نظريا للثورة . وكان لينين يعتقد ان اى عمل لايمكن ان يتم الا اذا قام به خبراء متخصصون لا مجرد متحمسين . وانه اذا اريد للثورة ايضا ان تتم فيجب على الذين يريدون القيام بها أن يتدربوا عليها ، حتى اذا جاءت ساعة العمل ، كانوا على دراية واضحة بما يجب عليهم أن يعملوه

وهكذا مضى لينين فى سنوات الكبت التى أعقبت ١٩٠٥ يعد نفسه وزملاءه للعمل المقبل

وفى سنة ١٩١٤ كانت طبقة العمال الزراعيين فى روسيا

قد أخذت تستيقظ وتتحول الى الثورة مرة اخرى. ووقعت اضطرابات سياسية كثيرة

ثم جاءت الحرب ، فاستغرقت كل الاهتمام ، وأرسل اكثر العمال وعيا الى جبهة القتال كجنود ، وقد عارض لينين وأنصاره (وكان أغلبهم فى المنفى) عارضوا الحرب منذ البداية ، ولم يجرفهم تيارها الذى جرف سائر الاشتراكيين فى البلاد الاخرى

كان من رأيهم انها حرب بين الراسماليين ، وان الطبقة العاملة لا شأن لها بها ، الا بقدر ما تستطيع أن تفيد من ظروفها لكسب حريتها

وقد أصيب الجيش الروسى فى الميدان بخسائر رهيبة . ربما كانت أفدح مما تحمله أى جيش فى الحرب كلها .. وكان الجنرالات العديمى الكفاءة يقذفون الجنود وهم بغير سلاح تقريبا الى الموت المحقق بمئات الالوف

وفى بتروجراد (لينينجراد الان) وغيرها من المدن الكبرى كانت الصفقات الضخمة تعقد والارباح الهائلة تتدفق على بعض الوصوليين والانتهازيين ، وكان هؤلاء الانتهازيون بالطبع يتخذون مظهر الوطنية المتطرفة ، وينادون بمواصلة الحرب حتى النهاية

ولاشك أنه كان مما يناسبهم ان تظل الحرب قائمة باستمرار !

ولكن الجنود والعمال والفلاحين الذين كانوا يمونون الجنود ، اصابهم الارهاق والجوع وامتلأت نفوسهم بالسخط ..

وكان القيصر نيقولا رجلا أحمق ، واقعا تحت سيطرة زوجته القيصرة ، وهى مخلوقة أقوى منه شخصية ، ولكنها لا تقل عنه حماقة ..

وقد أحاط الاثنان نفسيهما بالحمقى والسفلة ، ولم يكن هناك من يجرؤ على توجيه النقد اليهما ..

ووصل الامر الى حد أن محرما عتيدا ، عرف باسم جريجورى راسبوتين ، أصبح هو أقرب المقربين الى القيصرة ، وبالتالى الى القيصر . وكان راسبوتين (وراسبوتين كلمة معناها « الكلب القذر ») كان فلاحا فقيرا قبض عليه فى تهمة سرقة بعض الجياد ، ثم قرر ان يتخذ سمت القديسين ، وان يحترف الشعوذة ، وكانت الشعوذة فى روسيا – كما هى فى الهند – وسيلة لكسب الرزق ..

وهكذا أطلق شعره ولحيته ، وذاعت شهرته كرجل مقدس حتى وصلت الى البلاط القيصرى

وكان الابن الوحيد للقيصر والقيصرة مصابا بمرض مستعص ، وبطريقة ما أقنع راسبوتين القيصرة بأنه قادر على علاج ولى العهد ثم لم يلبث ان أصبحت له سيطرة مطلقة على القيصر والقيصرة ، واصبحت جميع المراكز العليا فى الدولة رهن اشارته . وقد عاش حياة مليئة بالفسق ، وتلقى رشاوى هائلة ، واصبح الحاكم المطلق لروسيا كلها ..

كان راسبوتين يثير اشمئزاز الجميع .. حتى المعتدلون والارستقراطيون بدأوا يتهامسون ، وترددت اقوال عن التفكير فى ثورة تقع داخل القصر لتغيير القيصر ، وفى هذه الاثناء عين القيصر نيقولا نفسه قائدا عاما للجيش . وكان هذا كافيا لكى تدب الفوضى الى كل شىء فى جبهة القتال . وقبل نهاية سنة ١٩١٦ بأيام قليلة اغتال أحد اقارب القيصر راسبوتين . دعاه فريق من رجال القصر الى الغداء ، ثم امروه بأن يطلق على نفسه النار ، فلما رفض ، اطلق عليه أحدهم النار . وقد قوبل اغتيال راسبوتين بارتياح عام من

الجميع ، ولكن البوليس السرى التابع للقيصر أمعن عقب هذا الحادث فى التنكيل والاضطهاد ..

وتفاقمت الازمة ، وسارت المظاهرات فى شوارع بتروجراد تطالب بالطعام . وفى الايام الاولى من مارس ، ومن خلال السخط الشامل الذى عم العمال ، وفجأة وبغير سابق انتظار انفجرت الثورة

وفى خلال خمسة ايام — من ٨ الى ١٢ مارس — انتصرت الثورة . لم تكن ثورة داخل القصر ، كما ارادها البعض . ولم تكن ثورة منظمة طبقا لخطة وضعها قادة معينون . ولكنها انفجرت من اسفل ، من بين أشد فئات العمال تعاسة وسخطا ، وانطلقت عاتية مغمضة العينين بغير هدف واضح أو قيادة واضحة

وكان الانفجار مفاجئا لجميع الاحزاب الثورية ، بما فيهم البلاشفة المحليون ، فلم يعرفوا لاول وهلة كيف يوجهونها . لقد بدأت الجماهير بالخطوة الاولى من تلقاء نفسها ، وفى اللحظة التى انضم فيها الجنود المرابطون فى بتروجراد الى الثوار ، كتب النصر للثورة . ولكن هذا لايعنى ان هذه الجماهير الثائرة كانت من نوع جماهير الغوغاء التى تستهدف التخريب والتى عرفناها فى الثورات السابقة ، فالجديد فى ثورة مارس هذه ان القيادة لاول مرة فى التاريخ ، كانت فى يد فئة عمال المصانع ، او «البروليتاريا» كما يسمونها . وبالرغم من ان هؤلاء العمال لم تكن لهم قيادة واضحة (اذ كان لينين ورفاقه فى السجن او المنفى) الا انه كان بينهم الكثيرون من العمال المجهولين الذين دربهم لينين ورفاقه . هؤلاء العمال المجهولون المدربون ، هم الذين كانوا العمود الفقرى لهذه الحركة كلها ، وهم الذين وجهوها الى مجاريها الحاسمة

وفى هذه التجربة ، نستطيع ان نرى بوضوح ، دور

الطبقة العاملة فى هذا العمل ، كانت روسيا كما قلت لك دولة زراعية بل وكانت الزراعة فيها متخلفة ، متفقة مع نظام الاقطاع .. وكانت الصناعات الحديثة قليلة ، مركزة فى مدن بذاتها . وكانت بتروجراد غاصة بهذه المصانع ، مما أوجد فيها عددا ضخما من العمال الصناعيين . وقد كانت ثورة مارس من صنع عمال بتروجراد وفرق الجيش المرابطة فى المدينة

سمعت المدينة أول صيحات الثورة فى ٨ مارس . وكان البدء للنساء . اذ خرجت العاملات من مصانع الغزل والنسيج وسرن فى مظاهرات ضخمة الى قلب المدينة

وفى اليوم التالى انتشر الاضراب فى سائر المصانع ، وانضم العمال من الرجال الى الحركة ، كانت الصيحات تطالب بالخبز وبسقوط « الاوتوقراطية » ، وأرسلت الحكومة فرق القوزاق ، التى كانت دائما سند القيصر ، لمهاجمة العمال المضربين وتشتيتهم . ولكن جنود القوزاق أخذوا يدفعون المتظاهرين دون أن يطلقوا عليهم النار ، ولاحظ العمال فى فرح ان الجنود انما هم أصدقاء لهم ، وان اختفت وجوههم خلف الاقنعة الرسمية ، وتزايدت حماسة الجماهير ، وانطلق المتظاهرون يحاولون كسب صداقة الجنود

وفى اليوم الثالث ، ١٠ مارس ، اتضحت الزمالة بين الجنود والمتظاهرين ، وسرت اشاعة تقول ان القوزاق أطلقوا النار على البوليس عندما حاول أن يتصدى للمظاهرات

وانسحب البوليس فعلا من المدينة . وتقدمت النساء العاملات الى الجنود يستعطفن ، وخفض الجنود ما بأيديهم من بنادق وحراب !

وكان اليوم التالى ، ١١ مارس ، يوم أحد ، وتجمع العمال فى قلب المدينة . وبدأ البوليس يطلق عليهم النار

من مخابئه . وأطلق بعض الجنود النار أيضا فذهب الناس الى مقر هؤلاء الجنود واحتجوا على ذلك . وتحركت بعض الفرق ، تحت قيادة بعض الضباط ، لحماية الجماهير ، وأطلقت النار على البوليس .

وقد ألقى القبض بعد ذلك على هذه الفرق ، ولكن الوقت قد فات ، فقد تطاير شرر الثورة الى الفرق الاخرى ، فخرجت يوم ١٢ مارس وانضمت الى المتظاهرين ، حاملة بنادقها الرشاشة . وغمر الرصاص شوارع المدينة دون أن يميز أحد بوضوح من الذى يطلق النار ، وعلى من . وتوجهت جموع الجنود والعمال للقبض على الوزراء الذين هرب بعضهم — وعلى رجال البوليس والجواسيس ، كما أطلقوا سراح المسجونين السياسيين

انتصرت الثورة اذا في بتروجراد • ثم لم تلبث موسكو أن تبعتها • وبقيت الاقاليم تنتظر التطورات • وشيئا فشيئا تقبل الفلاحون الحركة الجديدة ، ولكن بغير حماسة . كان اهم مايشغلهم هو : ان يملكوا الارض ، وان يتحقق السلام

ماذا عن القيصر ؟ ماذا كان يصنع خلال تلك الايام الحافلة ؟ لم يكن فى بتروجراد . كان بعيدا فى بلدة صغيرة، المفروض انه كان يقود جيوشه منها . ولكنه سقط بسهولة، دون أن يلحظ أحد ، كما تسقط الثمرة الفاسدة على الارض . لقد اختفى القيصر . الاوتوقراطى العظيم . . وحاكم روسيا بأكملها . . والرجل الذى كان يرتجف أمامه الملايين . . سقط فى سهولة تامة واختفى فى رماد التاريخ ، انه لمن العجيب حقا أن نرى كيف تنهار النظم الضخمة اذا بلغت غايتها واستنفدت مهمتها !

عندما سمع القيصر نبأ اضرابات العمال فى بتروجراد أمر باعلان الاحكام العرفية . . وكان المفروض أن يصل الامر

الى حكام المدن والاقاليم لتنفيذه ، ولكن الامر لم يصل الى احد ، اذ لم يكن هناك من يقوم بتوصيله ! لقد تحطم جهاز الحكومة وتمزق ، الى قطع صغيرة

وحاول القيصر ، وهو غير شاعر بكنه مايحدث ، ان يعود الى عاصمته . ولكن عمال السكك الحديدية أوقفوا قطاره فى الطريق وكانت القيصرة فى بلدة ريفية قريبة من بتروجراد ، فأرسلت برقية الى القيصر ، فأعادها اليها مكتب التلغراف . بعد ان كتب عليها احد الموظفين بالقلم الرصاص « عائد ، لعدم معرفة عنوان المرسل اليه ! »

وأدرك القواد فى الجبهة والزعماء المعتدلون فى بتروجراد خطورة الموقف فطلبوا من القيصر أن يتنازل عن العرش ، عساهم أن ينجحوا فى انقاذ مايمكن انقاذه

وتنازل القيصر على الفور ، وعين احد أقربائه ليتولى مكانه . ولكن زمن القياصرة قد مضى ، وبعد ٣٠ سنة من الحكم المطلق . كان على اسرة رومانوف كلها ان تبرح مسرح الحياة فى روسيا

اما الارستقراطيون ، والملاك الزراعيون ، والطبقات المتوسطة الكبيرة . وحتى الزعماء الاحرار والمصلحون ، فقد نظروا الى حركة الطبقات العاملة فى كثير من القلق والرعب ، وشعروا بأنهم تجردوا ازاءها من كل سلاح ، عندما انضم سندهم التقليدى — وهو الجيش — الى العمال . كانوا عاجزين فى أول الامر عن التكهن بمن سوف يكتب له النصر ، فقد كان محتملا ان يعود القيصر الى العاصمة على رأس جيشه ويخمد الثورة

ومضت عليهم أيام من التأرجح المرهق ، بين احتمال عودة القيصر واحتمال انتصار العمال ، ومن الرغبة الملحة فى ان ينجو كل منهم ولو بجلده فقط . وكان هناك «الدوما» وهو مجلس نيابى يمثل الملاك الزراعيين والطبقة المتوسطة

الكبيرة ، وقد مرت لحظة تطلع فيها العمال الثائرون الى هذا المجلس ليقودهم ولكن أعضاء المجلس بدلا من أن يقبضوا على زمام القيادة فى هذه الازمة ، جلسوا خائفين مرتعدين عاجزين عن اتخاذ أى قرار ..

وفي هذه الاثناء بدأت مجالس السوفييت تتكون . وأضيف الى ممثلى العمال ممثلون من الجنود ، واحتلت المجالس السوفييتية الجديدة جناحا كبيرا من قصر « توريد » الذى كان يشغل مجلس الدوما جناحا اخر منه. كان الثائرون تملؤهم الحماسة والثقة بعد أن كتب لهم النصر . ولكن لم يلبث ان واجههم السؤال الهام : ماذا يصنعون بعد ذلك ؟ لقد استولوا على السلطة ، فمن هو الذى يمارسها ؟ لم يخطر ببالهم قط أن هذا المجلس السوفييتى نفسه يمكن أن يمارس السلطة ، كانوا يعتقدون ان الوضع الطبيعى هو أن تتولى الطبقة المتوسطة الحكم . وذهب مندوب من السوفييت الى مجلس الدوما يطلب منه أن يختار من يحكم

وقد ظن أعضاء مجلس الدوما اول الامر ان هذا المندوب قد جاء ليقبض عليهم ! وكان الاعضاء جميعا عازفين عن تحمل المسئولية ، والتعرض للمخاطرة التى تنطوى عليها . ولكن ماذا يصنعون ؟ ان ممثل السوفييت مصر على أن يتولى المجلس السلطة ، والاعضاء خائفون من عاقبة الرفض أيضا . وخوفا من النتائج التي لايمكن التنبؤ بها ، قبلت جماعة من الاعضاء تولى السلطة ، وبدا للعالم الخارجى ان مجلس الدوما هو الذى يقود الثورة ! . أليس هذا كله غريبا ؟ . اننا لا نصدق مثل هذه الاحداث لو قرأناها فى احدى الروايات ، ولكن هذه هى الحقيقة ، وهى كثيرا ما تكون أغرب من الخيال !

كانت الوزارة التى شكلها الدوما وزارة محافظة جدا،

وكان رئيسها من أمراء بيت رومانوف . وفى الجناح الآخر من نفس المبنى كان يوجد مجلس السوفييت ، يتدخل باستمرار فى أعمال الحكومة . ولكن السوفييت نفسه كان معتدلا ، وكان البلاشفة فيه حفنة قليلة فحسب . وبذلك كانت فى روسيا أكثر من سلطة : الوزارة ، ومجلس السوفييت ، ثم الجماهير الثائرة التي حملت عبء الثورة ، والتى كانت تنتظر نتائج سريعة باهرة !

ولكن الشيء الوحيد الذى تلقته الجماهير الجائعة الثائرة هو نداء الحكومة لها بضرورة مواصلة القتال حتى يتم النصر الاخير على ألمانيا ! فمضوا يتساءلون .. أمن أجل هذا خاضوا غمار الثورة ، وعزلوا القيصر ؟

وفى هذه اللحظة بالذات ، فى ١٧ ابريل ، وصل لينين الى مسرح الحوادث . كان يقيم أثناء الحرب في سويسرا ، متحرقا للعودة الى روسيا منذ أن سمع أنباء الثورة . ولكن كيف يعود الى روسيا ؟ لا الانجليز ولا الفرنسيون ولا الالمان أو النمسويون سيسمحون له بالمرور من أراضيهم . ولكن الحكومة الالمانية عادت فوافقت على أن يجتاز ألمانيا من سويسرا الى روسيا فى قطار مغلق

وكان السبب الذى دفع الحكومة الالمانية الى الموافقة هو علمها بأن لينين يعارض الحرب ، فوصوله الى روسيا سوف يضعف مركز الحكومة ، ويرجح كفة الذين يدعون الى عقد الهدنة ، الامر الذى يوفر على ألمانيا مئونة القتال في الجبهة الشرقية . ولم تكن حكومة ألمانيا تتوقع طبعا أن تسفر هذه الثورة الغامضة عن المارد الجديد الذى هز أوروبا والعالم بأسره

ولم يكن فى ذهن لينين أى شك أو غموض ، كان له النظر الثاقب الذى يعرف به حقيقة التيارات بين الجماهير ، والذهن الواضح الذى يوفق به بين المبادىء الثابتة

والمواقف المتغيرة ، والارادة الصلبة التى تتشبث بما تريد ، بصرف النظر عن النتائج القريبة العاجلة • وفى يوم وصوله بالذات ، هز الحزب البلشفى فى عنف ،وحمل على ركود أعضائه ، ورسم فى كلمات ملتهبة ما يجب عليهم • قال لهم : « يجب أن نرتبط برغبات الجماهير ، واذا كان لا مفر من أن نبقى أقلية فلنكن كذلك ، انه لمن الخير أحيانا أن نبتعد عن مركز القيادة لبعض الوقت ، ولا يجب أن نخاف من بقائنا أقلية »

وهكذا تمسك بمبادئه ورفض أى مساومة • ووجدت الثورة التى بدأت غامضة معصوبة العينين قائدها • وخلقت الظروف رجلها المناسب

ولكن •• ما هو الخلاف الذى كان يفرق بين البلشفيك وبين المانشفيك وسائر الاحزاب الموجودة على المسرح ؟ وما الذى غير وضع البلاشفة بعد وصول لينين ؟ وما الذى جعل مجلس السوفييت بعد أن حصل على القوة ، يعود فيسلمها الى أعضاء الدوما المحافظين ، من الطراز القديم ؟ لا أريد أن أخوض وراء هذه الاسئلة الى أعماق بعيدة • ولكنه لابد لنا على أى حال من أن نقف عندها قليلا ، حتى نفهم تطور الدراما التى جرت على مسرح بتروجراد ، وروسيا كلها ، سنة ١٩١٧

ان فكرة كارل ماركس عن التطور الانسانى والتقدم ، وهى التى يطلق عليها اسم « التفسير المادى للتاريخ » تقوم على أساس أن هناك علاقات اجتماعية جديدة تأخذ مكان العلاقات القديمة بمجرد أن تستنفد هذه الاخيرة أغراضها ••

وان تطور وسائل الانتاج يؤدى الى تطور نظام المجتمع السياسى والاقتصادى • أما وسيلة هذا التطور ، فهو الصراع المستمر بين الطبقات ، بين الطبقات الحاكمة

والطبقات المحكومة وعلى هذا الاساس اخلت الطبقة الاقطاعية القديمة مكانها للطبقة البورجوازية التى تحكم الان في غرب أوروبا ، والتى يجب عليها ، طبقا لهذه النظرية ، أن تخلى مكانها للطبقة العاملة . وفي روسيا ، عندما نشبت الثورة ، كانت الطبقة الاقطاعية ما زالت قابضة على السلطة ، ولم يكن التغير الذى نقل السلطة الى الطبقة البورجوازية فى غرب أوروبا قد تم فى روسيا بعد . وعلى هذا الاساس رأى أغلب الماركسيين الروس أن روسيا يجب أن تنتقل أولا الى البورجوازية والبرلمانية قبل أن تنتقل الى مرحلة الجمهورية العمالية . أى أن المرحلة الثانية فى التطور لا يمكن القفز عليها وعدم المرور بها ، ولينين نفسه ، قبل ثورة مارس هذه ، كان قد وضع سياسة تقضى بالتعاون مع الفلاحين والطبقة المتوسطة ، للقضاء على القيصر وكبار الملاك ، أى بقيام ثورة « بورجوازية »

كان البلشفيك والمانشفيك والماركسيون جميعا اذا مؤمنين بفكرة تحقيق ديمقراطية « بورجوازية » على الطراز الفرنسى مثلا ، وكان زعماء العمال وممثلوهم أيضا يؤمنون بهذا الرأى . ومن أجل ذلك سلم مجلس السوفييت السلطة الى مجلس الدوما بدلا من أن يحتفظ بها لنفسه ، كان هؤلاء الناس ــ كما يحدث ــ قادرين على ادراك أن ثمة موقفا جديدا قد ظهر، وأن الموقف الجديد يحتاج الى خطة جديدة ، أو الى تعديل الخطة القديمة على الاقل . كانت الجماهير أكثر ثورية فى تلك اللحظة من قادتها . ونادى « المانشفيك » والذين كانوا يمثلون أغلبية فى مجلس السوفييت ان الطبقة العاملة يجب أن لا تثير الان أى قضية اجتماعية ، وان الطلب الاول المباشر هو تحقيق الحرية السياسية

وبوصول لينين ، تغير هذا كله · لقد أدرك ـ بعبقرية الزعيم الحقيقي ـ الموقف كله من الوهلة الاولى ، وعـرف كيف يغير البرنامج الماركسى بما يناسب الموقف الجديد · وأعلن أن الصراع يجب أن يكون ضد الرأسمالية نفسها · بقصد وضع مقاليد الحكم بين يدى الطبقة العاملةوالفلاحين الفقراء ··

وأعلن أن الشعارات الاولى للبلشفيك يجب أن تكون :

(١) جمهورية ديمقراطية (٢) مصـــــــادرة الاقطاعات الزراعية (٣) ٨ ساعات عمل فقط فى اليوم الواحد

وبظهور هذه الشعارات تبلورت الثورة بالفعـــل حول أهدافها ·· وأصبحت تعنى بالنســـــبة للناس مصالح واضحة محددة

وكانت خطة لينين أن يحرز البلشفيك الاغلبيـــــة فى صفوف العمال ،وبالتالى يسيطرون على مجلس السوفييت، ثم يعمل ،جلس السوفييت على أخذ السلطة من الحـكومة المركزية ·· لم يكن من رأيه أن تنشب ثورة أخرى على الفور ، وصمم على أن يحصل على أغلبية العمـــــــال أولا ، ثم على الاغلبية فى السوفييت · قبل أن يحـــاول اسقاط الحكومة · وكان قاسيا فى معـــــاملته لمن أرادوا التعاون مع الحكومة ، حتى رماهم بخيانة الثورة · وكان قاسيا بالمثل على الذين أرادوا اسقاط الحكومة قبـل أن يحين الوقت ، وكان يقول « ان عدم التنظيم ، هو أكبـر جريمة »

وهكذا ، بهدوء عجيب ، وكأنه رسول قدر لا مفر منه ، انطلق هذا الرجل الذى يشبه كرة الثـــلج التى تخفى فى باطنهـــــا نارا مسـتعرة ، الى غايته المرســـومة



الثورة السلمية فى الهند

١١ مايو ١٩٣٣ ..

يجب أن أروى لك شيئا عن الاحداث الاخيرة فى الهند. ولا شك أن كلانا مهتم بما يجرى فى بلادنا أكثر من اهتمامنا بما يجرى خارج الحدود. لذلك فان على أن أجاهد نفسى حتى لا أدخل ، وأنا أكتب لك هذا الخطاب ، فى تفاصيل كثيرة ..

وبصرف النظر عن اهتمامنا الخاص بالهند ، لانهـــا بلادنا ، فان الهند قد أصبحت بالفعل احدى مشاكل العالم كله ، ان بناء الاستعمار البريطانى كله يستند على الهند. وقد كان استعمار انجلترا للهند مثلا ناجحا احتـــذاه الاستعمار فى غيرها من البلاد ..

وقد حدثتك فى خطابات سابقة عن التغـــيرات التى حدثت فى الهند خلال الحرب العالمية (الاولى) ، وعن نمو الصناعة الهندية ونمو الطبقة الرأسمالية فى الهند ، وعن تحول موقف السياسة الانجليزية من الصناعات الهندية. كان الضغط الصناعى والتجارى من الهنـــد على انجلترا يتزايد باستمرار ، كالضـــغط السياسى سواء بســواء.

وكان الشرق بأكمله نغمره يقظة جديدة ، منذ أن انتهت الحرب • وبدت فى الهند عدة بوادر تنم عن نشاط ثورى عنيف • وتضخمت أحلام الناس • وشعرت الحكومة الانجليزية نفسها بأنه لابد من عمل شيء ، وبدأت تتخذ عدة خطوات فى الميدان السياسى بواسطة عمل تحقيق انتهى الى تقرير حوى بعض الاقتراحات وعرف باسم تقرير مونتاجو ـ شلمسفورد ـ كما اتخذت فى الميدان الاقتصادى عدة خطوات أرادت بها اعطاء بعض المزايا والمسكنات للطبقة المتوسطة النامية وان بقيت حريصة على بقاء جميع عناصر السلطة والاستغلال فى يدها كالمعتاد ••

وقد أعقبت الحرب فترة قصيرة من الرواج التجارى ، أدت الى تحقيق أرباح ضخمة ، خصوصا فى تجارة الجوت فى منطقة البنغال

ووصلت الارباح الى نسبة مائة فى المائة • وارتفعت الاسعار وارتفعت الاجور نتيجة لذلك ، ولكن بنسبة أقل • وبارتفاع الاسعار ارتفع الايجار الذى يجب أن يدفعه المستأجرون للملاك الزراعيين •• ثم جاءت الازمة ، وبدأت التجارة تميل الى الركود •• وساءت أحوال العمال الصناعيين والزراعيين وأخذ السخط يزداد بسرعة وانتشرت الاضرابات فى المصانع وكانت الحالة فى « أوده » بالذات بالغة السوء نظرا للنظام الزراعى الموجود هناك ، فنشبت حركة زراعية ناجحة انبثقت من تلقاء نفسها •• وبين المتعلمين من أبناء الطبقات المتوسطة الصغيرة ، انتشرت البطالة ، وأدت الى كثير من صنور الاملاق ••

تلك هى الظروف الاقتصادية التى كانت سائدة فى هذه الفترة التى أعقبت الحرب • فاذا استطعت أن تضعى هذه الظروف فى تقديرك ، فسوف يسهل عليك فهم

تطورات السياسة التى أعقبت ذلك . لقد كانت الروح الثائرة تسود البلاد ، وتعبر عن نفسها فى صور كثيرة ، كان العمال الصناعيون ينظمون انفسهم فى نقابات ، ثم فى مؤتمر لنقابات كل الهند ، وكان المزارعون وصغار الملاك الزراعيين ساخطين على الحكومة ، مترقبين أى صدام سياسى . حتى المستأجرين ، كالحرباء كانوا يحاولون التلون ، أما الطبقات المتوسطة ، خصوصا المتعطلين من أفرادها ، فقد كانوا مصممين على الاتجاه نحو العمل السياسى ، بل والى النشاط الثورى ايضا ..

كان الهندوس والمسلمون والسيخ يتساوون جميعا فى هذه الاحوال ، لان الظروف الاقتصادية فى ضغطها لاتفرق بين دين ودين ! ولكن المسلمين كانت ثورتهم على انجلترا أشد ، لدخولها الحرب ضد تركيا ، وما بدا من محاولتها الاستيلاء على جزيرة العرب ، وبلاد الشرق الادنى ، وما فيها من مدن مقدسة مثل مكة والمدينة والقدس

بدأت مقدمات السياسة الانجليزية الجديدة تظهر فى صورة اقتراحات بقوانين خاصة أريد بها السيطرة على الحركات الثورية التى كانت تبدو فى الافق .. أى أن انجلترا بدلا من أن تقدم للهنود مزيدا من الحرية ، عمدت الى مزيد من الكبت .. وكانت مشروعات القوانين هذه مبنية على أساس تقرير اسمه « تقرير رولات » ولكنها لم تلبث أن أطلق عليها اسم « القوانين السوداء » وهتف الجميع بسقوطها فى كل مكان ، واشترك فى هذا الموقف حتى أكثر الناس اعتدالا ، كانت القوانين تعطى الحكومة حق اعتقال من تشاء من الناس ، ووضعهم فى السجون بلا محاكمة أو محاكمتهم سرا .. وكان معنى هذا بالطبع وضع كل من لا ترضى عنه الحكومة فى السجن ..

وفى نفس الوقت الذى انتشرت فيه الحملة على هذه القوانين

ظهر فى أفق السياسة الهندية عامل جديد ، أو سحابة جديدة لم تلبث أن اتسعت حتى غطت سماء الهند كلها

كان هذا العامل الجديد: موهنداس كرامشاند غاندى . وكان غاندى قد عاد من جنوب افريقيا الى الهند خلال الحرب ، وأقام فى مستعمرة صغيرة فى « سابرماتى » وبقى طوال فترة الحرب بعيدا عن السياسة ، بل انه ساعد الحكومة فى حض الناس على التطوع للحرب ، وكان له صيت واسع فى الهند منذ تزعم حركة المقاومة السلبية فى جنوب افريقيا وفى سنة ١٩١٧ قاد بنجاح حركة الفلاحين التعساء الذين كانوا يعملون فى اراضى الاوروبيين فى بيهار . ثم وقف الى جانب الفلاحين مرة أخرى فى « كايرا » فى « جوجرات » ، وفى بداية سنة ١٩١٩ كان مريضا جدا

وعندما اقترب من الشفاء وجد حركة مقاومة قوانين رولات تملأ البلاد ، فضم صوته الى أصوات الملايين الساخطين

ولكن صوته كان مختلفا عن أصوات الاخرين . كان صوتا هادئا خفيضا ، ولكنه كان أعلى من جميع الصيحات التى يطلقها الاخرون . كان صوتا ناعما مهذبا ، ولكنه يخفى فى ثناياه نصلا حادا لايخطئه النظر . كان صوتا رقيقا مليئا بالرجاء ، منطويا على شىء مخيف ، كانت كل كلمة منه تحمل معنى ، وتحمل اخلاصا لا حد له . كانت لغة السلام والصداقة التى يتحدث بها تنم فى الوقت نفسه عن القوة ، والرغبة فى العمل ، والاصرار على عدم ارتكاب أى خطأ . ونحن الان معتادون على هذا الصوت اذ سمعناه كثيرا خلال الاربعة عشر عاما الماضية . ولكنه كان يبدو جديدا تماما علينا فى فبراير ومارس سنة ١٩١٩ ، وقد تأثرنا به جميعا ، وان لم نعرف فى البداية كيف نفيد منه . كان شيئا اخر يختلف تماما عن أحاديثنا الحماسية

فى السياسة .وخطبنا المليئة بكلمات الاتهام ، التى كانت تنتهى دائما بنفس الاحتجاجات التى لا يحملها أحد على محمل الجد • كان هذا الصوت الجديد يقدم لنا سياسة العمل ، لا سياسة الكلام

نظم غاندى حركة عصيان مدنى من أولئك الذين أبدوا استعدادهم لعصيان قوانين معينة ، ولدخـــول السجن بهذه الجريمة . كانت هذه الفكرة جديدة تماما . آمن بها الجميع ، وفزع منها الكثيرون ولكنها الآن أصبحت شيئا عاديا ، وأصبح كل واحـــد منا يعتبرها جزءا من روتين حياته !

بدأ غاندى ـ كالعادة ـ بارسال طلب مهذب وتحذير الى الحاكم العام ، .ونائب الملك . وعندما وجد ان الحكومة الانجليزية عازمة على تنفيذ القانون برغم معارضة الهند كلها ، دعا الى الاضراب يوما كاملا، بحيث تتوقف الحياة تماما فى الهند كلها فى اليوم التالى لاصدار هذا القانون. كان هذا الاضراب تمهيدا لحركة الساتياجراها . وبذلك اعتبر يوم ٦ ابريل سنة ١٩١٩ يوم الســـاتياجراها فى البلاد كلها ، المدن والقرى على السواء

كانت هذه الحركة أول مظاهرة تشترك فيها الهنـــد كلها . وقد كان تأثيرها عظيما . خصوصا وقد اشترك فيها جميع الناس من جميع الفئات

وقد دهشنا نحن الذين اشتركنا فى تنظيم الحركة من النجاح الذى حققته . كنا نظن اننا لن نستطيع أن نؤثر الا فى عدد قليل من الذين يسكنون المدن . ولكن الجو كانت تملؤه روح جديدة ، وبطريقة ما وصلت الدعوة الى أبعد قرية فى بلادنا الواسعة • ولاول مرة ، اشترك الفلاح كالعامل الصناعى فى حركة سياسية على هذا النطـــــاق الهائل ••

وقد اخطأت دلهى فى التاريخ ، فجعلت يوم اضرابها يوم السبت السابق على ٦ ابريل ، اى فى ٣١ مارس ، وكانت تلك الفترة أياما رائعة من الاخوة والزمالة بين الهندوس والمسلمين فى دلهى

وفى ٣١ مارس هذا ، حاول الجيش والبوليس أن يفرق الجماهير التى تجمعت فى الشوارع ، واطلق عليهـــــا النيران ، وسقط الكثيرون قتلى

وكان « سوامى شارد هاناند » يخطب فى الجمـــع الذى احتشد فى مســـجد «جام » فواجه ، بقامتـــه الطويلة النحيلة ، مفتوح الصدر ، ثابت العينين ، حراب الانجليز وبنادقهم . وقد نجا من هذه الحراب، واهتزت الهند كلها للحادث ، ولكنه لسوء الحظ ، قتل غيلة بعد ذلك بست سنوات ، وهو راقد على فراش مرضه ، بيد أحد المسلحين المتعصبين !

وأخذت الاحداث تمضى بسرعة بعد يوم الساتياجراها فى ٦ ابريل

ففى ١٠ ابريل ، فى ارمتسار ، ســـارت مظاهرة من المواطنين غير المسلحين ، يحتجون على اعتقال زعمائهم ، الدكتور كيتشلو والدكتور ساتيا بال وغيرهم ، وأطلق الجنود عليهم النيران وقتلوا الكثيرين، وانتقمت الجماهير لنفسها بالهجوم على بعض المؤسسات الانجليزية وبقتل خمسة او ستة من الانجليز الابرياء ، وهم جالسون الى مكاتبهم ، وباحراق البنك الذى يعملون فيه

وكأن ستارا حديديا نزل فعزل البنجاب عن ســـائر الهنـــد . الناس لا يخرجون منها ولا يدخلون اليها . والانباء الخاصة بها مقطوعة تماما . كان الانجليز قد أعلنوا الاحكام العرفية ، هناك ، وظلت معلنة بضعة شـــهور . وبعد عدة شهور من الترقب المتوتر القلق ، ارتفع الستار

شيئا فشيئا ، عن الحقيقة المرعبة

لن أروى لك الفظائع التى ارتكبت فى البنجاب ، فى ظل الاحكام العرفية ، فالعالم كله يعلم قصة المذبحة التى جرت يوم ١٣ ابريل فى أرمستار ، حيث سقط آلاف من القتلى فى تلك المصيدة التى أقيمت بحيث لا ينجو منهـــا أحد • لقد أصبح اسم « أرمستار » قرينا فى أذهاننا لكلمة « مذبحة » ، ولم تكن هذه هى المذبحة الوحيدة ، أو الاكثر بشاعة ، التى حدثت فى البنجاب كلها ••

انه لمن العسير على أى نفس أن تعفو عن هذه البربرية الشائنة ، ولو مضت عليها السنون ، وانه لمن العســـير أيضا تفسيرها • لقد كان الانجليز فى الهند يشعرون دائما بأنهم على فوهة بركان ، ولكنهم لم يحاولوا أبدا أن يفهموا ما فى رأس الهند وما فى قلبها ، كانوا يعيشون حياتهـــم فى الهند منعزلين معتمـــــدين على تنظيمهم الكبير ، وعلى القوة التى تسندهم ، ولكن خلف كل هـــذه الثقة التى يتدرعون بها ، كان يكمن فى نفوســـهم خوف غامض من المجهول . لقد ظلت الهند ، وبالرغم من هذا الاستعمار الطويل ، أرضا مجهولة بالنسبة لهم ، كانت ذكريات ثورة عام ١٨٥٧ حية على الدوام فى مخيلتهم ، وكانت هـــذه الذكريات كافية لكى يشعروا على الدوام بأنهم يقيمون فى أرض غريبة عنهم ، وبلاد كارهة لهم ، قد تنقلب عليهم فى اى لحظة •• تلك كانت عقيدتهم ، فلما رأوا حركة معادية واسعة تنشب فى الهند ، تحركت مخاوفهم وتنبهت . حتى اذا تلقى الرسميون فى البنجاب أنباء الحوادث الدامية التى جرت فى ارمتسار يوم ١٠ ابريل ، فقدوا السيطرة على أعصابهم تماما ، وظنوها ثورة دامية أخرى على نطاق واسع ، مثل ثورة ١٨٥٧ ، تهدد حياة السكان الانجليز بالخطر . لم يروا الا اللون الاحمر ، ولم يفـــكروا الا فى

الاعمال المرعبة . ولم تكن مذابح البنجاب والاحـــكام العرفية الا نتيجة لهذه العقلية ..

وقد يكون مفهوما أن يقدم الانسان وهو تحت سيطرة الخـوف علي تصرفات خاطئـــة ، حتى ولو لم تكن ثمـة أسباب جدية تبرر هذا الخوف

ولـــكن الذى أثار الهند أكثر من اى شيء آخر ، هو الطريقة التي برر بها الجنرال ديار ، المسئول عن المذبحة، تصرفه هذا بعد وقوعه بشهور ، وأسـلوبه البربرى فى اهمال العناية بآلاف الجرحى ، اذ قال « ليس هـــذا من شأنى!» وقد انتقدت بعض طوائف الشعب الانجليزى سلوك الجنرال ديار ، أما فى مجلس اللوردات ، فقد كان تصرفه محل ثناء عاطر ، اذ امطره الاعضاء بوابل من كلمات التقريظ . كل هذا ضاعف من تأجج الحقد الملتهب، بين الهنود ، فتكونت لجان للتحقيق ، وظل الناس يترقبون النتيجة ..

ومن ذلك الوقت ، أصـــبح ١٣ ابريل يوما قوميا فى الهند . وأصبحت الايام من ٦ الى ١٣ ابريل اســـبوعا قوميا كذلك . وأصبحت منطقة « جاليانوالا باج » التى وقعت فيها المذبحة مكانا للحج السياسى . وقد تحولت الآن الي حديقة جميلة ، ولكن الذكريات مازالت ترفرف فى سمائها الى الآن

وقد انعقد المؤتمر فى تلك السنة ، بمحض المصادفة ، فى « أمريتسار » نفسها . ولم يصل المؤتمر فى تلك الدورة الى قرار هام

ولكن كان واضحا ان هذا المؤتمر قد تغير تغيرا كبيرا. فقد أصبحت له الآن شخصية جماعية ، وحيوية جديدة دافقة ، بل ومزعجة بالنسبة لرجال المؤتمر القدامى . كان هناك « لوكامانيا تيلاك » الذى لا يقبـــل مساومة ،

يحضر آخر دورة لحزب المؤتمر ، اذ أنه مات قبل أن تنعقد دورة العام التالى . وكان هناك غاندى معبود الجماهير ، فى بدء سيطرته السياسية الطويلة على المؤتمر بل وعلى الهند كلها

وجاء الى المؤتمر أيضا ، من السجن رأسا ، كثير من الزعماء الذين لفقت لهم قضايا كثيرة فى فترة اعلان الاحكام العرفية ، وحكم عليهم بالسجن مددا طويلة ، ثم أطلق سراحهم . والاخوة « على » المشهورون الذين أفرج عنهم بعد اعتقال دام سنوات طويلة ..

وفى العام التالى ، أقدم المؤتمر على المخاطرة ، وقـــرر الاخذ ببرنامج غاندى الخاص بعدم التعاون

كانت خطة الصراع التى رسمها غاندى خطة ســـلمية تماما ، تقوم على «عدم العنف» وهو الوصف الذى عرفت به .. وتتلخص فى رفض التعاون مع الحكومة فى ادارتها واستغلالها للهند بأى صورة من الصور . وكانت الخطـة تقضى بأن تبدأ المقاطعة ببعض الصور البسيطة مثل رفض الالقاب المعطاة من الحكومة الاجنبية ، والمناصب الرسمية ، ومقاطعة المحاكم سواء من المحامين أو المتقاضين ، والمدارس والكليات الحكومية . ثم تمتد المقاطعة بعد ذلك الى الخدمة العسكرية ، ودفع الضرائب . وكان للحركة جانب بنائى ، أو ايجابى ، أول بنوده اقتناء المغازل اليدوية واســـتعمالها فى غزل الاقمشة ، وتكوين هيئات تحكيم أهلية تحل محل المحاكم فى الفصل فى المنازعات وكان ثمة فى البرنامج بندان هامان : الاول هو التآخى والوحدة بين الهنـــدوس والمسلمين ، والثانى هو رفع الحاجز الذى يفصل المنبوذين ، ويقضى بعدم لمسهم أو مشاركتهم الطعام ..

وفى نفس الوقت غير المؤتمر قانونه الاساسى ، بحيث تحول الى هيئة قادرة على العمل الايجـــابى ، وأصبحت

عضويته مفتوحة للجميع ..
كان هذا البرنامج جديدا تماما على المؤتمر ، بل انه كان جديدا تماما على العالم كله ، ذلك أن حركة «الساتياجراها» التى جزت فى جنوب أفريقيا كانت فى نطاق محدود جدا . وكان هذا البرنامج أيضا يتطلب تضحيات كبيرة عاجلة من كثير من الناس ، كالمحامين مثلا ، الذين كان عليهم أن يهجروا عملهم ، والطلبـــــة الذين كان لابد لهم من ترك الكليات الحكومية . كان من الصعب جدا توجيه هـــذه الحركة والتحكم فيها . فلم يكن غريبا أن يتردد أمامهـا رجال المؤتمر القدامى المجربين وأن تمتلىء نفوسهم بالشك. فلم ينضم الى غاندى فى المراحل الاولى من رجال المؤتمر القدامى غير واحد فقط ، هو موتيلال نهرو (١) أما رجل المؤتمر العادى ، أما رجل الشارع ، أما الجماهير كلها ، فلم يكن هناك أى شك فى موقفها ، لكأنما دفع غاندى هذه الجماهير الى التحرك بنوع من السحر والتنويم المغناطيسى ! فانطلقت تعبر بهتافها « مهاتما غاندى » عن تأييدها للدعوة الجديدة ، دعوة المقاطعة وعدم التعاون . وكان المسلمون فى حماستهم لهذه الخطة كالاخرين تماما . بل ان مجلس الخلافة ، بزعامة الاخوة « على » أقر البرنامج ووافق عليه قبل أن يوافق عليه حزب المؤتمر . ولما تبدى تأييد الجماهير للبرنامج على هذا النحو ، ونجحت خطواته الاولى ، انضم الى الحركة أغلب القـــــدامى من زعماء المؤتمر ، الذين كانوا مترددين ..

ولست بمستطيع أن أوضح فى هذه الرسائل ، مزايا هذه الحركة وعيوبها ، أو أن أشرح فلسفتها ، فتلك مسألة معقدة حقا ، وربما لا يقدر على تقديم اجابة صحيحة لهـــا غير رجل واحد ، هو غاندى . ولكن لا بأس من أن ننظر

(١) والد نهرو

اليها ولو من الخارج فحسب ، وأن نحاول فهم سر نجاحها وانتشارها بهذه السرعة

لقد حدثتك عن ضغط الظروف الاقتصادية على سواد الناس وعن تطور أحوالهم من سيء الى أسوأ ، نتيجة للاستغلال الاجنبى وعن انتشار البطالة بين فئات الطبقة المتوسطة ، فما هو علاج هذه الاحوال ؟ لقد أدى انتشار الوعى الوطنى الى اقتناع الناس بحاجتهم الملحة الى الحرية السياسية ، ولم تكن الحرية شيئا ضروريا لمجرد أنه من المهانة أن يكون الناس عبيدا غير مستقلين ، ولا لمجرد أن الحرية حق طبيعي ولد مع كل انسان ، ولكنها كانت ضرورية أيضا لتخفيف عبء الفقر الذى تنوء تحته كواهل المواطنين • فكيف نحصل على هذه الحرية ؟ اننا بالطبع لن نحصل عليها بالرضوخ والهدوء والانتظار

ومن الواضح أيضا أن وسائل الرجاء والاحتجاج التى جرى المؤتمر على التوسل بها كانت غير مجدية ، ومثبطة لهمم الجماهير • فلم يحدث فى التاريخ كله أن نجحت هذه الوسائل فى اقناع الطبقات الحاكمة بترك مقاعد الحكم • ولم يحدث فى التاريخ أن نجحت الجماهير المستعبدة فى نيل حريتها الا بوسائل العنف والثورة والاضطراب

أما عن الثورة المسلحة ، فانها كانت بعيدة عن تفكير الشعب الهندى • فقد كنا جميعا غير مسلحين ، وأكثرنا لا يعرف كيف يستعمل السلاح • هذا الى أنه ، فى أى صراع مسلح ، يكتب الفوز دائما للقوة الحكومية المنظمة على أى قوة يمكن أن تقوم فى وجهها • قد تعمد الجيوش الى العصيان فتنجح ، أما الجماهير العزلاء فانها لا تقدر أبدا على مواجهة القوات المسلحة ••

وأما عن خطة الارهاب الفردى ، بواسطة الاغتيال والقاء القنابل على الجنود ، وهم فرادى ، فانها خطة افلاس ! انها

خطة تنطوى على الدباءة ، ومن الحماقة أن نتصور أنها قد تهز حكومة قوية منظمة ، مهما نجحت فى افزاع أفراد هذه الحكومة ..

اذا .. فماذا بقى ؟ لقد نجحت روسيا فى ثورتها وأقامت جمهورية عمالية ، وكان أسلوبها العمل الجماعى الذى يسنده الجيش .. ولكنه حتى هذه الثورة انما نجحت فى فترة وصلت الحكومة الروسية فيها الى ذروة الانهيار والتمزق ، نتيجة للحرب ، فلم يبق أى جهاز قوى يمكن أن يقاوم الثورة ..

هكذا كان يبدو أن كل الطرق للخلاص من هذه الاحوال مسدودة . وشعرت الجماهير الحساسة بهذا الموقف فركنت الى الانهيار واليأس . وفى تلك اللحظة بالذات، أعلن غاندى خطة عدم التعاون . وكانت كخطة « السين فين » فى ايرلندا تدعونا الى الاعتماد على أنفسنا ، كما كانت مؤدية بغير شك الى ايقاع نوع من الضغط الشديد على الحكومة ، فلا شك أن كل حكومة تعتمد اعتمادا أساسيا على تعاون المواطنين ، راضين أم كارهين فلو أن هذا التعاون توقف ، والمقاطعة نفذت ، فانه من المؤكد ـ من الناحية النظرية على الاقل ـ أن يتحطم البناء الحكومى كله . حتى ولو لم تمض حركة عدم التعاون الى نهايتها ، فلا شك أن أى قدر منها كاف للضغط على الحكومة من ناحية ، وتنمية قوة الجماهير من جهة أخرى

ان حركة عدم التعاون هذه حركة سلمية تماما ، ولكنها ليست كما يتصورها البعض مجرد « عدم مقاومة » . انها نوع صارم عنيف من المقاومة ، ولكنها مقاومة بغير عنف . انها ثورة سلمية ، وحرب هى أكثر أنواع الحروب تحضرا ، وسلاح قادر على الحاق الضرر ببنيان الدولة الى أقصى الحدود . انها أسلوب فريد فى تحريك الجماهير الى العمل .

وهى تجعلنا نحن الثائرين فى جانب حق واضح ، وتجعل خصومنا هم المعتدون • وقد خلقت فينا هذه المقاومة معرفة كيف نتخلص من الخوف الذى كان يملؤنا ، وجعلتنا ننظر الى الناس فى عيونهم كما لم نفعل قط ، ونقول كل ما يدور فى رؤوسنا بصراحة لكأن كابوسا ثقيلا ارتفع عن عقولنا ! وكأن هذه الحرية الجديدة •• حرية الكلام والعمل ، قد ملأتنا قوة وثقة ، وأخيرا ، فان هذا الاسلوب السلمى ، حال دون ظهور الحزازات الدينية والعنصرية التى كانت تظهر عندنا فى كل صراع

فلم يكن غريبا اذا ، حين اقترن هذا البرنامج الجديد بشخصية غاندى الساحرة ، أن تتحمس الجماهير له وتمتلىء بالامل • لقد انتشرت هذه الدعوة بسرعة وقضت على كل خوف قديم • واجتذب المؤتمر فى صورته الجديدة كل العناصر الحيوية فى البلاد ، فأصبح أكثر نفوذا وأعظم قوة ••

وفى نفس الوقت ، كان الانجليز يطبقون برنامج مونتاجو شلمسفورد للاصلاح ويكونون المجالس • وقد رحب المعتدلون الذين يسمون أنفسهم الان « الاحرار » بهذه المجالس ، وأصبحوا وزراء وتولوا كثيرا من المناصب • أى أنهم انضموا فى الواقع الى جهاز الحكومة ولم يعد لهم أى وزن شعبى • أما المؤتمر فقد قاطع هذه المجالس التشريعية، مما جعلها هزيلة تافهة ، لا يهتم بها أحد

لقد اتجهت كل الانظار الى الكفاح الحقيقى الذى أخذ ينتشر فى المدن والقرى • ولاول مرة فى تاريخ الهند ، ذهب كثيرون من العمال أعضاء المؤتمر الى القرى يكونون فيها « مؤتمرات صغيرة » لايقاظ الوعى السياسى بين الفلاحين ••

وأخذت الاحداث تتطور بسرعة ، حتى وصلت الى

ذروتها ، ووقع الصدام الذى لا مفر منه ، فى ديسمبر سنة ١٩٢١ ..

أما مناسبة هذا الصدام فقد كانت زيارة أمير ويلز ولى عهد انجلترا للهند ومقاطعة المؤتمر لها ، فقد ألقت الحكومة القبض على الناس بالجملة فى جميع أنحاء الهند حتى امتلأت السجون بالساسة .. واجتاز معظمنا أول تجربة له فى داخل السجن . حتى الرئيس المنتخب للمؤتمر ، وشيباندو شيتا رانجان داس ألقى القبض عليه ، فشغل مكانه حكيم اجمل خان ، ولكن غاندى نفسه لم يقبض عليه .ونجحت الحركة ، وزاد عدد الذين تقدموا يريدون دخول السجن على عدد الذين سجنتهم الحكومة بالفعل ، وكلما قبضت الحكومة على أحد من الزعماء المعروفين حل محله زعيم غير معروف ، وفى بعض الاحيان غير مرغوب ، « من البوليس السرى مثلا » ، مما أدى الى تحويل الحركة فى اتجاه الفوضى ، والعنف .. وفى أوائل عام ١٩٢٢ وقع صدام بين البوليس وجماهير من الفلاحين فى « شوزا شورى » انتهى باحراق الجماهير لمركز البوليس بما فيه من جنود ..

وقد أصيب غاندى بصدمة عنيفة من جراء هذا الحادث وغيره من الحوادث المشابهة ، التى دلت على أن الحركة بدأت تتسم بالعنف وعدم التنظيم ، وبناء على اقتراح منه ، أوقف المؤتمر العمل بالبند الخاص بخرق القوانين فى برنامج عدم التعاون .. وبعد ذلك بقليل القى القبض على غاندى ، وقدم الى المحاكمة وحكم عليه بالسجن ست سنوات وبذلك انتهت المرحلة الاولى من مراحل حركة المقاطعة وعدم التعاون ..



الفاشية..

٢١ يونيو سنة ١٩٣٣

رويت لك فى الخطابات السابقة كل شيء عن أوروبا حتى سنة ١٩٢٩ ، على ان هناك نقطة هامة أغفلتها عامدا ، كى أخصص لهاهذه الرسالة . تلك هى قصة الاحداث التى جرت فى ايطاليا بعد الحرب العالمية ، وليست اهمية هذه الاحداث فى أنها جرت فى ايطاليا ، ولكن فى انها نوع جديد من انواع الصراع فى العالم كله . وعلى ذلك فسوف احدثك فى هذا الخطاب عن الفاشية ، وعن موسولينى ، احد الشخصيات البارزة فى عصرنا هذا

كانت ايطاليا قبل ان تنشب الحرب العالمية « الاولى » فى حالة اقتصادية سيئة

وقد اشتبكت مع تركيا فى حرب انتهت بانتصارها واستيلائها على ليبيا ، مما ارضى الاستعماريين فيها . على ان هذه الحرب الصغيرة لم تحل شيئا من مشاكلها الاقتصادية . بل لقد تفاقمت الحالة الاقتصادية فيها حتى بدت فى سنة ١٩١٤ ، وكأنها على وشك ثورة عارمة : انتشرت الاضرابات الضخمة فى المصانع ، فلم يكن يمسك بزمام العمال ويخفف من حدتهم الا الزعماء الاشتراكيون المتدلون الذين نجحوا فى اخماد هذه الاضرابات ..

ثم جاءت الحرب ، ورفضت ايطاليا ان تنضم الى حليفتها المانيا ، وحاولت أن تقف موقفا حياديا بغية الكسب من التعامل مع العسكريين

ولا شك ان هذا الموقف الذى ينطوى على المساومة بين المعسكرين والانضمام لمن يدفع اكثر ، ليس بالموقف الشريف ، ولكن الدول تعودت أن تتجرد من الاخلاق التى يلتزم بها الافراد وهى لذلك كثيرا ما تتصرف على نحو يخجل منه الافراد العاديون وقد استطاعت انجلترا وفرنسا أن تدفعا رشوة أكبر ، وبذلك دخلت ايطاليا الحرب الى جانبهما فى

مايو سنة ١٩١٥ ، وكان الثمن معاهدة سرية تعطى ايطاليا قطعة من الارض فى آسيا الصغرى والبلقان ..

ولكن الثورة الروسية نشبت قبل أن تنفذ هذه الاتفاقية فضاعت الصفقة ، وكان ضياع هذه الصفقة سببا فى سخط الايطاليين ..

وقد ضاعف من سخطهم انهم خرجوا مغبونين من سوق المساومات فى مؤتمر الصلح بفرساى ، بعد ان كانت الرأسمالية والبورجوازية الايطالية قد وضعت املها فى المستعمرات التى سوف تظفر بها ، وتخفف ــ على حسابها ــ حدة الازمة فى ايطاليا ..

وساءت الاحوال فى ايطاليا بعد الحرب اكثر مما ساءت فى أى مكان آخر . وبدا أن النظام الاقتصادى يتداعى ، وان انصار الشيوعية والاشتراكية يتزايدون . وكان شبح الثورة الروسية ماثلا للعيان ..

كان هناك من ناحية عمال المصانع الذين يقاسون قسوة الحياة ومن ناحية اخرى كان هناك الجنود المسرحون بعد الحرب بلا عمل . . وحاول زعماء الطبقة المتوسطة ان ينظموا هؤلاء الجنود ليقاوموا بهم قوة العمال النامية ..

وفى سنة ١٩٢٠ بدأت الازمة . اعلن اتحاد عمال المعادن الذى يضم نصف مليون عامل ، مطالبته بزيادة الاجور . ورفض هذا الطلب ، فتقرر العمال أن يضربوا واختاروا نوعا جديدا من الاضراب ، هو : ان يذهبوا الى المصانع دون ان يعملوا شيئا . وهو نوع من الاضراب ابتكره النقابيون فى فرنسا قبل ذلك بزمن . ورد اصحاب المصانع على ذلك باغلاق مصانعهم . وهنا استولى العمال على المصانع وحاولوا ان يديروها على أسس اشتراكية ! ..

كان هذا العمل من العمال ثوريا تماما . ولو استمر لادى اما الى ثورة اجتماعية واسعة ، واما الى كارثة شاملة .. اذ لم تعد هناك فرصة لاى حل وسط ..

وكان الحزب الاشتراكى فى ذلك الوقت قويا جدا فى ايطاليا ، فالى جانب سيطرته على نقابات العمال ، كان يسيطر على ٣٠٠٠ بلدية ومجلس محلى وكان له ١٥٠ نائبا فى البرلمان . والحزب اذا كان قويا، شرعيا ، يمتلك مؤسسات كبيرة ، ويشغل مراكز هامة فى الدولة ، فانه من الصعب عليه جدا ان يكون ثوريا . ومع ذلك فان هذا الحزب ــ رغم كثرة عدد المعتدلين فيه أيد تصرف العمال . أيده ثم لم يصنع أى شىء آخر ..

ولم يشأ الحزب أن يتراجع ، ولكنه لم يجسر على المضى الى الامام . فاختار موقفا وسطا . وكما يحدث لكل من يتشكك ويتردد فى اتخاذ القرار الحاسم فى الوقت المناسب ، تعرض الحزب لهزيمة ساحقة واضطهاد بالغ . وبسبب هذا التردد من الزعماء ، فشلت حركة العمال فى الاستيلاء على المصانع

وقد شجع هذا الفشل أصحاب المصانع وكشف لهم عن أن تقديرهم لقوى العمال وزعمائهم كان مبالغا فيه ! فبدأوا يفكرون في خطة للانتقام، ولتحطيم الحركة العمالية والحزب الاشتراكي

وكانت اول قوة فكروا في الاستعانة بها ، جماعة المغامرين التي تكونت سنة ١٩١٩ ، من الجنود المسرحين ، بقيادة بنيتو موسوليني ، كانت تدعى « الفرق الفاشية » وهدفها انتهاز كل فرصة لمهاجمة الاشتراكيين ومؤسساتهم كأن يحطموا مطبعة احدى الصحف الاشتراكية، أو يهاجموا مجلسا بلديا او تعاونيا يسيطر عليه الاشتراكيون ، وأخذ كبار الرأسماليين وابناء الطبقة المتوسطة الكبيرة يمولون هذه الفرق الفاشستية ، ويحاولون استخدامها في مقاومة الاشتراكية . حتى الحكومة كانت تشجعها من اجل تحطيم قوة الحزب الاشتراكي ..

فمن هو بنيتو موسوليني ، الرجل الذي نظم هذه الفرق ؟ ..

كان في ذلك الوقت شابا مغامرا . وكان أبوه اسكافيا اشتراكيا مما جعل موسوليني نفسه يشب وفي ذهنه كثير من الافكار الاشتراكية. وفي صباه اصبح مهيجا عنيفا ، وطرد اكثر من مرة من عدة مقاطعات سويسرية من أجل دعايته الثورية . وكان يهاجم الزعماء الاشتراكيين المعتدلين بشدة على اعتدالهم ، وكان يدعو علناً الى استخدام القنابل وشتى وسائل العنف ضد الدولة

وفي خلال حرب ايطاليا مع تركيا كان اكثر الزعماء الاشتراكيين يؤيدون الحرب . ولكن موسوليني لم يؤيدها . والقى في السجن عدة مرات لأنه استخدم وسائل عنيفة في معارضتها

وقد اشتد في حملاته على الزعماء الاشتراكيين لتأييدهم هذه الحرب حتى نجح في اقناع الحزب بطردهم من حظيرته ، واصبح هو رئيس تحرير الجريدة اليومية الاشتراكية « افانتي » ، وكانت تصدر في ميلان، ومضى يكتب فيها داعيا العمال الى العنف وهي دعوة كانت تقابل بالمعارضة القوية من الاشتراكيين المعتدلين ..

ثم جاءت الحرب العالمية « الاولى » ولبضعة شهور ظل موسوليني يعارض اشتراك ايطاليا في الحرب ويدعو الى الحياد . ولكنه فجأة غير آراءه جميعا ، وأعلن انضمامه الى الحلفاء ، وترك الجريدة الاشتراكية ، وأصدر جريدة جديدة يدعو فيها الى سياسته الجديدة، فطردوه من الحزب الاشتراكي . وبعد قليل تطوع في الحرب كجندي عادي وحارب في الجبهة الايطالية ، حتى سقط جريحا

ولما انتهت الحرب ، لم يعد موسوليني يسمي نفسه اشتراكيا اصبح شخصا عائما لا يربطه شيء ، لا يحبه الاشتراكيون ولا صلة له قط بالعمال ، وبدأ يهاجم الاشتراكية بل والدولة البورجوازية أيضا . هاجم كل شكل من اشكال الدولة ، وسمى نفسه « فرديا » ، ودعا الى الفوضوية . كتب في ذلك مقالات صريحة . أعلن بعدها عن تكوين « الفاشية » ..

ث مارس سنة ١٩١٩ ، جند الجنود المسرحين فى فرق مقاتلةوكان اسلوب هذه الفرق هو العنف ، ولما كانت الحكومات تساعد هذه الفرق ولا تقاومها ، فقد زاد عدوانها وجرائها ، وكثيرا ماكان العمال فى المدن يشتبكون مع هذه الفرق فى قتال منظم ويطردونها . ولكن الزعماء الاشتراكيين قاوموا فكرة مقابلة العنف بالعنف .. ودعوا العمال الى مقابلة الارهاب الفاشى بالسلم والهدوء ، أملا فى أن تتعب الفاشية وتسكن ، ولكن الفرق الفاشية على العكس تزايدت قوتها، بفضل أموال الاغنياء وتغاضى الحكومة ، بينما فقد الرأى العام روح المقاومة التى كانت لديه ضد هذه الفرق ..

وقد اتجه الفاشست بزعامة موسولينى الى الخلط بين دعوتين متعارضتين : الاولى انهم أعداء الاشتراكية والشيوعية . وبذلك ضمنوا تأييد الطبقات الغنية . ولكن موسولينى كان اشتراكيا سابقا،وسطوره مملوءة بالشعارات المعادية للرأسمالية ، مما كان يعجب الطبقات الفقيرة .. وهكذا اصبحت الفاشية مزيجا يمكن تفسيره بأكثر من معنى! فهى حركة رأسمالية تصيح بهتافات معادية للرأسمالية . اما العمود الفقرى لها فكان من الطبقة المتوسطة ، خصوصا الصغيرة منها.كذلك جذبت هذه الحركة العمال العاطلين والذين تنظمهم نقابات . وبما انه لاشىء ينجح مثل النجاح ، كما حدث عندما استطاع الفاشست ان يرغموا التجار بالقوة مثلا على تخفيض الاسعار ، فكسبوا عطف رجل الشارع ، فقد انضم الى الحركة كل المغامرين وان ظلت بالرغم من ذلك لا تمثل من الناس الا اقلية بسيطة

وهكذا ، بينما كان القادة الاشتراكيون يتشككون ويترددون ويتنازعون فيما بينهم ، وتقع الانقسامات فى حزبهم ، نمت قوة الفاشية .. وقد كان عجيبا أن يجمع موسولينى فى حزبه كل هذه المتناقضات ، وأن يقنع كل فئة بأن الحركة الفاشية هى حركتها .. الاغنياء يرون فيه المدافع عن أملاكهم ، ويعتبرون كلماته وشعاراته المعادية للرأسمالية مجرد سطور جوفاء لخداع الجماهير ، والفقراء يعتقدون انها حركة ضد الرأسمالية ، وان الباقى ضحك على ذقون الأغنياء !

وهكذا مضى موسولينى يتكلم للفقراء يوما ، وللاغنياء يوما اخر،وان كان فى حقيقته صنيعة للطبقة الغنية التى تموله والتى تستخدمه لتحطيم قوة الاشتراكية التى باتت تهدد مصالحهم ..

وأخيرا ، فى أكتوبر سنة ١٩٢٢ ، زحفت الفرق الفاشستية على روما . وحاول رئيس الوزراء — الذي كان يعطف على هذه الفرق — ان يعلن الاحكام العرفية ، ولكن الملك نفسه كان قد اصبح فى صف موسولينى .. فرفض التوقيع على قرار اعلان الاحكام العرفية،وقبل استقالة رئيس الوزارة .. ودعا موسولينى الى تشكيل الوزارة الجديدة ..

ووصل الجيش الفاشيستى الى روما فى ٣٠ اكتوبر سنة ١٩٢٢وفى

نفس اليوم وصل موسوليني من ميلانو بالقطار ، ليصبح رئيسا للوزارة

انتصرت الفاشية اذا ، واستولي موسوليني على الحكم . لكن لاية غاية ؟ وما هو برنامجه وسياسته ؟ ان الحركات الكبرى لابد أن تقوم على اساس مذهب واضح ينمو ويتبلور حول مبادىء ثابتة واهداف ينظمها برنامج محدد . ولكن الفاشية تنفرد بأنه ليس لها مذهب تدين به ولا فلسفة تقف خلفها .. اللهم الا اذا كان مجرد مقاومة الاشتراكية والحرية يمكن أن يكون فلسفة !

لقد اعلن موسوليني سنة ١٩٢٠ ـ بعد عام واحد من تكوين المنظمات الفاشستية : « ان الفاشيين ، وان كانوا غير مرتبطين بمبادىء معينة ، الا أنهم يسعون باستمرار نحو هدف واحد ، ذلك هو رخاء الشعب الايطالي ! » وواضح ان هذا الهدف لا يعتبر سياسة معينة . فانه من السهل على اى مخلوق ان يقول انه يسعى الى رخاء شعبه . وفي سنة ١٩٢٢ ، وقبل الزحف على روما بشهر واحد قال موسوليني : ان برنامجنا بسيط جدا .. اننا نريد أن نحكم ايطاليا !

وقد اوضح موسوليني هذه الحقيقة مرة اخرى فى مقال كتبه فى « الانسكليوبيديا الايطالية » عن أصل الفاشية .. فقد قال انه لم تكن لديه خطط معينة للمستقبل عندما قرر الزحف على روما ! ولكنه فقط قرر استغلال الازمة للقيام بمغامرته متأثرا فى ذلك بما تعلمه أيام كان اشتراكيا ..

والفاشية ، وان لم يكن لها اى مبدأ او عقيدة الا ان لها أسلوبا أكيدا فى العنف والارهاب وانه ليكفى ان نعرف نظرتها الى التاريخ حتى نفهمها على حقيقتها

اما رمزها اخذوه من رمز قديم كان يحمله الاباطرة الرومان القدامى وهو عبارة عن حزمة من العصى فى وسطها بلطة ، وهذه الحزمة اسمها اللاتنى « فاسش » ومن هنا جاء اسم الفاشستية . اما المنظمات الفاشستية فقد أخذ نظامها أيضا من التشكيلات الحربية فى روما القديمة

والسلام الفاشستى هو نفس السلام الذى كان مستعملا فى روما القديمة برفع الذراع مبسوطا الى الامام ..

اذا فقد كان الفاشيست ينظرون الى امبراطورية روما القديمة ويستلهمونها ! أى ان نظرتهم استعمارية ، وقد كان شعارهم « لامناقشة بل طاعة فقط ! » وهو شعار قد يناسب الجيوش المحاربة ولكنه قطعا لا يناسب الشعوب ! . وكان اسم قائدهم موسوليني « الدولشى » وهى الترجمة الايطالية لكلمة « دكتاتور » وكان زيهم الرسمى عبارة عن قميص اسود ومن اجل ذلك عرفوا باسم « القمصان السود » . .

ولما كان برنامج الفاشيست الوحيد هو الحصول على السلطة فقد تحقق لهم هذا البرنامج فعلا بتعيين موسوليني على الفور يدعم مركزه

عن طريق تحطيم المعارضة وتدمير الخصوم . وبدأت موجة عاتية من العنف والارهاب تجتاح ايطاليا . وقد استعمل العنف فى التاريخ كثيرا ، ولكنه كان يستعمل دائما مصحوبا بالاعذار والمبررات ، باعتبار انه ضرورة مؤلمة . أما الفاشية فانها لا تقف من هذا العنف موقف الاعتذار . ان الفاشيين يدعون الى العنف ويشيدون به علنا . وهم يمارسونه ، حتى ولو لم توجد اى مقاومة

لقد لجأ موسولينى الى ارهاب اعضاء البرلمان عن طريق الاعتداء عليهم بالضرب المبرح ، فأرغمهم بهذا الاسلوب على اقرار قانون انتخابى . كان بمثابة الغاء للدستور . وحصل موسولينى على هذا الاقرار بأغلبية كبيرة .. !

وقد كان غريبا حقا أن يستمر الفاشيون فى أعمال العنف غير المشروعة حتى بعد أن أصبحوا فى الحكم ، يسيطرون على البوليس وشتى أجهزة الدولة ..

نعم لقد ظلوا يزاولون العنف غير المشروع بعد ان اصبح من حقهم ان يمنعوا البوليس من التدخل . لقد ارتكبوا جرائم القتل والتعذيب والضرب وتدمير الممتلكات . وكان هناك أسلوب فريد تميزوا به هو ارغام المعارضين على تعاطى كميات فظيعة من المسهلات !

وفى سنة ١٩٢٤ اهتزت اوروبا كلها بحادث اغتيال «جياكومو ماتيوتى» عضو البرلمان الايطالى ، والزعيم الاشتراكى الكبير . لقد وقف فى البرلمان وهاجم الاساليب الفاشية خلال الانتخابات التى أجريت فى ذلك الوقت وبعد خطبته هذه بأيام قليلة تم اغتياله . وحوكم القتلة محاكمة صورية ، انتهت بتركهم دون عقاب . كذلك مات زعيم من زعماء الاحرار اسمه « امندولان » نتيجة للضرب المبرح ، واستطاع رئيس وزارة سابق اسمه « نيتى » أن يفر من ايطاليا . وهذا كله غير الوسائل الشرعية للكبت والقهر . ولم يكن الارهاب ارهابا جماهيريا ، بل ارهابا حكوميا منظما لم يقتصر على الشيوعيين أو الاشتراكيين وحدهم ، بل لقد شمل الاحرار المعتدلين أيضا ..

كانت تعليمات موسولينى لاتباعه هى : أن يجعلوا حياة المعارضين صعبة ومستحيلة ..

وقد نفذ الاتباع هذه التعليمات بأمانة . فكل شىء يجب أن يكون فاشيا .. وكل الوظائف يجب أن يشغلها الفاشيون ..

أصبح موسولينى الحاكم المطلق فى ايطاليا . ولم يكن رئيس الوزارة فحسب بل ووزير الخارجية والداخلية والمستعمرات والحرب ، والبحرية والطيران والعمل !

كان فى الواقع مجلس وزراء بأكمله . اما البرلمان فقد تحطمت اختصاصاته شيئا فشيئا حتى صار شبحا . كان المجلس الفاشيستى الاعلى يحكم الدولة وموسولينى يحكم المجلس الفاشيستى الاعلى !

وقد لفتت الانظار فى أوروبا الخطب الاولى التى ألقاها موسولينى عن السياسة الخارجية . كانت خطبا غريبة انفجارية تهديدية ، لاتمت بصلة الى خطب الساسة والدبلوماسيين ورؤساء الدول . كان يبدو دائما متحديا طالبا للنزال ! كان يتحدث عن الامبراطورية التى ستبنيها ايطاليا ، والطائرات الايطالية التي سوف تملأ الجو ! وكثيرا ما هدد جارته فرنسا ، بغير مناسبة . وكانت فرنسا بالطبع اقوى بكثير جدا من ايطاليا ، ولكن لا احد فى فرنسا كان مستعدا للحرب ، وعلى ذلك فقد اهملوا خطب موسولينى وتركوه يتكلم . واصبحت عصبة الامم هدفا رئيسيا لهجوم موسولينى وتنديده واحتقاره ، بالرغم من ان ايطاليا كانت عضوا فيها . ومع ذلك فقد سكتت العصبة والامم المشتركة فيها على هذا العدوان ..

وقد تغير الكثير فى ايطاليا خلال هذه الفترة ، واصبح السائح يعجب بما يراه من مظاهر النظام فى كل شيء . واصبحت روما من اجمل البلاد بما أدخل عليها من منشآت ، وبات حلم الامبراطورية الرومانية يتهادى أمام أعين موسولينى !

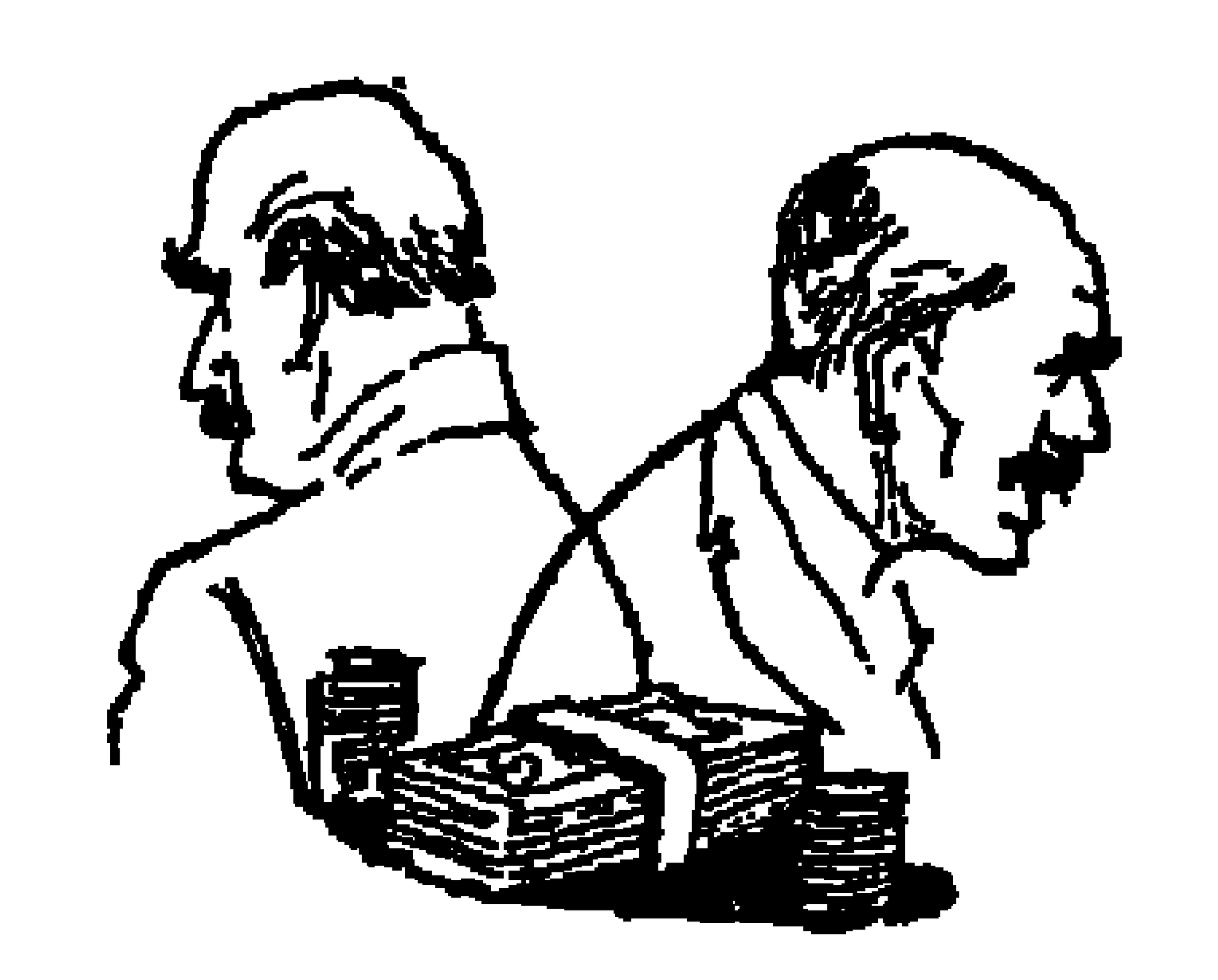
وقد استمر هذا الارهاب حتى سنة ١٩٢٦ ، وفى هذه السنة أصدر موسولينى عدة قوانين استثنائية ، أعطت الدولة سلطات هائلة للقضاء على المعارضة ، فأصبح هذا الارهاب لا لزوم له . وفى ظل هذه القوانين الاستثنائية كان الناس يسجنون ويعاقبون ويطردون من بلادهم بالمئات . والاحصاءات الرسمية تقول ان عدد الذين حوكموا طبقا لهذه القوانين فى الفترة بين سنتى ١٩٢٦ و ١٩٣٢ بلغ ١٠,٠٤٤ شخصا . وخصصت ثلاث جزر قريبة من ايطاليا لنفى غير المرغوب منهم ، هى جزر بونزا وفنتولين وترميتى ، كانت أحوال المعيشة فيها فظيعة

وقد استمر الضغط والاعتقالات حتى النهاية وعلى نطاق واسع . ومعنى ذلك أن المقاومة السرية والثورية ظلت ملتهبة فى تلك البلاد ، رغم كل المحاولات التى بذلت لاخمادها

وفى خلال ذلك كله تزايدت الاعباء المالية فى الدولة .. وساءت الاحوال الاقتصادية الى حد قارب الانهيار (١)

---

(١) كتب هذا الفصل قبل انهيار نظام موسولينى بسنوات



العالم الرأسمالي يفشل في الاتحاد

٢٨ يوليو ١٩٣٣

ما أطول القصة التي رويتها لك عن التنافس والتآمر المالي ! انى لاخشى أن يكون شكرك لى عليها قليلا ! انها اكثر نواحي الصراع الدولي تعقيدا ، الامر الذي يجعل الخروج منها أكثر صعوبة من الدخول فيها! ومع ذلك فانني لم أقدم لك الا محصول لمحة سريعة على السطح فحسب، ذلك ان أكثر ما يحدث في هذا الميدان من ميادين الصراع يبقى خافيا ، لا يخرج الى السطح أبدا ولا يرى فى وضح النهار

ان رجال المال والبنوك يلعبون فى هذا العالم الحديث دورا بالغ الاهمية ، حتى ملوك الصناعة . ذهبت أيامهم ، وأصبح رجل المال الكبير هو الذى يحكم الصناعة والزراعة والنقل ، وكل شيء ، حتى الحكومات نفسها ! ذلك ان الصناعة والتجارة مع تقدمها وازدهارها أصبحت تحتاج الى مزيد من النقد ، والبنوك هى التى تمول الصناعة والتجارة بهذا النقد . فأغلب الاعمال الصناعية والتجارية فى العالم تتم الآن بواسطة الاقتراض ، والبنوك الكبيرة هى التى تتوسع فى الاقراض أو تقلل منه ، وتسيطر عليه فى جميع الاحوال. رجل الصناعة ورجل الزراعة على السواء ، كل منهما مضطر للذهاب الى البنوك كى يقترض منه ما يستطيع أن يواصل به عمله ..

ولا يأتى ربح البنوك من فوائد هذه القروض فحسب ، بل من ازدياد سيطرتها تبعا لذلك على الصناعة والزراعة ، فالبنك يستطيع أن يدمر رجل الاعمال ، ويستطيع أن يرغمه على قبول الشروط التى يمليها عليه ، بمجرد امتناعه عن اقراضه ، أو بمطالبته — فى لحظة حرجة —

برد ما عليه ، وهذا النوع من الضغط يقع فى الحياة الداخلية لكل بلد وفى الحياة الدولية أيضا ، فالبنوك المركزية الكبيرة تفرض كثيرا من الحكومات فى بلاد مختلفة كما تفرض الافراد تماما . وبهذا الاسلوب يسيطر رجال البنوك فى نيويورك على كثير من حكومات أمريكا الوسطى والجنوبية ..

ومن أبرز خصائص هذه البنوك ، انها تكسب فى حالات الرواج والكساد على السواء ، فهى فى حالات الرواج تشارك فى الرخاء العام ، وتكسب من حركة النقود ، ومن اقراض المشروعات نظير فوائد مجزية . وهى فى حالات الازمة والكساد تقبض يدها على أموالها ولا تخاطر بها « وبذلك تضاعف حدة الازمة ، لأن الاعمال لا تستطيع الاستمرار بغير الاقتراض » ولكنها تكسب من ناحية أخرى : ففى فترات الازمة تهبط أسعار كل شىء .. الاراضى والمصانع على السواء .. وتفلس كثير من المنشآت ..

وهنا يستطيع البنك ان يتقدم ويشترى كل شىء ، برخص التراب ! اذا فمن مصلحة رجال البنوك أن تكون ثمة دورات متتابعة ، من الرواج والكساد !

وفى خلال الازمة العالمية التى حدثتك عنها ، ظلت البنوك الكبيرة ناجحة ، توزع أرباحا كبيرة . حقا ، قد أفلست كثير من البنوك فى أمريكا والنمسا وألمانيا ، ولكن البنوك التى أفلست فى أمريكا هى البنوك الصغيرة . والظاهر أن نظام البنوك فى أمريكا كان يعانى من نقص معين . أما انجلترا فلم يتأثر فيها أى بنك ..

رجال البنوك اذا هم السادة فى العالم الرأسمالى اليوم ، الأمر الذى حدا بكثير من الناس أن يطلقوا على هذا العصر اسم « العصر المالى » ، تمييزا له عن العصر الصناعى الذى سبقه ..

وقد رأينا كيف أن الصراع على الزعامة المالية بين انجلترا وأمريكا قد انتهى — حتى الآن — بفوز مدينة لندن . ولكن ماذا كانت ثمرة هذا النصر ؟ ان ثمرة هذا النصر التى استغرق الصراع من أجلهـا سنوات ، تتلاشى شيئا فشيئا . لقد هبطت تجارة انجلترا الدولية ، وهبطت معها الارباح التى تدعم هذه الزعامة المالية !

وفى مارس سنة ١٩٣٣ تعرضت أمريكا لازمة مالية أخرى . وقـد دفعت هذه الازمة أمريكا الى أن تتخلى عن قاعدة الذهب وتخفض قيمة الدولار ، بالرغم من أن أمريكا تملك من الذهب أكثر من أى دولة أخرى فى العالم . وقد كان هذا التخفيض بقصد تخفيف العبء عن الصناعة والزراعة ، وتحسـين حالة المدينين على حسـاب البنوك الدائنة

وفى يونيو سنة ١٩٣٣ ، بذل العالم الرأسمالى محاولة أخرى للتعاون على حل المشاكل التى تواجهه . وعقد مؤتمر اقتصادى دولى فى لندن ، تحدث المندوبون فيه عن « الرعب الذى يغمر العالم » وحذروا من أن

فشل هذا المؤتمر قد يؤدي الى تداعي البناء الرأسمالي كله

وبالرغم من كل هذه الاخطار والتحذيرات ، فقد عجزت القوى الكبرى عن التعاون ، وظلت كل واحدة منها تحاول أن تشق طريقها الخاص بها . وبذلك فشل المؤتمر ، واخذت كل دولة تواصل سياستها الاقتصادية الوطنية ..

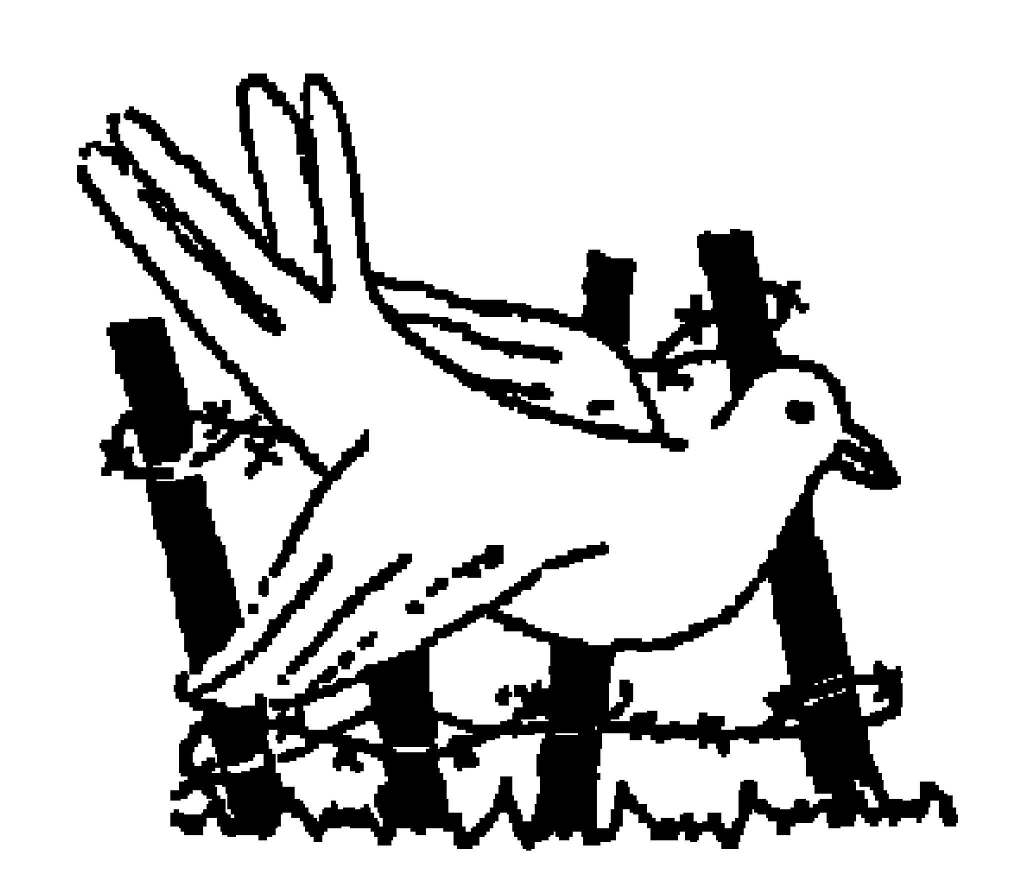
كان من المستحيل - مثلا - بالنسبة لانجلترا أن تكفي نفسها ، ما دامت لا تنتج الطعام اللازم لها ، وما دامت الخامات اللازمة لصناعتها تأتيها من الخارج . ومن أجل ذلك عمدت انجلترا الى الاخذ بسياسة اقتصادية وطنية على أساس يشمل الامبراطورية كلها ، بقصد جعل الامبراطورية البريطانية وحدة اقتصادية واحدة ، أو كتلة استرلينية واحدة . وبهذه الفكرة عقدت انجلترا مؤتمرا اقتصاديا للامبراطورية في أوتاوا . ولكنه حتى في هذا المؤتمر ثارت الصعوبات . فان كندا واستراليا وجنوب افريقيا لم تكن مستعدة لكي تفرط في أي مصلحة لها من أجل انجلترا . بل لقد كان على انجلترا أن ترضخ لبعض طلبات هذه الدول . وقد جعلت انجلترا الهند - رسميا فقط - توافق على معاملة البضائع الانجليزية معاملة خاصة ، بالرغم من المعارضة الشعبية الواسعة لهذا الوضع

وفي نفس الوقت ، ظهرت بوادر خطر آخر يهدد صناعات الامبراطورية البريطانية وأسواقها . لقد بدأت المنتجات اليابانية الرخيصة تتدفق في كل مكان ، وكانت رخيصة بحيث أن أي رسوم جمركية لم تكن كافية للحد من انتشارها . وهذا الرخص يرجع الى هبوط قيمة الـ « ين » ، والى تفاهة الاجور التي تدفع للفتيات العاملات في المصانع اليابانية ، والى أن شركات النقل البحري اليابانية لا تأخذ الا أجورا بسيطة

واذ فشلت الرسوم الجمركية في درء منافسة البضائع اليابانية ، عمدت انجلترا الى اغلاق بعض الاسواق اغلاقا محكما في وجه هذه البضائع ، أو الى عدم السماح لها بالدخول الا بكميات محددة

ولكن ، اذا تم طرد البضائع اليابانية من الاسواق بهذه الطريقة ، فماذا يصيب صناعة اليابان الضخمة ؟ اما أن يتحطم كيانها الاقتصادي كله ، واما أن تعمد الى خلق أسواق لها بالقوة .. وبذلك تنشب الحروب !

وتلك هي المراحل التي لا مفر منها..في عالم المنافسات الرأسمالية !



رسالة ختام ..

٩ اغسطس ١٩٣٣

ها نحن ، يا عزيزتى ، قد وصلنا الى ختام القصة . وليس لدى الآن ما أقوله ، ولكن رغبتي فى أن انهى خطاباتى اليك بنوع من التفاؤل ، هى التى تدفعني الى كتابة هذا الخطاب ـ آخر خطاب !..
وقد انتهيت من كتابة هذه الخطابات فى الوقت المناسب ، ذلك أن مدة السجن المحكوم بها على ـ وهى سنتان ـ قد قاربت الانتهاء .
فبعد ثلاثة وثلاثين يوما سوف يفرج عنى ، هذا اذا لم يفرج عنى قبل ذلك .. كما يهددنى السجان أحيانا ! والسنتان اللتان حكم بهما على لم ينته أجلهما بعد ، فقد خصموا من مدة سجنى ثلاثة أشهر ونصف ، كما يصنعون مع المسجونين الذين يسلكون فى السجن سلوكا حسنا ، وهم يعتبروننى من بين المسجونين المؤدبين ، بالرغم من انى لم أصنع شيئا أستحق عليه هذا اللقب ! ..
هكذا ينتهى السجن السادس لى ، وبعده أخرج الى العالم الواسع ولكن لاية غاية ؟ ان معظم أصدقائى وزملائى موزعون بين السجون ، وبلادى كلها تبدو وكأنها سجن كبير !
ما أكثر كمية الخطابات التى كتبتها ! وما أكثر ما استهلكت من الحبر والورق ، المصنوع صناعة وطنية ! ترى هل يستحق هذا كله شيئا ؟ هل وجدت فى كل ما حمله اليك كل هذا الحبر والورق شيئا يهمك ؟ ستقولين نعم بغير شك ، لانك تعرفين ان اى اجابة أخرى قد تؤلمنى . وأنت تحابيننى بحيث لا يمكن أن تقدمى على هذه المخاطرة .
ولكن ، سواء أعجبك ما كتبته لك أم لم يعجبك .. فانك لن تبخلى على بالسعادة التى كنت أشعر بها وأنا أكتب هذه الخطابات ، يوما بعد يوم ، خلال عامين طويلين ..

لقد جئت الى هنا فى الشتاء . ثم لم يلبث الشتاء أن أخلى مكانه لربيعنا القصير الذى سرعان ما اختنق فى حرارة الصيف . ولما جفت الارض وتشققت ، واصبح الناس والحيوانات على الســواء يلهثون بحثا عن نسمة هواء يستنشقونها ، جاء موسم المطر ، بمياهه الباردة المنعشة . وبعد ذلك جاء الخريف ، واصبحت السماء زرقاء صافية ، والليالى جميلة رائعة . وهكذا انتهت دورة العام ، لكى تبدأ من جديد : الشتاء ثم الربيع ثم الصيف ثم فصل الامطار .. كل هـذا وأنا جالس هنا ، أكتب اليك ، وأفكر فيك ، وأرقب الفصول تمر ، واستمع الى حبات المطر وهى تطرق سطح الثكنة التى أقيم فيها ..

« ما أجمل صوت المطر ..
« على الارض وفوق السقوف ..
« ما أجمل غناء المطر ..
« للقلب الحزين الاسيف » ! .. (١)

لقد كتب بنيامين دزرائيلى ، رجل الدولة الانجليزى الشهير فى القرن التاسع عشر « ان الرجل العادى اذا حكم عليه بالنفى أو الاسر ، ضاع لبه . أما رجل الادب ، فانه يعتبر أيام السجن أسعد أيام حياته ! » .. قال دزرائيلى هذا الكلام وهو يكتب عن « هوجو جروشيوس » ، وهـو قاض وفيلسوف هولندى شهير ، عاش فى القرن السابع عشر ، وحكم عليه بالسجن مدى الحياة ، ولكنه فر من سجنه بعد سنتين . وقد قضى هاتين السنتين فى كتابة أعمال أدبية وفلسفية هي التى خلدت ذكره . والتاريخ يذكر لنا كثيرا من البلابل التى غردت وراء قضبان الســجون ، مثل الإسبانى سرفانتس مؤلف « دون كيشوت » ، والانجليزى « جون بنيان » ..

ولكننى لست من رجال الادب ، ولا أنا أزعم ان السنوات الكثيرة التى قضيتها فى السجن كانت أسعد أيام حياتى ، ولكن الذى يجب أن أعترف به هو ان القراءة والكتابة قد ساعدتنى مساعدة رائعة على اجتياز هذه السنين ، نعم ، اننى لست أديبا ولا مؤرخا .. اذا ، فمن أنا ؟ ما أصعب الاجابة على هذا السؤال لقد جربت أشياء كثيرة . بدأت بدراسة العلم فى الكلية ، ثم اتجهت إلى القانون ، وبعد أن مررت بمهن كثيرة فى الحياة ، اتجهت الى المهنة الشعبية الواسعة الانتشار فى الهند ، وهى التردد على السجن !!

واياك أن تأخذى شيئا مما حدثتك به فى هذه الخطابات على انه قضية مسلمة ، أو على انه كلام خبير .. ان رجل السياسة فى العادة يحب الادلاء برأيه فى كل موضوع ، وهو عادة يتظاهر بمعرفة اكثر مما يعرف فعلا ! « ولذلك فانه يجب مراقبته بدقة ! ..

وهذه الخطابات التى بعثت بها اليك ليست سوى خطوط أولية يربط بينهما خيط رفيع ..

وفى رحلتى هذه حول العالم ، كنت أقفز أحيانا على قرون واحداث بالغة

---

(١) أبيات من الشعر الفرنسى

الاهمية ، فاذا وصلت الى حادث يهمنى نصبت خيمتي وأقمت عنده زمنا طويلا . وسوف تلاحظين ان هذه الرسائل تدل بوضوح على ما أكره وما أحب ، كما تدل أحيانا على تغير حالتى النفسية فى السجن ..

ولست أحب أن تأخذى ما حدثتك به هنا قضية مسلما بها ، فقد يكون ثمة خطأ فى بعض حسابى .. هذا الى أن السجن ـ حيث لا توجد مكتبات ولا مراجع فى متناول اليـــد ، ليس المكان الملائم للكتابة فى الموضوعات التاريخية ، فكان على أن أعتمد الى حد كبير على الملاحظات التى تعودت أن أدونها منذ اثنتى عشرة سنة مضت ، حين بدأت أتردد على السجون .. وقد استطعت أن أقرأ هنا كتبا كثيرة . ولكن هــذه الكتب كانت تجيىء وتذهب ، اذ كان من المستحيل على أن أقتنى مكتبة فى هذا المكان . وقد أخذت من هذه الكتب ، وبلا تحرج ، الكثير من المعلومات والافكار، فليس فيما كتبت شىء من ابتكارى ..

وقد تجدين صعوبة فى متابعة بعض رسائلى .. فدعيها جانبا ، ولا تهتمى بها ..

اننى لم أقدم لك فى هذه الرسائل تاريخا .. بل مجرد خطوط فاذا أعجبتك دراسة التاريخ ، اذا وجدت فى قراءته بعض المتعة ، فسوف تجدين بغيتك فى كتب التاريخ الكثيرة التى تساعدك على فهم العصور الغابرة ..

ولكن قراءة الكتب وحدها لا تكفى . فلكى تعرفى الماضى يجب أن تنظرى اليه فى مشاركة وفهم .. لكى تفهمى انسانا عاش منذ زمن يجب أن تفهمى البيئة التى أحاطت به ، والظروف التى عاش فيها ، والافكار التى كانت تملأ رأسه . فانه لمن السخف أن نحكم على الذين عاشوا قبلنا كما لو كانوا يعيشون فى عالمنا ويفكرون كما نفكر

ففى عصرنا هذا مثلا لا نجد مخلوقا واحدا يدافع عن الرق ، ومع ذلك فان مفكرا عظيما مثل أفلاطون كان يعتبر وجود الرق ضروريا ..

وقد يتفق الجميع على أنه من المستحيل أن نحكم على الماضى بالمعايير الحاضرة . ولكننا نجد من لا يعترف بسخف الجانب المقابل ، وهو الحكم على الحاضر بالمعايير الماضية

فاذا نظرت الى التاريخ القديم بعين العطف ، فسوف تجدين ان العظام الجافة فى كيانه قد أصبحت جسدا حيا نابضا من اللحم والدم .. الاحياء رجالا ونساء .. سوف ترين موكبا باهرا من الاحياء رجالا ونساء وأطفالا ، من جميع الاعمار والاجواء ، يختلفون عنا ولكنهم يشبهوننا تماما .. فى كل ما يتميز به الانسان من قوة وضعف !

ان رؤوسنا لتزدحم بالصور المعلقة فى أبهاء التاريخ ! .. مصر ـ بابل ـ نينوى ـ الحضارة الهندية القديمة ـ قدوم الآريين الى الهند وانتشارهم فى أوربا وآسيا ـ الثقافة الصينية الرائعة ـ الاغريق ـ امبراطورية روما وبيزنطة ـ الغزو العربى الظـــافر عبر قارتين ـ الحضارة الازتكية المجهولة فى أمريكان ـ فتوحات المغول الواسعة ـ العصور الوسطى فى أوربا وكتدرائياتها القوطية الباهرة ـ قدوم الاسلام

الى الهند والامبراطورية المغولية ـ النهضة الفنية والعلمية فى غرب أوربا ـ اكتشاف أمريكا والطرق البحرية الى الشرق ـ الغزو الغربى للبلاد الشرقية ـ ظهور الالات الكبيرة ونمو الراسمالية ـ انتشار الصناعة وسيطرة الرأسمالية الاوروبية ـ وكل عجائب العلم فى العالم الحديث

كثير من الامبراطوريات قامت وسقطت ونسيها الانسان آلافا من السنين ، قبل أن يعثر عالم صبور مرة أخرى على حفرياتها المطمورة فى الرمال .. وكثير من المبادىء والاحلام عاشت ، وأثبتت انهـا اقوى وأثبت من أى امبراطورية

« لقد سقطت حضارة مصر ..
وسقط اليونان ، ومدينة طروادة ..
وفقدت روما تيجانها ..
وفقدت فينيسيا كبرياءها ..
ولكن الاحلام التى طافت باطفالها ..
العابرة ، الوهمية ، النابضة ..
هى التى بقيت » ..
هكذا تغنى مارى كولردج ..

حقا ان الماضى ليمنحنا الكثير .. فكل ما لدينا الان من ثقافة وحضارة وعلم ، هبات ماض بعيد أو قريب .. فمن الحق اذا أن نعترف بديننا نحو هذا الماضى ..

ولكن المـاضى لا يجب أن يستغرق عرفاننا . فان فى أعناقنا نحو المستقبل واجبا لا يقل ، بل لعله يزيد ، عما ندين به لهذا الماضى .. فما فات قد مضى .. ومن المستحيل أن نغيره .. أما المستقبل فانه لم يأت بعد ، ولعلنا نستطيع أن نشارك فى تشكيله .. فاذا كان الماضى قد اعطانا جزءا من الحقيقة ، فان المستقبل يخفى جوانب أخرى منها ويدعونا الى البحث عنها .. ولكن الماضى يغار دائما من المستقبل ، وهو يمسك بنا دائما بقبضته القوية ، وعلينا نحن أن نصارعه حتى نتحرر ونواجه المستقبل ، ونتقدم اليه ..

ومن الاقوال المالوفة ان التاريخ يعلمنا دروسا كثيرة .. ومن الاقوال المالوفة أيضا أن التاريخ لا يعيد نفسه أبدا .. وكلا القولين صحيح .. ذلك اننا لن نتعلم منه شيئا بمجـرد النقل عنه ، أو بتوقعنـا منه أن يعيد نفسه .. ولكننا نستطيع أن نتعلم منه بالاسترشاد به وبمحاولة اكتشاف القوى التى تحركه ، وحتى فى هذا الصدد ، لانظفر عادة باجابات مستقيمة ! وقد قال كارل ماركس : ان التاريخ يجيب على الاسئلة القديمة بطرح أسئلة جديدة ! ..

كانت الايام الخالية أيام ثقة عمياء ، لا تساؤل فيها ولا تشكك .. هذه المعابد والمساجد والكاتدرائيات القديمة البـاهرة ، كان من المستحيل أن تبنى بغير الايمان الفياض فى نفوس المهندسين والبنائين والناس أجمعين .. والاحجار التى كانوا يضعونها حجرا فوق حجر ،

أو يحفرون عليها الرسومات الجميلة لتنبئنا بهذا الايمان ، حتى الان ، نجد أبراج المعابد ، ومآذن المساجد ، والكاتدرائيات بارتفاعها الشاهق الى السماء ، فى اخلاص ، كأنها ترفع الى السماء صلاة صامتة من الحجارة والمرمر ، ما زالت تؤثر فينا الى الان ، حتى ولو كان ينقصنا ذلك الايمان الذى أقامها ، ولكن أيام هذا الايمان قد ذهبت ، وذهبت معها تلك الروح التى كانت تسحر الحجر .. آلاف المعابد والمساجد والكاتدرائيات ما زالت تبنى الى اليوم ، ولكنها تفتقر الى تلك الروح التي كفلت للآثار القديمة هذا البقاء .. ان المعابد هذه الايام لا تختلف كثيرا عن بناء المؤسسات التجارية ، التى تمثل عصرنا الراهن خير تمثيل

ان عصرنا الراهن هذا عصر لا وهم فيه .. انه عصر الشك والتردد والسؤال .. ونحن أبناء هذا العصر لم نعد نقبل الكثير من المعتقدات القديمة ، لم نعد نؤمن بها ، سواء لما فى آسيا أو أوروبا أو أمريكا .. ولهذا فنحن نبحث عن طرق جديدة ، عن جوانب اخرى للحقيقة ، تكون أكثر ملاءمة لما يحيط بنا من ظروف .. نحن لا نكف عن توجيه الاسئلة ، أو عن المناقشة والصراع والخوض فى عديد من الآراء والفلسفات نحن الان نعيش فى عصر يشبه عصر سقراط ، عصر تساؤل مستمر ، ولكن تساؤلنا ليس مقصوراً على مدينة واحدة كأثينا بل انه يشمل العالم بأسره ..

وانه ليحدث كثيرا ان يضغط علي عقولنا ما نراه فى العالم من ظلم ، وتعاسة ، ووحشية ، فتسود الدنيا فى عيوننا ولا نرى طريقا للخلاص .. ونشعر انه لا أمل فى هذا العالم على الاطلاق ..

ومع ذلك ، فان الاستسلام لهذه النظرة القاتمة ، معناه أننا لم نفهم درس الحياة والتاريخ فهما صحيحا ..

ان التاريخ يعلمنا التقدم والنمو ، وامكان تطور الانسان الى الاحسن ، والحياة منيفة حافلة ، فقد يكون عليها كثير من الطين والماء الآسن والمستنقعات ، ولكن هناك أيضا البحار العظيمة ، والجبال والثلج ، وضوء النجوم الباهر فى حلكة الليل « خصوصا فى داخل السجن ! » .. وهناك الحب .. حب الاهل والاصدقاء ، وزمالة العاملين لاجل غاية واحدة ، وهناك الموسيقى ، والكتب ، وعالم الافكار بأسره ..

وانه لمن السهل دائما أن يحب الانسان ما فى هذا الكون من جمال ، وأن يعيش هائما فى عالم الفكر والخيال .. ولكن الفرار ــ بهذه الطريقة ــ من شقاء الآخرين ، وعدم الاهتمام بما يصيبهم ، ليس من علامات الشجاعة .. فالفكر لكي يحقق نفسه ، يجب أن يقود صاحبه الى العمل . وقد قال رومان رولاند « ان العمل هو نتيجة الفكر .. وكل فكر لا يؤدى الى العمل يعد خيانة » ..

والناس يتجنبون العمل عادة ، خوفا من العواقب ، لان العمل معناه المخاطرة .. والخطر يبدو من بعيد شيئا رهيبا حقا ، ولكنك

لو نظرت اليه من قرب فلن تجديه مفزعا الى هذا الحد .. بل انه كثيرا ما يكون زميلا رائعا ، يضاعف متعة الحياة

ان الحياة الرتيبة العادية كثيرا ما تصبح مملة ، نأخذ فيهـــا الاشياء ، على انها أمور طبيعية لا تستوجب الفرح ، ولكن ، ما أعظم ما نقدر هذه الاشياء ونحبها عندما نحيا بدونها قليلا من الوقت ! .. ان كثيرا من الناس يتسلقون الجبال ويخاطرون بحياتهم بحثا عن المتعة التى يجدونها فى هذا التسلق ، والنشوة التى يمنحها اياهم اقتحام الخطر والتغلب على الصعاب ، والفرحة بالحياة المثيرة المعلقة بخيط رفيع ! ..

وكل واحد منا يستطيع ان يختار بين الحياة فى الوديان المنخفضة ، بما فيها من ضباب غير صحى ، لانها تمنحنا نوعا من السلامة ، وبين سكنى الجبال العالية بما فيها من مخاطر من أجل استنشاق الهـواء الطلق ، وتأمل المناظر البعيدة واستقبال الشمس المشرقة ..

وقد لاحظت اننى كتبت لك فى هذا الفصل كثيرا من مقتطفات الشعر ، ولكنى أحب أن أختم خطابى هذا بأبيات أخيرة ، من قصيدة ، أو صلاة ، كتبها رابندرانات طاغور :

حيث العقل لا يخاف والراس مرفوعة عالية ..
حيث المعرفة حرة ..
حيث العالم لم تمزقه جدران التعصب ..
حيث تخرج الكلمات من أعماق الحقيقة ..
حيث تجد المحاولة التى لا تمد ذراعيها الى الكمال ..
حيث لا يفقد جدول العقل مجراه فى صحراء التقاليد الميتة ..
حيث العقل فى تقدم دائم نحو ساحات افسح من الفكر والعمل ..
فى هذه السماء من الحرية ، يا ابت ، دع وطنى يصحو ! ..

لقد أنهيت قصتى ، وهذا هو خطابى الاخير ..

خطابى الاخير ؟.. كلا .. فسوف أكتب لك المزيد .. فهذه السلسلة وحدها هى التى انتهت ..

فهرس

كتب هلال صدرت فى سنة ١٩٦٥ ، ١٩٦٦

رقم الكتاب		
١٦٦	محمد رسول الحرية	: عبد الرحمن الشرقاوى
١٦٧	البحث عن شيكسبير	: د. لويس عوض
١٦٨	اسرائيليات	: أحمد بهاء الدين
١٦٩	حقائق الاسلام واباطيل خصومه	: عباس محمود العقاد
١٧٠	مختارات من برناردشو فى النقد والسياسة	: د . عمر مكاوى
١٧١	أساطير الحب والجمال عند الاغريق	: درينى خشبة
١٧٢	عشرة أدباء يتحدثون	: فؤاد دوارة
١٧٣ – ١٧٤	مذكرات شارلى شابلن ج ١ ، ج ٢	: صلاح حافظ
١٧٥	كتابات لم تنشر	: د . محمد مندور
١٧٦	ثورة الزنوج فى امريكا	: د . عبد الملك عودة
١٧٧	معارك فكرية	: محمود امين العالم
١٧٨	ابو ذر الغفارى	: عبد الحميد جودة السحار
١٧٩	دليل المتفرج الذكى الى المسرح	: الفريد فرج

كتاب الهلال القادم

على هامش الغفران

تأليف الدكتور لويس عوض

يصدر ٥ أبريل سنة ١٩٦٦

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

اللاذقيـــة : السيد نخلة سكاف

جـــــدة : السيد هاشم بن علي نحاس ـ ص٠ب ٤٩٣

البحـرين : السيد مؤيد احمد المؤيد ـ ص٠ب ٢١

البـــرازيل :
Mr. Miguel Maccul Cury,
R. 25 de Marco, 994,
Caixa Postal 7406,
Sao Paulo, BRAZIL

ســـنغافورة :
Mr. Ahmed Bin Mohamad Bin Samit
Al Maktab Attijari Assharat,
P.O. Box 2205,
SINGAPORE

انجلترا :
ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Bishoposthorp eRoad
London S.E. 26
ENGLAND



هذا الكتاب

سنجد فى هذه الرسائل لمسة الاب نهرو وهو يخاطب ابنته انديرا فى حنان ومحبة . ولكننا سنجد كذلك لمسة نهرو المفكر والمناضل والثائر والمحب للهند وللانسانية ..انه يكتب هذه الرسائل من السجن ، ليدافع بها عن الحرية وليصوغ المستقبل ، للهند وللعالم

يقول لابنته فى رسالة منها : وداعا يا صغيرتى .. لتصـ
جندية باسلة فى خدمة الهند..ويقول لها فى رسالة اخرى :
تحرير وطننا ، ولكننا نعمل كذلك على تحرير الانسانية ..

وبهذه الرسائل صاغ نهرو فكر ابنته وضميرها وهى ما
عشرة من عمرها ..

واليوم تقف انديرا فى مكان ابيها، على راس الهند ..لتش
مستقبل الهند ومستقبل العالم ،وفى فكرها وفى ضميرها عصا

وفى هذا الكتاب مختارات من هذه الرسائل تعبر عن راى
الثورات البشرية التى غيرت مجرى التاريخ ، الثورات السيا
والفكرية ..

انها وصية نهرو الى ابنته انديرا.. ولكنها فى الحقيقة وصية
اب ، والى كل أم ، والى كل ابن ، والى كل ابنة ، والى كل انسان

انها دعوة مخلصة الى التحرر والتقدم والعلم والسلام


Bibliotheca Alexandrina
0686991